المجلس الأعلى للثقافة

موت المرابى

تأليف

صدر الدين عينى



المشروع القومي للترجمة

ترجمة

محمد علاء الدين منصور
عبد الحفيظ يعقوب حجاب

رواية

439

شروع القومى للترجمة

موت المرابى

(رواية)

تأليف : صدر الدين عينى

ترجمة : محمد علاء الدين منصور

عبد الحفيظ يعقوب حجاب



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٣٩
- موت المرابى
- صدر الدين عينى
- محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب حجاب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة لرواية : مرگـ سود خور
تأليف : صدر الدين عينى
دار النشر : نشريات دولتى طاجيكستان
ستالين آباد - ١٩٥٦

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax** : 7358084

مقدمة المترجمين

يسعدنا أن نقدم أول رواية يتفضل المجلس الأعلى للثقافة بنشرها أُلِّفت بالفارسية وباللهجة التاجيكية وتمثل الأدب التاجيكي الحديث لأديبه المُبرِّز صدر الدين عيني . هذه الرواية الطريفة الشائقة الاجتماعية تؤرخ أحداث المدينة العتيقة التاريخية (بخارى) من أقدم مدن أوزبكستان الحالية فى الربع الأول للقرن العشرين من خلال سيرة مرابٍ يتصور فساد بعض رجال الدين بداية من هذا المقرئ المرابى حتى نائب كبير القضاة وكبير القضاة نفسه الذين كانوا يتحكمون فى القضاء آنذاك وتعاونهم مع كبار التجار بالمدينة وكبار ملاك الأراضى بالقرى ، وارتباط الفريقين بالحكام والمسئولين من الشرطة وجنود الأمير الذين يحمونهما ويقاسمونهما عرق الفقراء فى المدن والقرى وما كانوا يحصلون عليه من أموال ضخمة نتيجة استيلائهم بوسائل الخداع والإرهاب على أراضى الفلاحين العاجزين عن أداء قروضهم وفوائدها المركبة للمرابين والعمد ، وتنتهى أحداث الرواية المروية فى انسجام واتساق ووصف دقيق ومفصل للشخصيات وحوار متين يُعيد الثورة البلشفية فى روسيا واستيلاء أتباع

البلاشفة على هذه النواحى ، وكيف رنت أبصار الفقراء إليهم على أمل الخلاص والنجاة من معيشتهم المزرية . ولغة الروائى الفارسية التاجيكية تختلف اختلافًا ظاهرًا عن فارسية إيران فى أمور شتى : منها أن الجملة لا تسير على النسق الإيرانى أحيانًا ، ويستخدم الكاتب المصادر المركبة من ثلاثة مصادر بسيطة وصيغًا فعلية جديدة تركية وروسية أو عربية وفارسية بشكل مختلف ، ومع هذا تظل مفهومة يسيرة لمن يتمعن فى الجملة ويلتقط معناها بسرعة ويسر . وما ذكرته إجمالاً له تفصيلات يطيب لى أن أدع أخى وشريكى فى الترجمة الدكتور عبد الحفيظ يعقوب أن يتحفنا بها ؛ فهو فى هذا الباب أطول منى باعًا ، وقد سبق أن أصدر أبحاثًا قيمة عن الأدب التاجيكى وأشهر أدبائه ؛ فهو أحق بأن نسمع منه ، يقول الدكتور عبد الحفيظ فى ذلك كله :

إن هذه الرواية للكاتب صدر الدين عينى رائد الأدب التاجيكى المعاصر ، ولم يكن ظهور صدر الدين عينى إلا ثمرة لتيار فكرى وأدبى جديد بدأت إرهاصاته الأولى مع النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

وكان هذا التيار الفكرى والأدبى الجديد بدوره نتاجًا طبيعيًا لما شهدته آسيا الوسطى فى تلك الفترة من أحداث سياسية أدت إلى إيجاد تغييرات مهمة وجادة شملت كافة مناحى الحياة فى آسيا الوسطى ؛ ففى تلك الفترة بدأت روسيا القيصرية الزحف شرقًا باتجاه آسيا الوسطى

وذلك لتحقيق جملة من أهدافها الاستعمارية [١] ، وتمكنت بسهولة ويسر من السيطرة على الجزء الأكبر من آسيا الوسطى ، وأطلقت عليه اسم " تركستان الروسية " [٢] أما الجزء المتبقى من آسيا الوسطى فكان خاضعًا فى الواقع للنفوذ الروسى ؛ حيث كان للقياصرة الروس مندوبون عنهم فى تلك المناطق هم أصحاب القرار الفعليون [٣] .

ومع التواجد الروسى فى المنطقة بدأ عصر جديد من الانفتاح على العالم الخارجى ، وبدأ أهالى آسيا الوسطى يتعرفون على أنماط من الحياة أكثر تطورًا وتقدمًا مما هى عليه فى آسيا الوسطى وبصفة خاصة فى النواحى الثقافية والاقتصادية ؛ حيث كانت الأوضاع فى آسيا الوسطى حتى ذلك الوقت ما تزال تسير وفق ما كانت عليه النظم والأوضاع فى العصور الوسطى ، وأدت سياسة الانغلاق التى مارستها الحكومات فى آسيا الوسطى إلى انتشار الفقر والجهل والتخلف ، ووصلت الحياة الثقافية فيها إلى أدنى درجات الانحطاط [٤] .

(١) فامبرى : أرمنيوس – تاريخ بخارى ، ترجمة وتعليق د. أحمد محمود الساداتى ، القاهرة بدون تاريخ الفصل التاسع عشر ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٢) بلنتيسكى : أ – خراسان وما وراء النهر (أسياى ميانة) ، ترجمة برويزورجاوند ، مؤسسة مطالبات وتحقيقات فرهنكى ، تهران – ١٣٧٠هـ . ش . ص ١٢

(٣) بجكا : ايرزى وديكران – تاريخ أدبيات إيران ، ترجمة كيخسر وكشاورزى، انتشارات كتنبرك ، جاب أول ، تهران ١٣٧٠هـ . ش . ص ٥٤٤

(٤) قباديانى : رحيم مسلمانيان – زبان وأدب فارسى درفرارود . تهران ١٣٧٦ هـ ش. ص ١١١

وفضلاً عن التواجد الروسى الذى أتاح قدرا من الانفتاح ، فقد أتيح لبعض المفكرين والتجار وغيرهم السفر خارج البلاد ، وأدركوا بوضوح حجم التخلف الرهيب الذى تعانى منه البلاد فى كافة المجالات (٥) .

لقد أدت هذه المستجدات إلى ظهور مجموعة من المفكرين والأدباء الوطنيين بقيادة " أحمد دانش" ، راحوا يفكرون فى ضرورة البحث عن حلول لإنقاذ البلاد من مثل هذا التخلف واجتمعوا جميعًا على حتمية التغيير ، وأنه لابد من القيام بحركة إصلاحية شاملة ، واشتهرت هذه المجموعة باسم " معارف بروان " أى " أساتذة العلوم " ، وإليهم تنسب تلك المرحلة من تاريخ الأدب الفارسى التاجيكى ، والتى تعرف باسم " دورة معارف بروان " أى " مرحلة أساتذة العلوم " .

ومن أبرز أهداف هذه المجموعة من الأدباء والمفكرين : القضاء على الأمية ، ورفع المستوى الثقافى للمواطنين ، والتوسع فى تعليم اللغات الأجنبية ، وتنمية وزيادة العلاقات التجارية والاقتصادية بين بخارى وغيرها من الدول ، والاهتمام بمياه الرى وشق الترع والقنوات اللازمة للزراعة ، وتطور هذا القطاع وإعادة تنظيم الهيئات الإدارية والحكومية بالدولة والدفاع عن حقوق العاملين والمواطنين بالدولة (٦) .

(٥) المرجع السابق ص ١١١

(٦) يا حقى : محمد جعفر – جون سبوى تشنه " أدبيات معاصر فارسى " انتشارات جامى ، جاب جهارم ، تهران ١٣٧٣ هـ . ش . ص ٣١٧، ٣١٨

وهكذا تبدو من خلال أهداف هذه الجماعة أنها حركة إصلاحية تنويرية طرح أعضاؤها أفكارهم وأهدافهم من خلال الأعمال الأدبية على اختلاف أنماطها من أشعار وحكايات وروايات وقصص وكتب رحلات ومراسلات وغير ذلك من الأنماط الأدبية مما أوجد لهم مكانة خاصة فى تاريخ الأدب الفارسى التاجيكى .

ومع أن معظم الأدباء والشعراء فى تلك الفترة كانوا يكتبون وينظمون أعمالهم متبعين الأساليب القديمة التقليدية ، إلا أنهم ابتعدوا عن الموضوعات التقليدية التى كانت سائدة خلال المراحل الأدبية السابقة كالوصف والغزل والزهد والتصوف وراحوا يعبرون فى أعمالهم عن أهم القضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الواقعية المرتبطة برغبات الشعب واحتياجاته وهمومه واهتماماته ؛ أى أنهم انتقلوا بقضايا الأدب وموضوعاته من التقليدية والخيال إلى الواقعية الشديدة ، واختاروا أبطال أعمالهم الأدبية من بين الأشخاص العاديين المتواجدين بين عامة الناس ، وهو ما نراه بوضوح من خلال رواية " مرك سود خور" موت المرابى لصدر الدين عينى.

حياة صدر الدين عينى وتكوينه الفكرى

ولد صدر الدين عينى عام ١٢٥٦ هـ ش الموافق ١٨٧٨م فى غجدوان إحدى قرى وادى زرافشان بالقرب من مدينة بخارى من أسرة ريفية كان والده يعرف باسم سيد مراد خواجه (٧) . ونتيجة لانتشار أحد الأوبئة توفى والداه فجأة فى وقت واحد عام ١٨٨٩ م مما دفع صدر الدين عينى لترك قريته التى كان يدرس بها ورحل إلى مدينة بخارى مصطحبًا معه شقيقه الأصغر سراج الدين وأقاما مع أخيهما الأكبر محى الدين والذى كان يواصل دراسته فى مدينة بخارى.

واضطر صدر الدين عينى للعمل بجانب الدراسة حتى يتمكن من مواجهة أعباء الحياة وخلال رحلة العمل والدراسة . بدأ صدر الدين عينى يسمع بالندوات الفكرية والأدبية التى كانت تعقد فى

(٧) يذكر صدر الدين عينى أن والده كان محبًا للشعر ، ويحفظ العديد من أشعار بيدل كثيراً ما كان يرددها انظر :

- عينى : صدر الدين – يادداشتها به كوشش أقاى سعيد سيرجانى ، تهران ١٣٧٢ هـ ش ، ص ١٢٢

– يا حقى – جون سبوى تشنه ، ص ٣٢٧

بيت شريف جان مخدوم صدر ضيا [8] ، والذى كان مقراً للمستنيرين من المفكرين والأدباء ليصبح بعد ذلك واحداً من رواد ذلك المنتدى ، وهناك تعرف صدر الدين عينى على عدد كبير من المفكرين والأدباء ، وربطته صداقة خاصة بكل من محمد صديق حيرت [9] وميرزا عبد الواحد منظم [10] .

ومنذ عام ١٨٩٣م بدأ صدر الدين عينى فى نظم الشعر باسم (تخلص) سفلى أو محتاجى وكذلك جنونى ثم بدأ يتخلص باسم عينى منذ عام ١٨٩٦م [11] .

وفى عام ١٩٠٦م انتهى عينى من دراسته الجامعية ، وعمل مترجمًا بإحدى المدارس الجديدة ؛ حيث كان يقوم بترجمة شروح

(٨) شريف جان مخدوم المعروف باسم صدر ضيا (١٨٦٥ م - ١٩٣١م) هو أحد رواد حركة التنوير ، وكان لصالونه الأدبى أهمية خاصة فى تطور الفكر والأدب التاجيكى ومن أهم مؤلفاته " تذكرة الحمقاء " وله أيضًا مؤلف آخر باسم " نوادر ضيائية " ، وكان يتميز أسلوبه بالبساطة . انظر - بجكا وديكران - تاريخ أدبيات إيران ، ص ٥٥٠

(٩) محمد صديق حيرت شاعر تاجيكي عاش فى الفترة من ١٨٧٨ - ١٩٢٠م ، وكان يدرس مع صدر الدين عينى وقد تعلم منه قواعد علم العروض وبعض القضايا الأدبية الأخرى . انظر :- قزوه / خورشيدهاى كمشده ، ص ٥٠

(١٠) أديب تاجيكى عاش فى الفترة من ١٨٧٧ - ١٩٣٤م ، ومن أشهر مؤلفاته " راهبر خط "

انظر - قباديانى / زبان وأدب فارسى در فرا رود ، ص ١١٧

(١١) قباديانى : رحيم مسلمانيان / دانشنامه أدب فارسى ، جلد يكم / آسياى مركزى ، تهران ١٣٧٥ هـ .ش ، ص ٦٣٠

وأحاديث المعلمين التتار للتلاميذ من اللغة التتارية إلى اللغة الفارسية التاجيكية ، وفى عام ١٩٠٧م وبالتعاون مع صديقه عبد الواحد منظم أسس مدرسة جديدة تقوم على الأسس الحديثة ، ووضع كتابًا مدرسيًا لهذا الغرض عام ١٩٠٩م باسم " تهذيب الصبيان " وهو كتاب فى أصول التربية استكمله وأعاد طبعه عام ١٩١٧م ، وبسبب أفكاره التقدمية قامت الحكومة بإغلاق المدرسة ومنعت عينى من التدريس فالتحق للعمل بأحد مصانع القطن بمنطقة " قزيل تيه " بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٦م ، وبدأت أفكاره الإصلاحية تنتشر بين العمال الأمر الذى أثار مخاوف الأمير عالم خان المنغيتي حاكم بخارى (١٩١٠: ١٩٢٠م) ؛ فأمر بعودته لبخارى وتعيينه مدرسًا بالمدرسة العليا فى بخارى ، وعاد عينى إلى بخارى لكنه لم يعمل بالتدريس وانشغل بالكتابة والأدب حيث كان ينشر أشعاره ومقالاته فى المجلات التى ظهرت حديثًا فى بخارى مثل " شورا " و " آيينه" .

وفى هذه المرحلة تبلورت شخصية صدر الدين عينى الأدبية والفكرية ويمكن القول بأنها وصلت إلى طور النضج فأصبح عضوًا بارزًا فى الجماعة التى ظهرت فى ولاية بخارى مع بداية القرن العشرين الميلادى وعرفت باسم " حركة المجددين " أو " نهضة شباب بخارى " (١٢) ، وقد ساعد على نشأتها واستمرارها عدة عوامل منها:

(١٢) لقد عرفوا بهذا الاسم بسبب تمركزهم فى بخارى ، ولكنهم فى الواقع كانوا متواجدين فى مناطق أخرى مثل : سمرقند ، وخجند ، وفرغانه وغيرها .

– انظر – قباديانى / زبان وأدب فارسى در فرا رود ، ص ١١٨

١- استمرار سياسة الظلم وشيوع مظاهر التخلف فى البلاد مع انعدام الرغبة فى الإصلاح من قبل الأمير والجهاز الحاكم .

٢- انتشار الأفكار التنويرية والدعوة الإصلاحية التى بدأها أساتذة العلوم بقيادة أحمد دانش وما تركوه من أعمال أدبية تدعو لهذه الأفكار ومن أهم هذه الأعمال الأدبية " نوادر الوقايع " لأحمد دانش ، و " بدائع الصنائع" لشمس الدين شاهين ، و " سوانح المسالك وفراسخ الممالك " لرحمت الله واضح ، و " مضحكات " لعبد القادر سودا ، وقد كتبت هذه الأعمال باللغة الفارسية التاجيكية وكان لها تأثير كبير فى التوجهات الثقافية والسياسية فى آسيا الوسطى بالكامل (١٣) .

٣- ظهور عدة مطبوعات يومية وشهرية ذات أفكار تنويرية إصلاحية يصدرها ويشرف عليها مجموعة من الإصلاحيين وقادة الفكر على مستوى العالم الإسلامى ، كانت تصدر بعدة لغات بما فيها اللغة الفارسية وتنشر فى بعض الأقطار الإسلامية مثل : مصر ، وإيران ، وأفغانستان ، والهند ، وتركستان ، وأذربيجان ، وغيرها . ومن أهم هذه المطبوعات " ترجمان " ، و " جهره نما " ، و " سراج الأخبار " ، و " شورا " ، و " خورشيد " ، و " وقت " ، و " ملا نصر الدين " ، و " الحبل المتين " (١٤) .

(١٣) ياحقى - جون سبوى تشنه ، ص ٣٢٨

(١٤) قباديانى - زبان وأدب فارسى در فرا رود ، ص ١١٦

هذه المطبوعات والصحف بدأت طريقها إلى بخارى وكان بعضها يوزع سراً ، وقد لعبت دوراً هامًا فى الحركة الثقافية والسياسية فى البلاد لدرجة أن الأدباء والمفكرين في آسيا الوسطى بصفة عامة أسسوا على غرارها بعض الصحف والمجلات لنشر أفكارهم ، ومن بين الصحف التى تأسست فى آسيا الوسطى " سمرقند " ظهرت عام ١٩٠٤م " بخاراى شريف " و " صداى فرغانه " عام ١٩١٢م و " آيينه " و " توران " و " صداى تركستان " وظهرت عان ١٩١٤م ، وعلى ضوء تلك المطبوعات ومن خلالها استطاع أعضاء " شباب بخارى " أن يجعلوا أسلوبهم أكثر وضوحًا وأفكارهم أكثر انتشاراً [١٥] .

لقد شكل العلماء والمفكرون الركيزة الأساسية لنهضة شباب بخارى وقد ظهر وتنشأ معظمهم فى مدرسة أساتذة العلوم " معارف برووران" ، وكان أبرزهم صدر الدين عيني ومعه مجموعة من الشعراء والكتاب والصحفيين ومن أشهرهم ما يلى :

تاش خواجه أسيرى (١٨٦٤- ١٩١٦م) ، وصديقى عجزى (١٨٦٥-١٩٢٦م) ، وداملا اكرامجه (١٨٤٧- ١٩٢٥م) ، ومحمود

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٢٠

خواجه بهبودی (١٨٧٥- ١٩١٨م) ، وسيد أحمد وصلی (١٨٧٠-١٩٢٥م)، وميرزا سراج حكيم (١٨٧٧-١٩١٤م) ، وعبد الرءوف فطرت (١٨٨٦-١٩٣٧م) ، وسيد رضا علی زاده (١٨٨٧-١٩٤٥م) ، وعبد الواحد منظم (١٨٧٧- ١٩٣٤م) ، وسيد جان مخدوم نظمی (١٩١٨م) ، وميرزا حيت صهبا (١٨٥٠- ١٩١٨م) ، وحامد خواجه مهرة (ت ١٩١٨م) ، وحمزة حكيم زاده نيازی (١٨٨٩- ١٩٢٩م) ، وبحر الدين عزيزی (١٨٩٤- ١٩٤٤م) [١٦] .

لقد حاول هؤلاء الأدباء والمفكرون عن طريق أشعارهم وأعمالهم الأدبية على اختلاف أنماطها وأشكالها حث المواطنين على الصحوة والاستيقاظ والسير فی طريق التقدم والاستفادة من تجارب الشعوب المتقدمة ، وظهرت خلال العقدين الأول والثانی من القرن العشرين مجموعة من الأعمال الأدبية الرائعة كانت علامة بارزة فی تطور مسيرة الأدب التاجيكی وتعد أولی النماذج الحقيقية فی تاريخ الأدب التاجيكی

(١٦) انظر :

- عصا زاده : حدای نظر - أدبيات فارسی وسه شاخه آن ٠ ، دوشنبه ١٩٩١ ، ص ١٦ : ١٨

- قبادیانی - أدبيات نو تاجيكی ، مجلة كيهان فرهنكی ، سال ٩ ، شماره ١٠ ، ص ٢٨ : ٢٦

- هيتجينس - أدبيات نوين تاجيك ، أدبستان ، شماره ٢ ، ص ٣٤:٣٧

المعاصر ، كما كان لها دور كبير في عملية التنوير وانتشار التيار الإصلاحى (١٧) .

لقد أحدثت الأفكار التنويرية والأهداف الإصلاحية التى تبناها المجددون أو " شباب بخارى " رد فعل كبير فتحرك ضدهم أمير بخارى عالم خان المنغيتى ومعه مجموعة من المشايخ حيث اتهموهم بالابتداع في الدين وصدرت الفتوى بقتلهم ، وقد وقعت هذه الأحداث بين عامى ١٩١٨/١٧م ، وجرت في إمارة بخارى مذبحة وحشية ذهب ضحيتها

(١٧) من أهم هذه الأعمال :

– تهذيب الصبيان " و " ضرورات دينية " و " ترتيل القرآن " لصدر الدين عينى .

– " حيات وغايت حيات " ، و " منفعت " ، و " مناظرة " ، و " بيانات سياح هند " لعبد الرءوف فطرت .

– " انجمن أرواح " ، و " مراعات عبرت " ، و " كنجينه حكمت " ، و " عين الأدب " لصديقى عجزى .

– " جوامع الحكايات " لعبد القادر شكورى .

– " سفر نامه " ، و " تحف أهل بخارا " لميرزا سراج حكيم .

– " أرمغان دوستان " ، و " تحفة الأحباب " لسيد أحمد وصلى .

– " بيدارى خفتكان وأكاهى نا آكاهان " لداملا أكرمجه .

– " الفباى مكتب اسلام " ، و " مسرحية " بدركش " لمحمود خورجه بهبودى .

– " سيحتنامه سه قطعه روى زمين در ٢٩ روز " لمحمود الطرزى .

– " شكوفه نو ياخود أدبيات ملى " لبحر الدين عزيزى .

– انظر – قباديانى ، زبان وأدب فارسى در فرا رود ، ص ١١٨

عدد كبير من المفكرين والأدباء وبعض الحرفيين ، وقد صور صدر الدين عيني هذه المذبحة في قصة " جلادان بخارا" التي كتبها عام ١٩٢٠م .

لقد نالت هذه المذبحة من كافة المفكرين في بخارى حتى صدر الدين عيني ، فقد قبض عليه وسجن وجلد خمساً وسبعين جلدة وكتبت له النجاة من الموت على يد الجنود الروس في التاسع من أبريل عام ١٩١٧م ، وكذلك عزل شريف جان مخدوم صدر ضيا من منصب القضاء وصدر الحكم بإعدامه ولكن لم ينفذ ، وفر معظم أعضاء " نهضة شباب بخارى " إلى طشقند كما لجأ بعضهم إلى سمرقند باعتبارها في تلك الفترة تحت السيطرة الروسية . وكان صدر الدين عيني واحداً من الذين لجئوا إلى سمرقند ، وظل يعيش حتى السنوات الأخيرة من عمره في تلك المدينة العريقة التي لم يغادرها إلا قبيل وفاته بقليل حيث انتقل إلى دوشنبه عاصمة تاجيكستان وتوفي بها عام ١٩٥٤ (١٨) .

إن هذا الإرهاب الذي مارسه أمير بخارى وجهازه الحاكم ضد العلماء والمفكرين والوطنيين كان في حقيقة الأمر بمثابة ضربة قوية موجهة وموجعة للدين الإسلامي والأمراء في بخارى.

(١٨) قبادياني - زبان وأدب فارسي در فرا رود ، ص ١٢٣

ومما يذكر أنه جاء في نشرة تاجيكستان الصادرة عن وزارة الخارجية الإيرانية ص ٢١ أن صدر الدين عيني ظل مقيماً في مدينة بخارى ولم يغادرها حتى نهاية حياته.

انظر :

- منتظمي: رويا / نشرية تاجيكستان / مؤسسة جاب وانتشارات وزارت أمور خارجه إيران ، جاب أول ، تهران ١٣٧٤هـ ش ، ص ٢١

ففى عام ١٩٢٠ حين هجم البلاشفة الروس على بخارى لم يجد الأمير عالم خان المنغيتى من يقف إلى جانبه فقد فر كل من حوله كما أنه لم يكن يملك القدرة على المقاومة فلاذ هو الآخر بالفرار إلى أفغانستان وترك بخارى - والتى كانت تشتهر ذات يوم باسم " قبة الإسلام " - تركها لتحترق وأهلها فى نار الفتنة حيث سقطت فى يد الروس البلاشفة.

ويصف أحد المؤرخين ما شاهده بنفسه فيقول : لقد ظل الروس لمدة أربعة أيام متواصلة يقذفون بخارى بالقنابل من الطائرات ، وظلت النيران مشتعلة فى المدينة لمدة عشرين يومًا ، وقد أدت هذه الحرائق إلى تدمير أربعة وثلاثين حيًا من أحياء المدينة ، وأكثر من ألف متجر ، وعشرين قصرًا وتسعة وعشرين مسجدًا وما يزيد عن ثلاثة آلاف منزل (١٩) .

ونظرًا لما ذاقه صدر الدين عينى وزملاؤه من ظلم واستبداد على يد الأمير عالم خان المنغيتى وجهازه الحاكم ، فقد وجد عينى نفسه وزملاءه من أوائل المؤيدين للثورة البلشفية ، حيث تطابقت المبادئ والأفكار التى

(١٩) المؤرخ هو محمد بن محمد سيد البلجوانى وكان مؤرخًا للأمير عالم خان المنغيتى وقد وصف هذه الأحداث فى كتابه المسمى " تاريخ نافعى" انظر :

- مختاروف : احرار/ درون جامه رنكين ، أدبيات وصنعت ، شماره ١٣٢، سال ١٩٩٠م ، ص١٢

كانوا يدعون لها ويعملون على تحقيقها مع الشعارات التى أطلقها البلاشفة الروس [٢٠] .

لقد استبشر عينى بالثورة البلشفية خيراً واعتقد أنها ستحقق الإصلاح والتقدم اللذين طال انتظاره لهما ·

يقول كيت هيتجينس عن موقف صدر الدين عينى من الثورة البلشفية : إن تجربة حياته ورغبته أو أمله فى أن تؤدى الثورة إلى الحرية وفتح طريق المعرفة أمام الجميع أدت به إلى أن يقف بجانب التجديد وشمر عن ساعد الجد كشاعر وكاتب وصحفى ومعلم ليكون فى خدمة هذا المجتمع الجديد [٢١] .

وبمجرد نجاح الثورة البلشفية نظم صدر الدين عينى " أنشودة الحرية " (سرود آزادى) وكان مقيماً فى سمرقند وراح يكتب العديد من القصائد والقصص والمقالات والخطب والبيانات المؤيدة للروس وللثورة البلشفية ، وكانت معظم هذه الأعمال تنشر فى صحيفتى " شعلة انقلاب " و " صداى تركستان" [٢٢] .

(٢٠) معظم هذه الشعارات كانت تدور حول فكرة العدل والمساواة ، مثل الأرض ملك الفلاحين والمصانع ملك العمال ومن لا يعمل لا يأكل ويجب أن تتشكل الحكومة من الكادحين إلى غير ذلك من شعارات ثورية جوفاء أثبتت الأحداث بعد ذلك عدم مصداقيتها ، وأنها لا تخرج عن كونها مجرد شعارات وأنها أبعد ما تكون عن أرض الواقع·

(٢١) هيتجينس : كيت / أدبيات نوين تاجيك ، أدبستان ، شمارة دوم ، ص ٣٦

(٢٢) قباديانى / زبان وأدب فارسى در فرا رود ، ص ١٢٣ ، ١٤٥

وفى عام ١٩٣٤م انضم صدر الدين عينى إلى عضوية اتحاد الكتاب السوفيت ، ولكنه لم يسلم من عمليات القمع والتصفية التى كان يمارسها استالين فى حق العديد من المفكرين والوطنيين ، لذلك فقد أعفى صدر الدين عينى من عضوية اتحاد الكتاب السوفيت عام ١٩٣٧م ، وبعد محاولات من الأستاذ أبى القاسم اللاهوتى (٢٣) انضم صدر الدين عينى مرة أخرى إلى عضوية هذا الاتحاد.

وتعتبر هذه الفترة بداية لمرحلة جديدة فى حياة صدر الدين عينى وتوجهاته الفكرية والأدبية حيث تكشفت فى نهاية الثلاثينات من القرن العشرين حقيقة نوايا النظام الشيوعى . ويبدو أن صدر الدين عينى راح يشعر بخيبة أمل كبيرة فى الثورة البلشفية بعد أن تعددت تجاوزات استالين وممارساته اللاإنسانية ضد المفكرين والوطنيين ففضل عينى أن يكف عن الكتابة فى الموضوعات المتصلة بالثورة البلشفية وتوجه باهتمامه نحو الكتابة فى الموضوعات المتعلقة باللغة والأدب الفارسى ،

(٢٣) أبو القاسم اللاهوتى : رفيق عينى ومساعده وهو صاحب النشيد الوطنى لتاجيكستان ورائد الشعر التاجيكى المعاصر كما يعد واحداً من أبرز الشعراء فى تاريخ الأدب التاجيكى ، وله العديد من المؤلفات والترجمات وهو إيرانى الأصل ولد فى كرمانشاه وتوفى عام ١٩٥٧م ، وشارك فى الحركة الدستورية فى إيران وكان من أوائل الشعراء الملتزمين بقضايا بلادهم ، وبعد سقوط تبريز عام ١٩٢٥م فى يد قوات رضا شاه فر إلى الاتحاد السوفيتى وظل مقيماً فى تاجيكستان حتى وفاته ، انظر:

- علوب : عبد الوهاب / الأدب الفارسى الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٧م ، ص ٢٥٣

- ياحقى / جون سبوى تشنه ، ص ٣٣١: ٣٣٢

كما وضع بعض المؤلفات حول عدد من رموز الأدب الفارسي وأبرز أعلامه.

وفى عام ١٩٤٩م قام المجلس العلمى لجامعة لينين الحكومية بمنح صدر الدين عينى الدكتوراه الفخرية ثم حصل على جائزة الدولة السوفيتية عام ١٩٥٠م عن الجزعين الأول والثانى من كتابه " ياد داشتها " (مذكرات) وحين تأسس المجمع الثقافى للعلوم فى تاجيكستان عام ١٩٥١م انتخب عينى ليكون أول رئيس له (٢٤) ، وظل يحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته ، وفى العام الذى توفى فيه عينى (١٩٥٤م) انتخب ليكون نائباً بالبرلمان السوفيتى (٢٥) .

(٢٤) اتكين : موريل / هويت ملى تاجيكستان ،إيران نامه ، سال دوزادهم ، شماره ٤ ، بائيز ١٣٧٢ ش ، ص ٦٣٢

(٢٥) قباديانى / زبان وادب فارسى در فرا رود ، ص ١٢٣

مؤلفات صدر الدين عينى وأهم أعماله

تميزت مؤلفات صدر الدين عينى بالغزارة والتنوع ، فقد كتب فى معظم فنون الأدب وفيما يلى قائمة بأهم أعماله :

- الأشعار والمقالات التى كان يكتبها قبل أن ينتهى من دراسته الجامعية.

- بعض الكتب التعليمية مثل (تهذيب الصبيان - ترتيل القرآن - معيار التدين).

- شعره فى رثاء أخيه سراج الدين وتعتبر هذه القصيدة من أهم نماذج الشعر التاجيكى.

- أشعاره بمناسبة الثورة البلشفية أهمها ما كتبه تحت عنوان " سرود آزادى " (أنشودة الحرية).

- " تاريخ الأمراء المنغيت فى بخارى " كتبه عام ١٩٢١م ، وكان ينشره فى البداية على صورة مقالات صحفية متتابعة ثم نشره فى صورة كتاب عام ١٩٢٣م .

- " مواد راجع به تاريخ انقلاب بخارا " (وثائق خاصة بتاريخ ثورة بخارى) وكتبه عام ١٩٢٠م ، وقد جمع من الأسواق على يد المتعصبين الأتراك وحاولوا منعه من الظهور مرة أخرى لكنه أعاد كتابته ونشره باللغة الأوزبكية عام ١٩٢٦م (٢٦) .

- " جلادان بخارا " وهى قصة كتبها عام ١٩٢٠م ونشرها لأول مرة عام ١٩٢٢م باللغة الأوزبكية فى صورة مقالات فى مجلة " شعلة انقلاب " ثم أعاد نشرها باللغة التاجيكية عام ١٩٣٥م .

- " نمونه " أدبيات تاجيك " أعده عام ١٩٢٥م وطبع ، ونشر فى موسكو عام ١٩٢٦م ، أعاد كتابته مرة أخرى عام ١٩٤٠م باسم "منتخب أدبيات تاجيك ".

- " قصة آدينه " ويتناول فيها حياة رجل تاجيكى من العامة تخلص أو تحرر من قيود عادات وتقاليد الفترة السابقة ، ويعكس من خلالها الحياة البسيطة للتاجيك ويصور وقع المتغيرات التى جرت عام ١٩٢٠م على حياة هؤلاء البسطاء.

- روايتا " واخنده" و " غلامان " نشرهما عام ١٩٣٥م ويجسد فيهما سيرة أو مسيرة شعبه ومواطنيه خلال القرن الأخير من زمن تأليف الروايتين .

(٢٦) جاء فى الجزء الذى كتبه ايرزى بجكا من كتاب تاريخ أدبيات در إيران ص ٥٤٨ أن الاسم الفارسى للكتاب هو " سندهاى در باره تاريخ انقلاب بخارا" وأنه كتبه بالأوزبكية تحت عنوان " بوخارنو اينكلابى تاريخى أوجون ماتريالار " انظر :

- بجكا : ايرزى / تاريخ أدبيات إيران ، ص ٨٤٥

- قصة " مكتب كهنه " (المدرسة القديمة) كتبها عام ١٩٣٤م .

- " يادكارى " (تذكار) وهو كتاب يضم كافة أشعاره التى كتبها خلال الفترة السابقة ونشره عام ١٩٣٤م .

- الأشعار التى كتبها خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد اشتهر منها قصيدتا : " جنك وظفر " (الحرب والنصر) ، و " مارش انتقام " (مسيرة الانتقام).

- " مختصر ترجمة حال خودم " (مختصر سيرتى الذاتية) وكتبها عام ١٩٤٠م وهى عبارة عن سيرة ذاتية صور فيها عينى ، وكذلك فى قصة " مكتب كهنه " طفولته والفترة الأولى من حياته فى الريف.

- " مرك سود خور " (موت المرابى) وهى من أفضل أعمال صدر الدين عينى ، وقد صور فيها الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مدينة بخارى والمناطق المجاورة خلال الربع الأول من القرن العشرين ويعرض العديد من نماذج الفساد الأخلاقى الذى كان منتشراً وسائداً خلال تلك الفترة والتى نشرف بتقديمها مترجمة إلى قراء العربية.

- " ياد داشتها " (المذكرات) وهو أشبه ما يكون بالموسوعة ، ويعد أهم وأعظم أعمال صدر الدين عينى ، بل إنه أهم وأفضل ما كتب فى الأدب التاجيكى المعاصر . بدأ عينى كتابته عام ١٩٤٩م وانتهى منه عام ١٩٥٤م قبيل وفاته بقليل ، وقد حصل عينى على جائزة الدولة السوفيتية عن الجزء ين الأول والثانى منه بمجرد أن انتهى منهما عام ١٩٥٠م .

وهذا الكتاب أشبه ما يكون بسجل واف للحياة الاجتماعية والثقافية فى تاجيكستان ، ويضم مجموعة من الأشعار والأمثال والحكايات والحوارات العامية ويتميز بجمال أسلوبه وألفاظه وشدة تأثيره . ونظراً لأهمية هذا الكتاب يعتبره بعض النقاد ضمن روائع الأدب الفارسى ، وقد ترجم إلى عدة لغات عالمية (٢٧) .

– فضلاً عن هذه الأعمال ، فهناك مؤلفات أخرى كتبها صدر الدين عينى حول قضايا اللغة والأدب الفارسى وكذلك عن أعلام الأدب الفارسى مثل :

– درباره فردوسى وشاهنامه أو ، كتبه عام ١٩٣٤م .

– لغت تفصيلى زبان تاجيكى ، كتبه عام ١٩٣٨م .

– شيخ الرئيس أبو على سينا ، كتبه عام ١٩٣٩م .

– استاد رودكى ، كتبه عام ١٩٤٠م .

– كمال خجندى ، كتبه عام ١٩٤٠م .

– شيخ مصلح الدين سعدى شيرازى ، كتبه عام ١٩٤٢م .

– واصفى وخلاصة بدايع الوقايع ، كتبه عام ١٩٤٦م .

– على شير نوائى ، كتبه عام ١٩٤٨م .

– ميرزا عبد القادر بيدل ، كتبه عام ١٩٥٤م .

(٢٧) ياحقى / جون سبوى تشنه ، ص ٣٢٩

وقد جمعت مؤلفات صدر الدين عينى وطبعت فى دوشنبه باللغة التاجيكية فى خمسة عشر مجلداً ، ونشرت منتخبات من أعماله فى طشقند باللغة الأوزبكية فى ثمانية مجلدات ، وفى موسكو اختيرت بعض أعماله ونشرت باللغة الروسية فى ستة مجلدات.

جوانب التجديد عند صدر الدين عينى

إن صدر الدين عينى أديبًا من طراز فريد ، له إسهامات فى معظم فنون الأدب ، وقد تميزت إسهاماته تلك بالشمولية والتجديد ، ولم يقتصر التجديد عنده على عنصر أو جانب واحد من الجوانب الفنية ، لكنه شمل كافة الجوانب وفيما يلى أهم مظاهر التجديد:

أولاً : من حيث الشكل والمضمون:

١- فى عام ١٩١٨ وقبل أن ينظم نيما يوشيج (٢٨) " افسانه " ويقدم ما يعرف بالشعر الحر نجد صدر الدين عينى ، وقد استعمل عدة أوزان فى نظمه لأنشودة الحرية " سرود آزادى " ليحدث بذلك خرقًا ظاهرًا فى القالب أو الشكل التقليدى القديم لعلم العروض.

(٢٨) نيما يوشيج (على اسفنديارى ١٨٩٥- ١٩٦٠م) ولد نيما بقرية يوش بإقليم مازندران ، وكان شعر نيما فى العشرينات والثلاثينات من القرن يشكل أساس الشعر الجديد أو الشعر الحر ، مع أن كثيراً من قصائده فى هذين العقدين لم تلق اهتماماً كبيراً ، وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية احتل نيما مكانة هامة فى ساحة الشعر الفارسى وتم الاعتراف بدوره كمؤسس لمدرسة " الشعر الجديد " ومن حيث المضمون يمثل نيما فى قصائده توجها متميزاً نحو التغير الاجتماعى والسياسى.

انظر - علوب / الأدب الفارسى الحديث والمعاصر ، ص ٢٥٥

٢- كانت الخطب والمقالات قبل صدر الدين عينى تهتم إلى حد بعيد باستعراض القدرات الأدبية للخطيب أو الكاتب . أما صدر الدين عينى فإنما يعتمد فى خطبه ومقالاته الصحفية على إصابة الهدف إصابة مباشرة.

٣- تعد قصص عينى بما تميزت به من واقعية شديدة مثل "جلادان بخارا" ، و " آدينه" ، و " مرك سودخور " هى النماذج الأولى للقصة الواقعية التى ظهرت لأول مرة فى الأدب التاجيكى.

٤- أوجد صدر الدين عينى النماذج الأولى لفن الرواية لأول مرة فى آداب شعوب آسيا الوسطى ، فبعد كتابته روايتى " داخنده " و "غلامان " ألفت عدة روايات فى تاجيكستان ، وقرغيزستان ، وقازقستان ، وتركمانستان ، وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى على نمط الروايات التى كتبها صدر الدين عينى (٢٩) .

٥- يعد صدر الدين عينى هو أول من استعمل النمط أو الشكل الأدبى المعروف باسم المذكرات فى القرن العشرين (٣٠) .

هذا من حيث الشكل ، أما فيما يتعلق بالمضمون وكما هو واضح من خلال مرك سود خور " موت المرابى " فإن أعمال صدر الدين عينى تتميز كلها بالواقعية الشديدة الشاملة ، فالأدب عنده يجب أن يكون

(٢٩) قباديانى / زبان وأدب فارسى درفرارود ص ١٢٦

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢٧

واقعيًا هادفًا يؤدى رسالة سامية فى خدمة المجتمع وليس مجرد الأدب للأدب ، لذلك فقد انتقل عينى بقضايا الأدب وموضوعاته من التقليدية والخيال والمثالية إلى الواقعية وخدمة قضايا المجتمع ، وجعل المحاور والموضوعات الرئيسية لأعماله تدور فى إطار الأحداث الهامة والمحورية ذات التأثير المباشر على مسيرة الوطن وحياة المواطن العادى ، فهو حين يكتب قصة أو رواية فكأنما يؤرخ لأحداث يشهد عليها المواطن العادى بنفسه والذى جعله عينى محور اهتمامه ودافع عن قضاياه واختاره ليكون بطلاً لمعظم أعماله.

ولعل الواقعية الشديدة هى السمة الرئيسية التي تفردت بها أعماله وجعلتها تختلف عن معظم الأعمال الأدبية السابقة التى تندرج ضمن الأنماط الأدبية التى كتب فيها عينى.

وأكثر من ذلك فإن الواقعية التى تتميز بها أعمال عينى ذات صفة شمولية ، أكثر مما كانت عليه الواقعية الموجودة فى أعمال أدباء فترة أساتذة العلوم الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وكان أبرزهم أحمد دانش.

إن أعمال صدر الدين عينى سجلاً واقعيًا وشاملاً لفترة من فترات تاريخ تاجيكستان فى كافة مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها لدرجة يمكننى أن أقول معها- وبدون مبالغة - بإمكانية الاستفادة من أعمال صدر الدين عينى كواحدة

من المصادر الموثوق بها فى كتابة تاريخ تاجيكستان ، وذلك لأن قصصه ورواياته ومذكراته تدور حول التاريخ والواقع والمصير الحقيقى لتاجيسكتان والتاجيك.

ثانياً : من حيث اللغة والأسلوب :

كان الشعر (بلغته وأسلوبه) فى آسيا الوسطى خلال القرن التاسع عشر الميلادى يسير على نمط الشعر التقليدى للعصور السابقة أى أنه لم يكن ليختلف كثيرا عن شكل الشعر ولغته وأسلوبه خلال الفترة من القرن العاشر وحتى الخامس عشر الميلادى.

وكانت لغة النثر بصفة عامة صعبة ومعقدة ، وخاصة فيما يتعلق بفنون كتابة الرسائل أو المؤلفات التاريخية (كتب التاريخ) حتى أن القارئ العادى لم يكن يستطيع أن يدرك بسهولة ما يريد أن يقوله الكاتب.

لقد بذل العلامة أحمد دانش رائد مدرسة أساتذة العلوم العديد من المحاولات لتبسيط وتيسير لغة العلوم والآداب . وعلى الرغم من ذلك فإن الحقيقة تقول إن أعمال أحمد دانش نفسه ليست بهذه السهولة التى كان يبغيها ويعمل من أجلها.

من هنا تبدو أهمية الدور الذى قام به صدر الدين عينى فى مجال استعمال لغة سهلة وأسلوب بسيط مكن الكاتب أو الشاعر من شرح أفكاره وآرائه بسهولة ويسر وتضمن له وصول أفكاره وانتشارها بين أكبر قدر ممكن من الناس.

ومما لا شك فيه أن اهتمام صدر الدين عينى بالقطاعات العريضة من عامة الشعب هو الذى دفعه تجاه استعمال اللغة السهلة والأسلوب البسيط ، لكنه كان ينتهج هذا المنهج بوعى كامل حتى لا يؤثر على سلامة وصحة قواعد اللغة الفارسية الموجودة فى تاجيكستان.

لقد أبدع عينى فى هذا المجال وأصبح رائداً فيه وتمكن ومعه زملاؤه وتلاميذه من إيجاد وإقرار القواعد الأدبية الجديدة للغة التاجيكية من حيث اللغة والأسلوب والتى تميزت بسمات هامة منها ما يلى:

١- ضرورة مراعاة القواعد الصحيحة والأصيلة للغة الفارسية الدراجة بين التاجيك.

٢- تحاشى استعمال النادر أو المهجور من المفردات والمصطلحات والعبارات.

٣- استعمال المفردات والعبارات الفارسية الأصيلة والبسيطة والمتداولة بين عامة الناس والمعروفة للجميع.

٤- استعمال الأسلوب الواضح والمباشر بدلاً من الإطناب والاستطراد واستعراض القدرات البلاغية للأديب.

وفى ميدان الحفاظ على اللغة التاجيكية والدفاع عنها وعن خصوصياتها وسماتها ، فقد لعب صدر الدين عينى دوراً رئيسياً فى هذا المجال من خلال أعماله العديدة وخاصة كتابه " نمونه أدبيات تاجيك".

قراءة لغوية لرواية " مرك سودخود" :

إن دارس اللغة الفارسية فى إيران حين يقرأ رواية مرك سود خود "موت المرابى" لصدر الدين عينى فإنه سيلاحظ اختلافًا بسيطًا بين لغة هذه الرواية واللغة الفارسية فى إيران ، منها على سبيل المثال:

١- تغيير رسم بعض الكلمات حسب نطق أهالى تاجيكستان لها مثل شيركت (شركت / نسيب (نصيب) مينتدارى (منتدارى) ، ميزاج (مزاج) ، خابيدن (خوابيدن) خواستن (خاستن) ، كوتك (كوجك) .

٢- جمع الضمائر المتصلة فى حالة الإضافة مثل (ما) يجمعها (مايان) ، همه مايان أى (همه ما) .

٣- استخدام مصادر للتعدية غير مستخدمة فى فارسية إيران مثل (كنا ندن) متعدى (كردن) .

٤- استخدام ضمير الفاعل المتصل لجمع المخاطب (يتان) بدلاً من (يد) فى تصريف المضارع الالزامى : اكركشيتان أى (أكركشيد) .

٥- استخدام (اتان) بدل (تان) لجمع المخاطب فى حالة الإضافة .

٦- استخدام (امان) بدلاً من (مان).

مثل : رفتن امان باز بينما هى فى الفارسية الإيرانية بازرفتنى مان

٧- اختلاف الجملة من حيث الترتيب عنها فى الفارسية الإيرانية مثل : دروقت كلقند دوم را خائيده استادنش .

بينما الجملة طبقًا للترتيب فى الفارسية الإيرانية يجب أن تكون على النحو التالى درو قت خائيدن كلقند دوم"

جوابيراكه در سؤال " بشماچه دركار ؟ " كفتن عطار تيار كرده مانده بودم به أو داده.

بينما الجملة طبقًا للترتيب فى الفارسية الإيرانية يجب أن تكون على النحو التالى جواب سوال كفتن عطار ، جه كار دارى ؟ كه تيار كرده مانده بودم.

٨- الإكثار من استخدام الصيغة الوصفية.

٩- استخدام المصدر استادن مع مصدر لازم لتكوين مصدر مركب لازم مثل ودر وقت أزبيش دوكان عطار رفته استادنم.

١٠- استخدام المصدر ماندن مع الصدر المتعدى المركب لتأكيد المعنى مثل " تعين كرده مانده اند "

١١- وضع مى علامة الاستمرار قبل الجزء الأول من المصدر المركب قبل مى در أمد بدلاً من درمى آمد ، مى برآمد بدلاً من برمى آمد ويلاحظ أن هذه الظاهرة تكون من المصادر المركبة التى تبدأ بحرف مثل بر، در ، فرو ، فرا.

١٢- استخدام قيد الزمان على أنه اسم مثل " اجتماعانه " بمعنى اجتماع وافتتاحانه بمعنى افتتاح .

١٣- زيادة ألف قبل " ش " ضمير الملكية المتصل للمفرد الغائب فيقول " سراش " بدلاً من " سرش" .

١٤- استعمال يكان كعلامة تنكير بدلاً من " يك " أو " ى " .

١٥- استعمال استادن بدلاً من شدن في تكوين صينعة المبنى للمجهول وتوضع استاده زائدة بعد اسم المفعول .

مثل خوانده استاده

ديده استاده

١٦- صياغة مصادر جعلية من كلمات عربية .

مثل نفاريدن بمعنى أن يكره أن يغضب (دفنيدن بمعنى أن يدفن) .

١٧- تغيير المعنى الدلالي لبعض الكلمات العربية .

مثل : مسحى بمعنى جورب .

مثل : حولى بمعنى منزل .

١٨- وجود كثرة من المفردات الروسية والتركية .

فمن الروسية نجد بيرزه : محل تأجير عربات الكارو .

فانتون : عربة كارو مسقوفة .

ومن المفردات التركية :

قيتلق : بمعنى هراوة .

قوشبيكى : رئاسة الشرطة .

قشلاق : بمعنى القرية ، وهى فى الأصل بمعنى معسكر .

قراكولى : بمعنى حيوان الوشق .

إن مثل هذه الاختلافات البسيطة تعد نتيجة طبيعية لما حدث من تباعد بين اللغة الفارسية فى إيران واللغة الفارسية فى تاجيكستان استمر لسنوات طويلة ، فمن المعروف أن بلاد ما وراء النهر انفصلت عن إيران ثقافياً ودينياً منذ قيام الدولة الصفوية فى إيران وإعلانها التشيع مذهباً رسمياً لإيران وخوضها حروباً مذهبية طويلة خاصة مع حكام بلاد ما وراء النهر الأتراك السينين.

المترجمان

(١)

ظللت بلا سكن خـلال عـام ١٣١٢ هـ حين كنت أحسب طالبًا بمدارس (بخـارا) ، ولم يتيسر لى بسرعة الحصول على حجرة تليق بإقامتى فى بخارا التى كان بها نحو مائة مدرسة كبيرة ومثلها تقريبًا مدرسة صغيرة . ومع أن سائر مدارس بخارى كانت من الناحية الرسمية وقفًا ولا يجوز من الناحية الشرعية بيعها وشراؤها إلا أن فى الأزمنة الأخيرة صارت جميع الغرف الملحقة بهذه المدارس ملكًا خاصًا عن طريق البيع والشراء استنادًا إلى فتوى علماء الدين الذين كانوا يتذرعون بالحيل الشرعية لحل المشاكل الدينية ، فاستأجرها الطلاب الأغنياء وكان يصعب على الطلاب الفقراء إيجاد مساكن لهم للإقامة.

وأثناء هاتيك الأيام التى كنت أبحث فيها عن غرفة سكن قال لى أحد أصدقائى بدافع النصيحة :

- (قارى اشكمبه) اسم رجل لديه بضع غرف اشتراها فلو سألته فربما يعيرك إحداها .

لما سمعت هذه النصيحة لصديقى ذلك استلفت اهتمامى بنحو أشد اسم هذا الرجل من مسألة تأجيره أو عدم تأجيره غرفة من غرفه لى .

فى الحقيقة هذا الاسم كان مغلوطًا كثيرًا ، إذ إننى كنت أعلم أن أمعاء الحيوان ومعدته التى يتجمع فيها الطعام تسمى (كرشة) أو (اشكمبه) ، لكن أن يسمى إنسان (اشكمبه) · يستوقف السامع الذى يسمع لأول مرة هذه التسمية فأى سبب يدعو لتسمية رجل (كرشة) ؟ كنت أتعجب بينى وبين نفسى فأظهرت عجبى هذا لصديقى ذاك واستوضحته هذا الأمر·

– الاسم الأصلى لهذا الرجل هو (قارى عصمت) ، أجابنى صديقى ، لكن كرش هذا الرجل ضخمة فلعله سمى بسببها ، كان فى بداية الأمر يناديه بعض الناس قارى عصمت أشكم أو الشيخ عصمت ذو البطن قارئ القرآن ، ثم أخذ بعض الخفيفى الظل ينادونه (قارى عصمت اشكمبه) أو الشيخ عصمت كرشة وأخذت كلمة (عصمت) اسمه تتوارى شيئًا فشيئًا فنودى عليه بلقبه (قارى اشكمبه) وظلت هذه التسمية واللقب وكما يقال (اللقب أوضح من الاسم) فقد سقط من الأفواه الاسم الأصلى (عصمت) لهذا الشخص واشتهر بين الناس باسم (قارى اشكمبه) فقلت لصديقى : لا يمكن أن يتأتى أمل فى خير من هذا الذى وجد الناس اسم اشكمبه – كرشة – جديرًا له ، ومع هذا تريد أن تعرفنى عليه ! على أية حال فأى ضرر من معرفته (يا جاء ت يا راحت) ، أسأله عن غرفة عنده وإذا لم يؤجرنى غرفته فلن يخلو الأمر من فائدة حين أرى هذا الرجل الأكرش·

فقال صديقى ذاك : أنا شخصيًا لا أعرفه حتى أُعرفك عليه ، فقط أعرفه شكلاً ويمكننى أن أدلك عليه وهو يسير فى أحد الأزقة ، وتتجه أنت إليه وتتعرف عليه وتطلب منه غرفة.

فرضيت بهذا الاقتراح من صديقى هذا وعن طريقه سوف استدل على قارى اشكمبه وأراه وأتعرف عليه.

(٢)

وفى يوم من الأيام كنت أتجول فيه مع صديقى ذاك على شاطئ بركة (ديوان بيكى) بمدينة بخارا وكانت مكان التنزه الوحيد فى تلك المدينة حين صاح فجأة ثائراً : (انظر ، هذا الرجل هو قارى اشكمبه) قال هذا وأشار إلى رجل يدخل دكان حلاق.

لم ألتقط من هذا الرجل غير ظهره ولم أستطع أن أحدد ملامح وجهه فقررت فى نفسى أن أدخل دكان الحلاق لأحلق شعرى وأتعرف بدقة على ذاك الرجل ومظهره وأخلاقه وهو يجلس بالدكان ، وإذا سارت الأمور على ما يرام فسوف أتعرف عليه وأطلب منه غرفة.

لكن صديقى لم يعاوننى فى هذا الأمر وتذرع بمهمة وتركنى وانصرف فدخلت وجلست على أريكة صغيرة فى دكان الحلاقة الذى كان دخله (قارى اشكمبه) ، وأخذت أدقق النظر فى وجهه وسائر ملامحه دون أن أسترعى انتباهه.

كان رجلاً متوسط القامة ذا بطن ضخم وعنق ضخيم وقصيراً . كان حجم عنقه وأطراف وجهه يفترق كثيرا عن حجم بطنه لو حلقت

لحيته الكثة المتداخلة التى تشبه الحشائش المتعفنة المتداخلة والتى كانت تغطى جميع وجهه ، كان وجه هذا الرجل وجثته يبدوان كأنهما كرش ممتلئ لجمل ضخم إلا فى فرق واحد وهو أن كرش الجمل الضخم كان أكبر من جثة الرجل أو يشبه هيكل الجمل المصاب بداء الجرب ، وقد تساقط شعره وتلون بلون الحصبة.

ولما تفحصت صفات الرجل هذا وسماته الشكلية خطر إلى هذا الخاطر وهو ربما وجد الناس هذا اللقب مناسبًا لهذا الرجل لا بسبب ضخامة بطنه بل بسبب أن الرجل كان يفوق بحد كبير بطون الناس العاديين لكن أطراف المواضع الأخرى من جسده وزوائده بما فيها عنقه ووجهه كانت من الضخامة بحيث كانت بطنه الضخمة لا تبدو أمامها شيئًا غير عادى وملفت للنظر . وبناء على هذا فقد كانت فكرة مؤلف هذه السطور الأخيرة تبدو قريبة إلى الحقيقة بشأن تلقيب هذا الرجل ووصل الدور فى حلاقة الشعر على (قارى اشكمبه) ووقف الحلاق بعد أن سنّ موساه على المسن قائلاً :

– تفضل واجلس على الكرسى !

فنهض قارى اشكمبه من موضعه بتثاقل شديد إما بسبب ضخامة جسده أو لمرض ما فيه وفك عمامته عن رأسه وأراد أن يعلقها على شماعة المرايل الخاصة بالحلاق لكن الحلاق لم يسمح له بذلك ووضع بسرعة الموسى والمسنّ على رف صغير أمام المرآة وأخذ من يد قارى عمامته قائلاً بلهجة ساخرة :

عمامتك تزن أكثر من خمسة كيلو جرامات ولو علقتها بالشماعة فسوف ينكسر مسمارها وتسقط مرايلى على الأرض وتتسخ.

كانت عمامة قارى اشكمبه فى الحقيقة كثيرة الضخامة وضعفى أى عمامة يلبسها الشيوخ ذو العمائم الضخمة ، لكن مع ثقل وزنها فلم تكن بالحد الذى يحطم مسمار شماعة المرايل.

ربما لم يسمح الحلاق له بأن يضع عمامته على شماعة المرايل بسبب أنها كانت فى غاية القذارة وسوف يسبب تعليق هذه العمامة القذرة فوق مرايل الحلاقة نفور المنتظرين للحلاقة.

فقال قارى اشكمبه : خيراً فعلت حين احتفظت بعمامتى بعيداً عن مرايلك وإلا سقطت عمامتى على الأرض مع سقوط الشماعة لوثتها الأرض وكان سيكلفنى غسلها بصندوق من الصابون عبئًا كبيراً .

فقال الحلاق : لن تضار عمامتك بتراب الأرض لو سقطت لأنها لم تر وجه مغسلة الثياب منذ أمد بعيد وهى تبدو أكثر اتساخًا من تراب دكانتى.

فى الواقع كانت عمامة قارى اشكمبه تبدو من طياتها كأنه أوصل بها خرق غسل أوانى الطعام ، وكانت أهدابها وشراشيبها تظهر تلوثها بالدهون.

قال قارى اشكمبه : لا يمكن غسل مثل هذه العمامة الضخمة مرة كل أسبوع فى مغسلة الملابس وإلا احترقت الصبّانة

فسأله الحلاق : ولماذا لا تتعمم بعمامة أصغر حتى يمكنك طويها ولفها ويسهل عليك غسلها وتستهلك قليلاً من الصابون؟

فأجابه قارى اشكمبه : عمامتى هذه هى عمامة (لابس الصوف الذى يوزع صدقة عند دفن الميت والأكل بالولائم) ، وحين أحضر دفن ميت بهذه العمامة يعطوننى مترى صوف فى حين يعطون غيرى متراً واحداً ، وكذلك أثناء الولائم يقدم إلى طبق يمتلىء باللحم والأرز بالدهون...

واستمر الحلاق يتحدث ثم أخذ يشحذ موساه على المسن حتى حدَّ شفرة الموسى على وفق طبعه وعقد رابطا المريلة بعنق قارى اشكمبه واسترسل قائلاً :

- بالتأكيد من لا يعرفك لا يعرف الجنائز ولا الولائم أما من يعرفونك فهم الذين يحضرون دفن الموتى والولائم سواء كانت عمامتك ضخمة عريضة أو كانت خفيفة الوزن ضيقة ، إنما يعاملونك بالمعاملة المناسبة لك وأرى أن ضخامتها لا تفيد فى مسألة توزيع الصوف الكثير صدقة الميت أو طعام الولائم فقال قارى اشكمبه إلى الحلاق : أنت ساذج يا أخى ، إننى لو قنعت بقماش الصدقة الموزع على قبور الموتى الذين يخبروننى عنهم أو ولائم التعازى فكيف أتحصل على أجرة حلاقتك لشعرى لأعطيها لك ؟ إننى أصلى كل يوم صلاة الصبح فى خانقاه (ديوان بيكى) وحين يؤتى بميت للصلاة عليه فيها أتبع جنازته سواء كنت

أعرفه أو لا أعرفه حتى أصل إلى قبره وأنال المقسوم لى من صدقة الصوف .

فقال الحلاق : إنك لا تنفق كثيراً أجرة لحلق شعرك حتى تقلق بسببها فكل إنسان يحلق شعره مرة كل أسبوع أو عشرة أيام وأنت تحلق رأسك مرة كل شهرين ولا تدفع غير نصف الأجرة التى يدفعها غيرك . تفهمت حديث الحلاق ودققت النظر فى رأس قارى اشكمبه فرأيت شعر رأسه قد طال كثيراً حتى غدا يشبه شعر المساجين فى عهد (الإمارة) فتجمع بغزارة حتى غطى جبهته وجذر رقبته وتداخلت خصلات شعر رأسه بخصلات لحيته وتلاحمتا تلاحم السداة واللحمة فى آلة النسيج ، وخلافًا للرء وس العادية كان مقدار كف يد وسط شعره يبدو أصلع أيضًا وغضب قارى اشكمبه بسبب آخر كلمات الحلاق واستدار برأسه التى كان الحلاق بللها وكان يدلكها وثبت عينيه فى عينى الحلاق وقال له :

– سواء حلقت شعرى مرة كل أسبوع أو كل شهرين فهذا شأنى ولا دخل لك فيه ، وشعرى سواء كان طويلاً أو قصيراً فأنت تحلقه بموساك مرة واحدة ولا تحلق الشعر الطويل مرتين ويزيد تعبك بذلك ولو دفعت لك أقل من غيرى أجرة فلا يحق لك أن تشكو لأن نصف رأسى كما رأيت بعينيك أصلع ولا تجرى عليه موساك ، وعليه فيجب أن تأخذ فى حسبانك هذه المسألة وأنت تحسب أجرتك .

وكان على الحلاق لكى يسكن من نار غضب (قارى) أن يقول بهدوء : (كنت أمزح معك وأنا ممنون لك لو أعطيتنى أجرة كثيرة أو قليلة وأعد نقودك بركة) أتم الحلاق حلق رأس (قارى اشكمبه) وسحب المريلة من عنقه ونفض ما فيها من شعر فى سلة الشعر المحلوق وأراد أن يعقد المريلة مرة أخرى بعنقه حتى يحلق ثانية الشعر المتسخ الدقيق المتبقى بقعر رأسه المبتل لكن (قارى اشكمبه) لم يسمح له بذاك وقال : لا يلزم حلق ثان ويكفى أن تقصر شاربى فليس لدى وقت طويل.

- لعلك تخشى أن تفوتك جنازة ؟

- لا ، فلو مرت جنازة هنا فلا تدخل صحن الخانقاه إلا فى الثانية عشرة.

ونظر إلى ساعة الحائط فى دكان الحلاقة وكانت الساعة إذ ذاك العاشرة

فسأله الحلاق : إذن فكيف يكون وراءك أمر ضرورى؟

ثم أعاد السؤال ساخراً : لعلك تريد الذهاب إلى وليمة تعزية لم يخبروك عنها؟!

- الوقت الآن هو وقت تناول موظفى البنك لشاى الضحى ولو تأخرت فلسوف أحرم من الشاى الزائد السكر المجانى.

لم أفهم من كل هذه الحوارات شيئًا فظللت فى حيرة ، وكنت أحادث نفسى : لو أن هذا الرجل يمتلك بضع غرف فلماذا يعيش هذه

الحياة التى لا يحياها غير المتسولين والمشردين حتى أنه يدفع أجرة حلاقة شعره من الصدقات التى توزع على حُضّار دفن الموتى وليس هذا مسلك رجل غنى يمتلك بيوتًا ! لو أن هذا الرجل فى الحقيقة متسولاً ومشرداً فأى صلة له بالبنك وموظفى البنك حتى أنه يريد الذهاب لحضور شرابهم الشاى فى الضحى ؟ ثم ما السبب الذى دعا صديقى إلى أن يمنينى بغرفة من هذا الشحاذ المشرد إلا إذا كان يريد السخرية منى ؟ وأخذت أفكر فى نفسى : لو أن صديقى أراد أن يتلاعب بى فلا ضرر من ذلك لأن هذا الرجل يبدو رجلاً كثير الغرابة ، فيلزمنى معرفة هذا الرجل وفهم كافة أعماله وأقواله وأنا الذى أحب بطبعى البحث والفحص وهذا عندى أفضل من العثور على سكن وسوف أتعقب على أية حال هذا الإنسان حتى النهاية سواء أعطانى غرفة أو لم يعطنى أو كان عنده سكن أو لم يكن عنده أصلاً فلن يمنعنى هذه من تعقبى له ، ومهما يكن من أمر فإن مشكلة العثور على سكن سوف تكون ذريعة وحجة لتحقيق هذه (الغاية) لم ينتظر (قارى اشكمبه) بعد أن قصّر شاربه فك المريلة من عنقه فانبعث من مكانه وجذب عمامته من فوق الأريكة ووضعها على رأسه وفك المريلة من عنقه وخرج على عجل من دكان الحلاق.

وناداه من خلفه الحلاق : وماذا بشأن أجرة الحلاقة يا عم الشيخ ؟

- فقال قارى اشكمبه بدون توقف عن سيره ودون أن يدير رأسه صوب الحلاق :

– فى المستقبل سوف أعطيك أجرة حلاقتين مرة واحدة ، وابتعد فى دقيقة واحدة من أمام دكان الحلاق بخطوات واسعة ولم يتيسر لى إذ ذاك أن أناقش معه مشكلة الغرفة أو أن أتعرف عليه فى هذه المرة .

وبعد خروج قارى اشكمبه من شاطئ بركة (ديوان بيكى) غادرت أنا أيضًا هذا الموضع ، وعلى أمل أن ألقاه فى مكان آخر قضيت نفس ذاك اليوم أتجول بين الأسواق والسويقات على غير هدى لكنى لم أوفق فى مقابلته.

(٣)

وفى اليوم التالى لذاك اليوم الذى رأيت فيه قارى اشكمبه فى دكان الحلاقة خرجت إلى الأزقة أضرب على غير هدى فى البحث عنه ومقابلته ، وتجـولت أولاً على شـاطئ بركـة (ديوان بيكى) ومـررت من هناك على سويقة تجار الملابس التى كانت تمتد شرقًا من جنوب الخانقاه إلى بركة ديوان بيكى غربًا وبحثت مليًا ومدققًا فى الجهات الأربع لتلك المنطقة ، ولما لم أحصل على بغيتى عَرّجت على سويقة باعة الأدوات الصينية التى كانت تمتد من نهاية سويقة باعة الملابس من الجنوب إلى الشمال.

ولم أبتعد عشر خطوات بعد من بداية سوق باعة الأدوات الصينية حتى رأيت على حين بغتة (قارى اشكمبه) أمام دكان أحد باعة الأدوات الصينية علق قدميه بالأرض وهو يجلس على أريكة أمام ذاك الدكان ، فجلست أنا بدورى على كرسى أمـام دكـان مـقـفل على مـقربة منه فى الطرف المقـابل للمكان الذى كـان يجلس فـيـه وأخـذت أدقق النظر فى تصرفاته دون أن يشعر بى مثل القط الذى يراقب الفأر.

كان قارى اشكمبه يحتسى الشاى مع بائع الأدوات الصينية وفى نفس الوقت كان أحد الباعة الجائلين يبيع الخبز ويحمل سلة على رأسه

وأخرى بيده تمتلئ بالخبز يعبر السوق وهو يصيح : (خبز ساخن ، ماؤه سمن ودقيقه سكر ، تتحسر إذا لم تأكله !).

ونادى قارى اشكمبه على بائع الخبز وأحضره أمامه ونزع رغيفين من السلة التى كان يحملها على يده بدون أن يسأله عن ثمنها أو يساوم فى سعرهما ووضعهما فوق المروحة التى كان يذب بها الذباب كأنه يريد أن يعطيه ثمنها ووضع يده فى جيبه ، وبعد قليل من البحث والتفتيش أخرج يده خاوية من جيبه وأثناء إعداده الخبز الذى قطعه لابتلاعه قال لبائع الأدوات الصينية:

(أخى ليس معى نقود من فضلك أعطه ثمن طعام الغداء) ، وانشغل بتناول الخبز وجعل بائع الأدوات الصينية ينظر بعجب مرة إلى الخبز وأخرى إلى قارى اشكمبه وفى النهاية سأل بائع الخبز عن ثمن الرغيفين ثم أخرج النقود من كيسه وهو يحك رأسه وأعطاها بائع الخبز وصرفه . أما قارى اشكمبه فلم يكن ينظر إلى بائع الأدوات الصينية ولا بائع الخبز بل ثبت ناظريه على الخبز المكسور فوق المروحة وكان يلقى فى حلقه كسرات الرغيف اثنين أو ثلاثًا .

ورأى بائع الأدوات الصينية أنه إذا لم يتناول شيئًا من قطعات الرغيفين فلن تبقى له قطعة واحدة ومع أن قارى اشكمبه لم يدعه إلى مشاركته الأكل إلا أنه تمكن من إلقاء قطعة خبز فى فمه وتجرع بعدها كوب الشاى الذى كان أمامه .

ولم يكد بائع الأدوات الصينية يفرغ من الشاى حتى ملأ قارى اشكمبه فاه بالخبز حتى أنه لم يستطع مضغ الخبز ولا الحديث وهو فى هذه الحالة وهو يخشى أن يلتهم بائع الأدوات الصينية ما بقى من الخبز وضع إحدى يديه على القطع الأخيرة من الخبز التى كانت فوق المروحة وأشار بيده الأخرى إلى بائع الأدوات الصينية لكى يعجل بإفراغ كوب الشاى ويصب له بعض الشىء لكى يبتلع به ما فى حلقه من طعام نصف ممضوغ .

وشرب بائع الأدوات الصينية على عجل الشاى النصف البارد المتبقى بالكوب وأعطى قارى اشكمبه الكوب الفارغ وأخذ ينظر إليه ببسمة يمازجها الاستهزاء إليه وهو يبتلع الطعام ويشرب الشاى معًا .

أمسك قارى اشكمبه بالكوب وأخذ يرشف الشاى قليلاً فقليلاً وهو يبرده بسبب سخونته فأخلى فمه بعض الشىء مما فيه من خبز ورفع بيده الأخرى التى كانت لا تزال موضوعة فوق الخبز آخر قطعة خبز ورمى بها فى حلقه ، ولم يتم مضغ تلك القطعة ولم يبتلعها حتى ترك الكوب بما فيه من شاى متبق على الأرض ونهض من مجلسه وتقدم سائرًا فتحركت بدورى فى عقبه.

ولم يتقدم قارى اشكمبه عشرين خطوة فى طريقه حتى جلس أمام دكان بائع صناديق بجوار مخزن الصناديق وكنت أتعقبه واضطررت حين لم أجد مكانًا يناسب جلوسى أمام دكان بائع الصناديق إلى عبوره وجلست فى مكان بعيد عنه.

وأثناء مروري من أمـام دكـان بائع الصناديق لمحت بطرف عيني صـاحب الدكان جالسًا بأقصى ركن داخل الدكان وقد أقام فاصلاً من الصناديق كالجدار وأبقى خلفه شيئًا يؤكل وأخذ يأكله في استتار عن رؤية العـابرين . لكن العين الحادة النظر التي تشبه عين الغراب لقاري اشكمبه رأت هذا الشيء المأكول فجلس في مكان مَدّ فيه فوراً يده إلى ناحية خلف فاصل الصناديق وشارك صاحب الدكان في التهام هذا الشيء (المُخبأ) ، وبسبب بعد مكان جلوسي عن مجلس قاري اشكمبه لم أستطع سماع ما دار من حديث بينه وبين صاحب الدكان لكني أظن أن الحوار لم يطل بينهما وكان لابد أن يتناول قاري اشكمبه من ذاك الطعام كلما جلس في دكان هذا الرجل ولما تم تناول قاري اشكمبه هذا الطعام الذي يعلم بوجوده من انتحاء صاحب الدكان جانبًا خلفيًا وراء ساتر الصناديق نهض بسرعة من مجلسه وخرج إلى الطريق .

ودخل قاري اشكمبه سويقة ضيقة مسقوفة كانت تقع بين سويقة باعة الأدوات الصينية غربًا وباعة العطارة شرقًا وكانت تسمى (الخان الصغير) ويباع بها الطواقي وأغطية الرأس ، فعدت أيضًا من طريقي أتعقبه ودخلت هذا الخان الصغير وجددت في السير حتى لحقت به.

ووقف قاري اشكمبه في هذا الخان أمام دكان بائع طواقٍ ليسأله:

– هل بعت طواقيّ ؟

وزاد هذا السؤال من قارى عجبى أكثر لأن شخصاً مثل الشحاذين يأخذ الملابس الصوفية صدقة الموتى الذين لا يعرفهم ويغشى الولائم بغير دعوة ويأكل أرزها فى نفس الوقت هو من المعروفين المقربين لموظفى البنك والآن يظهر أمامى غازلاً للطواقى سمساراً للطواقى ، وعليه فقد زادت رغبتى الجامحة فى سماع حواره مع بائع الطواقى توقفت بالضبط أمامه فى ذاك الموضع على مسافة قصيرة منه إلى حد ما . قال بائع الطواقى مجيباً قارى :

- لا لم أبعها حتى الآن ، فقال قارى مظهراً عدم تصديقه له :

- لابد من أنك بعتها والآن تستغل نقودها فى صفقاتك فى أيام عديدة بسرعة ومهارة حتى تعود عليك بفائدة كبيرة!

فقال بائع الطواقى وقد انتحى جانباً وانحنى وأدخل يده تحت ستر مسدول أمام أرفف الدكان : يا عم الشيخ ، إنك رجل غريب لا تصدق كلامى ، وأخرج البائع من وراء الستار مجموعة من الطواقى كانت مخبوءة بالداخل وعرضها على قارى ثم سأله : أليست هذه هى طواقيك ؟

وبعد أن تيقن قارى اشكمبه من وجود طواقيه وأنها لم تبع قرب بائع الطواقى مجموعة هذه الطواقى إليه قائلاً :

- خذها معك فلا أستطيع أن أقوم بخدمتك وأسمع اتهاماتك ورأى قارى اشكمبه ثورة بائع الطواقى فلجأ إلى الاعتذار إليه :

– أنا مصدق كلامك من البداية والآن وأنك لم تبعها لكنى كنت أمزح معك ، ولكنك تأخذ الهزل جداً وتغضب.

فقال بائع الطواقى وهو لا يزال فى ثورته :

– ولماذا لا أغضب وأنا أسمع منك مثل هذا الهزل الذى يبدو جداً حتى الآن.

ولما رأى قارى اشكمبه أن حدة غضب بائع الطواقى آخذة فى الخمود أراد أن يستفيد منه من باب آخر مستعملاً النفاق والمداهنة فقال :

– نترك الهزل جانبًا ولنتحدث بجد ، إننى محتاج إلى النقود هذه الأيام وماذا يحدث لو لبيت حاجتى ، وثمن هذه الطواقى ليس شيئًا فأعطنى نصفه اليوم مقدمًا ، ربنا يخليك وأدعو لأولادك أيضًا .

فقال بائع الطواقى بلهجة صارمة :

– هل كلامك هذا هزل ومزاح وليس جاداً وهل هو من صميم قلبك ؟

فقال قارى اشكمبه متعجبًا : ولماذا لا يكون جاداً ؟

– كنت قد طلبت منى أن أبيع طواقيك بسعر القطاعى وبسعر مرتفع إلى زبائن أجانب ، وطبعًا لا يمكن أن تباع بالواحدة وبسعر مرتفع فى وقت قصير ، ولابد أن تبقى فترة طويلة ، وفى هذه الحالة فإنى قد

جمّدت جزءاً من رأس مالى مع مالك فكيف أحصل على نصيبى وأدخره وكيف أحصل على نفقاتى اليومية ومن أين أسدد إيجار الدكان وكيف لى أن أوفر لك فائدة لكل مائة (تنجة) - عملة تاجيكستان وقازاخستان - التى أقرضتها لى عن كل شهر تنجتين ؟

وأطرق بائع الطواقى وأخذ أنفاسه وأضاف :

- تعال وأجعل قرضك الذى فى عنقى بلا فائدة لمدة شهر على أنه قرض حسن بلا فوائد أو أن تثمن طواقيك بسعر التكلفة وفى تلك الحالة أعطيك نقداً ثمن جميع طواقيك مرة واحد ، ماذا قلت ؟ هل أنت موافق ؟

فردّ قارى اشكمبه وهو يزمع الذهاب :

- لا ، هذا المسلك لا يرضينى لأننى سوف أفقد ربع ثمن كل طاقية .

فقال بائع الطواقى : لا تمش ، اجلس ، سوف أقدم لك فوق ثمن طواقيك شاياً معتبراً ساخناً .

- لا ، لا يلزمنى شايك ، مع السلامة ! أنا متأهب للذهاب إلى البنك وشرب الشاى هناك ، قال قارى اشكمبه وأضاف بلهجة هازلة :

- الشاى المعد لى فوق ثمن طواقىّ لن تخسر أنت ثمنه ولن أخسره أيضًا ولما توجه قارى اشكمبه لمغادرة الدكان إلى الطريق وقعت عين بائع الطواقى علىّ وكنت واقفا خلفه فسألنى :

- ماذا تريد ؟

فقلت له مجيباً حين لم أجد إجابة أخرى:

- أريد طاقية .

- وما إن سمع قارى اشكمبه جوابى هذا عاد من طريقه وتوجه إلى بائع الطواقى قائلاً : أعرض على هذا الرجل طاقية من طواقى فربما أشترى واحدة وآخذ أنا حقى نقداً . والله إنى فى أشد الحاجة إلى النقود.

وأعطانى بائع الطواقى مجموعة طواقى قارى اشكمبه قائلاً :

- اختر واحدة من هذه

ونظرت إلى هذه الطواقى دونما اهتمام لأنى فى الحقيقة لم أكن أنتوى شراء طاقية وأشرت إلى إحداها قائلاً للبائع مستفسراً عن ثمنها :

- كم ثمن هذه ؟

فقال : خمس تنجات .

فقلت مرجعًا مجموعة الطواقى إلى البائع : بل آخذها بتنجتين وقلت فى نفسى : (لو رضى البائع أرد هذه البيعة بأى عذر ؟) وأخذت أفكر فى عذر مقبول وكنت أتصبب عرقًا وخوفًا من الخجل الذى سيعترينى بعد قليل .

فقال قارى اشكمبه ملتفتًا إلى : قل الحق يا أخى إن ما انفق فى إعداد الواحدة منها يزيد عن أربع تنجات وفوقها أجر الغازل أيضًا خذها بأربع تنجات فقط وسوف أترك لك زيادة إعداد الواحدة وأجر الغازل .

ولم أرد على كلام قارى اشكمبه بكلمة وتظاهرت كأننى لم أسمع كلامه.

وفهم البائع المجرب الذى يدرك المشترى من عينيه هل هو جاد أو أنه يهزل عدم جديتى فى الشراء ؛ فأخذ منى مجموعة الطواقى فأودعها على الرف خلف الستارة وقال إلى قارى اشكمبه :

– لا تطمع يا عم الشيخ بغير طائل هذا الرجل لا يشترى طواقى .

وقطع قارى اشكمبه الأمل من شرائى إحدى طواقيه فخرج إلى الطريق وأنا فى أثره.

ودخل قارى إشكمبه إلى سوق العطارين من فتحة بطرفة ووقف أمام دكان أحد العطارين وأنا أتعقبه ومستفيداً من التجربة التى حصلتها من وقوفى أمام دكان بائع الطواقى جعلت نفسى مشترياً ووقفت بجانبه تماماً .

وقال قارى إلى صاحب الدكان بعد أن ألقى عليه التحية :

– من فضلك أعطنى زجاجة مربى الورد على حسابى (فائدة ، فائدة ، فائدة) ما لها الذى أقرضته لك ففتح العطار مبتسمًا غطاء طاسة

نحاسية كانت موضوعة أمامه وجرف من وسطها بجاروف حديدى أربع زجاجات من مربى الورد وأعطاها إلى قارى اشكمبه.

فأخذ قارى إشكمبه الجاروف من يد العطار ، وفتح إحدى الزجاجات بأسنانه ، وأثناء مضغه للمربى أعاد الجاروف إلى العطار وقال : إن هذه الفائدة أو المال الذى أقرضته لك قليل ، كما أن المربى تعلق بلثتى وأسفل أسنانى وكأن شيئًا منها لا ينزل فى جوفى .

– إن دكانى ضيقة ورأس مالى قليل ، وفوق هذا فإن أغلب تعاملى بالشكك ولذا فإن ربحى يقل أيضًا ؛ وفى مثل هذه الأحوال تقل هذه الفائدة ولا تصل نصابها المشروط .

– حسنًا ، اترك هذه الفائدة الثالثة لمال المربى وأعطنى لوجه الله زجاجة منها لأن معدتى أصابها البرد ففقدت شهيتى ، وسوف أدعو الله لك بأن ترى أفراح عرس أولادك.

– الحمد لله أن معدتك مصابة بالبرد وفقدت شهيتك وإلا بلعت جميع الدنيا بلا مضغ . قال هذا العطار بلهجة نصفها جاد والآخر هازل وأخذ الزجاجة من يده وأعطاه واحدة أخرى .

ولعل العطار كان يظننى أننى برفقة قارى إشكمبه ؛ لأنه لم يقل شيئًا ولم يسألنى عن شيء ، لكن قارى اشكمبه كان ينظر بارتياب منذ أن وقفت بجانبه فى دكان العطار وأثناء تناوله زجاجة مربى الورد الثانية التفت إلىّ محدقًا فىّ بنظرة حادة فاحصة ، ثم قال لى متسائلاً :

- أخي هل تريد مني شيئًا ؟

وبدلاً من أن أجيبه (أجل أريد منك أمرًا) وأطلب أن أختلي به لكي أفصح له عن مقصدي وإذا أحب أن يسمع مطلبي فاشرح له حاجتي لغرفة منه فقد كانت إجابتي التي أعددتها عن سؤاله : (هل تريد شيئًا ؟) هي قولي للعطار:

- أريد فلفلاً !

وبالطبع كانت إجابتي هذه عن سؤال قاري في غير موضعها ، وكنت أراه يهزأ بي ويضحك من تحت سنه فحشرت يدي في جيبي وأنا في فرط الاضطراب لكي أخرج شيئًا من المال ، شرائي للفلفل سوف يجعلني أفلت بسرعة من ورطة هذا الخجل لكن من سوء حظي لم يكن في تلك اللحظات الحرجة أي نقود في جيبي ، فاصفر وجهي وأحمر وتصببت عرقًا ونظرت إلى العطار:

- ليس الآن معي نقود ، سوف أذهب وأعود بالمال وأشتري منك الفلفل ، قلت هذا مبتعداً عن الدكان ، وأثناء ذهابي من أمام دكان العطار وقعت عيني على قاري اشكمبه ، كان ينظر إلى العطار وهو يمط شفتيه السفلي ويشير برأسه إليّ ولم أدر ماذا كان يدور بخلده تجاهي .

- لم أنجح يومها في اصطياده ، ولم يكفني فشلي في الوصول إليه بل انسد عليّ في الأيام التالية طريق تعقب هذا الصيد لأن خجلي ظهر

أمام قارى اشكمبه . وكان كذبى فى شراء الفلفل واضحاً كالشمس إليه بل إن كذبى فى شراء الفلفل أظهر كذبى فى شراء الطاقية قبله أمامه ، وتعقبته فى الأزقة بعد ذلك للقائه لكنى لم تسنح لى فرصة لذلك.

وكان يؤلمنى كثيراً أن فشلى هذا كله نتج عن سوء تدبيرى ، فلو أجبت على سؤاله : (أخى هل تريد منى شيئًا ؟) يقول : (أجل أريد منك أمراً) ثم أتبعه (أعرض عليه طلبى وهو أن أختلى بك لحظات) لظهر تعقبى له وجريى وراءه أمراً عادياً له، وبالطبع كان سيختلى بى ويسألنى عن مطلبى فأفصح عن مشكلة المسكن . وإذا لم يتيسر لى إذ ذاك الحصول على غرفة منه لكنى سأتعرف عليه وسوف ينفتح فى المستقبل علىّ طريق معرفة أحوال هذا الرجل العجيب الذى اجتذب إليه بشدة طبيعتى الباحثة الفاحصة وهذا كان أكثر أهمية إلى من وجود حجرة للسكن.

لكن الندم لا يفيد الآن ولا يجدى التأسف والحزن لأن السهم قد أفلت من قوسه خطأ وهرب طير المراد من فخه ، ومع هذا كله فلم أكن أريد قطع الأمل فى التعرف إلى هذا الإنسان ودراسته وأخذت أجيل فكرى فى البحث عن طريقة للوصول إليه . وفى نهاية الأمر بدت هذه الحيلة معقولة فى نظرى وهى (أصل إلى عنوان إقامته ومنزله بالسؤال والبحث ، وأتجه مباشرة إليه فى وقت مناسب وأعترف إليه بكذبى فى شراء الطاقية والفلفل ، وأفهمه أن تتبعى له من أجل طلب حجرة للسكن منه ، وأبرر له بهذه الطريقة سبب خجلى الذى اعترانى أمامه ، واستعيد

ثقتي في نفسي وفي نفس الوقت ينفتح أمامي طريق معرفته ودراسة شخصيته) .

أمضيت تلك الليلة سهران أفكر وأتدبر حتى أتى السحر ووصلت هذا الحل الأخير فاستراح فكري قليلاً وغلبني النوم.

وفي اليوم التالي أخذت أطوف الأزقة على أمل العثور على منزل قاري اشكمبه وجبت أطراف مدينة بخاري وسلكت طريقي إلى ركن باعة الشاي الذي يقع في الناحية الشمالية لخانقاه ديوان بيكي بين مدرسة (كوكلتاش) والمسجد.

في وسط سويقة باعة الشاي في الطريق الجنوبي من الزقاق المواجه للزقاق الفرعي للسوق المسمى (انكشت) كان يقع قصر مشيد اسمه (جنت مكاني) ، وقد أعدت مصطبتان عاليتان على جانبي مدخل هذه القصر خارج بوابته ، وكان يجلس على إحدى هاتين المصطبتين (رحيم قند) بائع السكر النبات الموضوع أمامه.

وكانت المصطبة الأخرى خالية ، وكنت أجلس بين الحين والآخر على هذه المصطبة مع بائع السكر المذكور وأتبادل معه الحديث ، وبما أنه كان رجلاً غريبًا فقد كانت حكاياته في غاية العنوية وكان يحلو لي كثيراً سماع حكاياته وقصصه وكلامه.

وبما أن رحيم قند عرض ذكره هنا فمن اللازم أن أقص شيئًا من سيرته حتى أعرف القراء على هذا الرجل ولو بقدر مختصر : ولد هذا

الرجل فى أحد أحياء مدينة بخارا ونشأ بها وتعلم فيها علومه الأولية كما تعلم الموسيقى، وكان يعزف على آلة الطنبور أو العود من بين الآلات الموسيقية لكنه لم يكن يغنى ، وكان هذا الرجل فى غاية الفقر ولم يكن يمتلك شيئًا من حطام الدنيا ، وكان يمضى أيامه فى فقر ولم يكن يتصف بالمهارة الفائقة فى حرفته هذه . وفضلاً عن ذلك لم يكن كشأن بعض الموسيقيين فى عهده يتصف بنحافة المظهر واللياقة والتملق والمداهنة ، وبسبب ذلك فلم يكن يدعوه الأثرياء لإحياء أفراحهم وولائمهم الفخمة ، ولكثرة كساد سوقه وقلة طلابه كان بإمكان أى إنسان أن يدعوه لإحياء حفلة له وكان يرضى أن يحيى الليلة لقاء تنجتين فقط. وبسبب أن أجرة عزفه على الطنبور بالقياس إلى العازفين والمغنِّيين غيره كانت ضئيلة جداً فقد كان يدعوه طلاب المدارس إلى حفلاتهم وفى مجالسهم الخاصة وسهراتهم الجماعية ، وقد تعرفت على هذا الرجل فى حفلة من هذه الحفلات.

وقد كان الطلاب يلحقون أذى كثيراً بهذا الرجل المسكين البرىء فى حفلاتهم ومجالسهم ، وكانوا يسخرون منه سخرية شنيعة مؤلمة ففى إحدى هذه الحفلات جمع زملائى فى الدراسة وكان عددهم يربو على المائة ألفٍ وخمسمائة تنجة منهم فى افتتاح الدراسة وأنفقوا من هذا المبلغ ألفًا وأربعمائة على ترميم مدرسة أستاذهم ، وأرادوا أن يقيموا بالمائة تنجة الباقية حفلة ويدعون لإحيائها عازف طنبور ، وأنفق زملاء الدراسة فى تلك الحفلة المبلغ المذكور ، ورتبوا لأنفسهم ولضيوفهم

ضيافة متوسطة وكان عازف الطنبور هو (رحيم قند) وكان يقوم بمسئولية أداء اللحن والموسيقى فى ذاك المحفل بينما كان المنشدون المجانيون الذين كان الطلبة يسمونهم اصطلاحاً (المصوتين) ، وكانوا من بين الطلبة علموا أنفسهم الغناء يقومون بالأداء والإنشاد ·

وبدأ الحفل وكان رحيم قند يعزف طنبوره وينشد الطلبة المهووسون وكان من يجيد الغناء من بين الزملاء كثرة كثيرة كان كل منهم يتغنى على ألحان رحيم قند فى دوره بعد من سبقه ولم يتوقفوا عن الغناء بينما كان رحيم قند هو العازف الوحيد فظل يعزف عوده حتى منتصف الليل بلا توقف أو فرصة لالتقاط الأنفاس وإراحة عوده حتى لم يعد به أية قدرة على مواصلة العزف وعجز إصبعه عن تحريك أوتار العود فقال بحسم لهم حين أرادوا حثه على مواصلة العزف : لن أعزف ثانية ولو قتلتمونى !

فقال أحد الطلاب اسمه (أمين موش) وكان ضمن المغنيين : أتقول الآن كلامك هذا ؟ فقال رحيم قند مكرراً ومؤكداً كلامه : نعم ، أقول هذا مصراً ·

فتوجه (أمين موش) إلى حضار الحفل قائلاً : هلموا يا رفاق لنعطيه (علقة سخنة) · واتجه هو إلى رحيم قند فطرحه أرضًا وذهبت جماعة من أوباش الطلاب لمساعدة (أمين موش) ، وطرح الجميع عازف الطنبور أرضًا وأخذوا يوجهون له اللكمات والصفعات ، وأخذ رحيم قند المسكين أولاً فى التأوه والتوجع ثم العويل وانخرط فى بكاء ونحيب .

وفى النهاية لم يتخلص من هذا الضرب واللكم إلا برضوخه لمواصلة العزف.

وهو يبكى وترتعش أصابعه لكن صوت عوده لم يكن يعلو عن صوت ذبابة ضعيفة وقعت فى نسيج عنكبوت.

وفى تلك الأثناء كان الطعام فى آخر الحفلة وهو (الأرز) جاهزاً لتقديمه واصطفت أطباق الطعام أمام الضيوف والطلاب وأفلت رحيم قند من إجباره على عزف العود بدون أن يستأذن أحداً لأن الزملاء كانوا يعتبرون تناول الأرز أهم من سماع موسيقى عوده.

ولما انتهت الحفلة والضيافة وأخذ الحاضرون فى التفرق أرسل القائمون على هذه الحفلة ومنظموها قطعتى تنجة أجراً له ورغيفًا واحداً وطبقًا وحيداً من الأرز لأطفاله على سبيل الهدية ، وسعد رحيم قند كثيراً لهدية الطلاب لأنه لم يكن يتوقعها قط قائلاً وهو يدعو لهم:

– يا رب ، تصبحون كلكم مدرسين مفتيين وعلماء وشيوخا ورؤساء وقضاة وقضاة القضاة!

– فقال أحد الطلاب : لكى نصل نحن جميعًا لهذه المناصب فلابد أن يموت جميع القضاة والرؤساء والمشايخ ذوو المناصب أو يحالوا إلى التقاعد ، ولو سمع دعاءك هذا المشايخ المنصبون اليوم وهو دعاء شنيع فى حقهم فلسوف يقتلونك ضرباً ولكماً .

- ليكن ما يكون - قالها رحيم قند وشفتاه تميلان للتبسم خلاف عادته المقررة - فلا ضرر من القتل ضرباً بعد تناول رغيف واحد وطبق طعام.

كان عيش رحيم قند فى غاية الضيق ، فبالطبع لم تكن (تنجتان) هما دخله ولا يكتسب أكثر منهما فى اليوم مع رغيف وطبق طعام كانا يأتيانه بطريق المصادفة من حفلات الأعراس وولائم الكبار فى أسابيع وشهور على سبيل (الإهداء) لتقيم أود عائلته وليس له أية خبرة لأية حرفة أخرى إذا أراد العمل بها كما أنه يعدم رأس المال للتجارة ، فاضطر إلى أن يضيف إلى مصدر دخله ما يتحصل عليه من بيع السكر النبات وقبيله فكان كل رأس ماله فى عمله هذا السكر والنعناع ونوعاً من حلوى السكر ، ولم تكن تزيد قيمة كل هذه البضاعة عن خمس تنجات ، كان يكسر السكر ويبيع القطعة الكبيرة بقرشين والصغيرة بقرش واحد وكان يبيع النعناع الرخيص الثمن وحلوى السكر المعدة من المخلفات السكرية ويضع كل ذلك فى لوح خشبى ولا يتعدى القطعة منها القرشين وكان يحمل صندوقه كل صباح ويقدم به إلى قصر (جنت مكان) فيجلس على إحدى مصطبتين ويبيع ما معه لزبائنه وكان أغلبهم من الأطفال المتجولين فى الأزقة.

واسترعى انتباه أهل بخارا حرفة رحيم الطنبورى الجديدة هذه فأضافوا إلى اسمه كلمة (قند) أى السكر فكانوا ينادونه (برحيم قند).

وكنت أنا أحيانًا أشترى من (بضاعة رحيم التجارية) بقرشين سكر نبات أو نعناعًا وأضعه فى فمى وأجلس على المصطبة الأخرى أمصها ، ولم أكن أحتاج من هذا الشراء إلى السكر بل لأن سماع كلامه كان أطيب عندى من مذاق السكر لأنه كان يستفيض فى حكاياته لى لرضاه عن مشترياته الحقيرة هذه كان أغلب حكايات رحيم قند يدور حول حياته وذكرياته وأحواله وما رآه وما سمعه . ويجب أن أسجل هنا أن رحيم قند كان يحكى أشياء كان يتخيلها بصدق تام على أنه قد قام بها فعلاً أو رآها بعينيه وأحلى حكاياته هى نفس هذه الحكايات التى تشبه الأساطير.

ومما سمعته من رحيم قند لا تزال حكايتان اذكرهما وأود أن أرويهما فى هذا المقام:

شكا لى يوماً رحيم قند عدم التمييز فى أبناء عصره وعدم تقديرهم للفن قائلاً :

(لو كان فى الناس تمييز وكانوا يقدرون الفن لأمكنهم أن يميزوا الفنان عن مدعى الفن وقدروا أهل الفن حق تقديرهم وما عاملوا العازفين الآخرين تلك المعاملة الحسنة وعاملونى هذه المعاملة السيئة ، فهم قد رفعوا الآخرين إلى السماء وألقوا بى فى الأرض بين أغلبية هؤلاء المغنين والمطربين والعازفين كانت تلامذة بلا أستاذ لم يتعلموا الفن نبتوا كالحشيش الشيطانى فى الحديقة وظهروا فى تربة صناعة الموسيقى والغناء كالنبات البرى ، لكن الناس يعتبرون الأحمق الخداع

هو الماهر ويمدحون فنه أما من ليس بهم إدراك وتمييز فيكتسب منهم مالاً وفيراً أما أنا الذى تشربت الصنعة على أيدى أساتذة متمكنين لمدة سنوات عديدة وأتقنت هذه الصناعة فليس عندى خبز آكله أو سروال صغير أرتديه) .

ويروى رحيم قند بعد هذه المقدمة بهدف إثبات فنه وأسبقية أساتذته (مذكرته) الآتية:

(أنا قد تلقيت دروس الموسيقى متتلمذاً لعشر سنوات على يد نصر الله بيه بائع الأوانى (ديكفروش) الذى اختصر الناس اسمه فسموه (نصر الله ديك) وكان أوحد زمانه فى علم موسيقى الأدوار الستة ، وبعد أن استظهرت حفظ هذه الأدوار الستة الموسيقية واستوعبتها كالماء كان يأخذنى معه إلى الحفلات) .

ويذكر رحيم قند أهم وأجدر تلك الحفلات التى رافق فيها أستاذه للراوية على النحو التالى (أخذنى برفقته أستاذى نصر الله ديك ذات ليلة إلى حدائق (داماد قاضى كلان) الأربع الواقعة فى حى (خطايان) ، وهناك حضر أيضًا مطربون وعازفون آخرون جاءوا بكل ما لديهم من آلات موسيقية وصاحب الموسيقيين المطربون والمغنون وظلوا يعزفون ويغنون حتى منتصف الليل ، وبعد تناول طعام منتصف الليل تفرق جميع الضيوف والموسيقيون والمطربون إلى كل طرف وأخلدوا إلى النوم ، فقال أستاذى إلى صاحب الحدائق : لو أحببت وسمحت لى أقيم لك أنا وتلميذى حفلة خاصة مستقلة.

وبالطبع رضى داماد قاضى بهذه الفكرة بسرور وأمرنى نصر الله بإصلاح أوتار العود وإعدادها للعزف فأصلحتها ورتبتها ، وأمسك الأستاذ بعصا القيادة وأخذ يغنى مراعياً أصول الغناء وأنا أعزف وأثناء غنائه وعزفى حطّ بلبلان كانا يطيران بأعلى فرع الشجرة التى كنا نغنى تحتها ، وبعد أن استراح البلبلان مدة أنصتا إلى أنغامنا وأخذا يشدوان على وفق اللحن الذى كنا نعزفه وزاد الشوق بأستاذى لما رأى صنع هذين البلبلين وكأنه دخل معهما فى سباق ومنافسة فأعلى غناءه وأناته حتى بلغت عنان السماء ، وكنت أنا بدورى أهز أوتار عودى بأظافرى الرقيقة بنحو كان يقطع نياط القلب من الحنين فإذا بالسامعين لما سمعوا نغماتى التى تذيب الأرواح وكأنى خمشت بأظافرى عروقهم وأعصابهم يصيحون ويثورون ويغلون .. وفى النهاية انهزم البلبلان أمامنا فسكتا عن الشدو وبعد فترة من الصمت فقدا تماماً الوعى والسيطرة على نفسيهما فرميا بنفسيهما من فوق غصن الشجرة نحونا وأتى واحد منهما وحط على مفاتيح عودى وحط الآخر على عصا نصر الله بيه ولما رأى السامعون ما حدث أخذوا فى الصياح والثورة وبلغت أصوات مدحهم وإعجابهم بنا إلى السماء وانتهى الحفل بهذه النهاية..) .

وافتراء مثل هذه (الحاكيات) لرحيم قند واضح ولم أكن أجادله قط بهذا الخصوص بل كنت أتظاهر بتصديق كل حكاياته لأنه كان يثور ويتعصب جداً لو فهم أننى لا أصدق ولو قليلاً حكاياته هذه ، بل لا يكتفى بالثورة والغضب وإنما كنت أخشى أن يقطع معرفته بى ولا يروى

لى ثانية مـثل هذه الحكايات بينما كـان سمـاعى مـثل هذه الحكايات يطربنى كثيراً ويسعدنى أنه كان يروى ذكرياته بكامل الجدية والصدق وكان يعتقد تماماً فى أننى مصدق لكل ما يقول .

كان رحيم قند يحكى لى مرة عن البطولة الأسطورية التى أسبغها على أحياء من الناس وتطرقت حكايته إلى حرب الأمير المظفر مع سكان الجبـال روى لى أن هذا الأمـيـر أقـام منارات من جـمـاجـم أهل القلعـة وسكان (ختـلان) وعـاصـمـتـهـا (كـولاب) وأنه قـتل فى سـاعـة واحـدة أربعمائة أسير وبالإضافة إلى هذا حكى لى عن (عزيز الله) وهو أحد من اشـتـرك فى تلك الحـرب ، عـزيـز الله هذا فـى الأصل كـان من أهل بلخ ودرس فى بخارا واختاره الأمير المظفر لقتال أهل الجبال جندياً فاشترك فى تلك الحرب ، ومكافأة لخدمته هذه أعطاه الأمير رئاسة بعض البلاد . وحين كـان يروى لى رحـيم قند هذه الحكايات كـان عـزيـز الله يتـرأس منطقة (غـجـدوان) ، واشـتـهر عزيز الله بالكذب وكـان هو بذاته يقول : إذا لم أقل فـى اليوم مـائة كذبة واضـحـة الكذب لا أسـتطيـع أن أنام فى ليلة ذاك اليوم ، المهم أن رحيم قند روى لى عن بطولة عزيـز الله الكذاب هذا قوله:

(قـام عـزيز الله كـأحـد أتبـاع الأمـيـر وأشـيـاعـه بالهـجـوم على أهل القـلاع والكولابيين فى حـرب الجـبـال وكـان يصـرع فى كل هـجـمـة على جواده وكل ضربة من سيفه نحو اثنى عشر رجلاً ، وفى أحد الأيام أثناء

اشتداد سورة الحرب مرت فرسه وهى تعدو بين شجرتى توت نبتتا قريبة إحداها من الأخرى حتى تشابكت أغصانها فعلقت رأس عبد الله بأغصان هاتين الشجرتين وانفصلت رأسه عن جسده وبقيت معلقة بالأغصان لكنه بكل مهارة أدار إلى الخلف فرسته وفصل رأسه عن أغصان الشجرتين ووضعها فى موضعها ، وبسبب أن دماءه لم تكن قد بردت بعد فقد ألصق رأسه بجسده كما كان حالها فى البداية واستمر يقاتل على نفس الوتيرة السابقة كأن شيئًا لم يقع له)٠

وطربت كثيراً لهذه الحكاية حتى نسيت من فرط سعادتى خصوصية طبيعة رحيم قند وقلت له : (الحمد لله أن عزيز الله لم يصبه الاضطراب ولم يلصق رأسه بجسده بنحو مائل وإلا صارت عيناه فى قفاه وقاسى كثيرا فى حياته) .

ففهم رحيم قند من مقالتى هذه ارتيابى فى حكايته فهاج وثار فىّ مرة واحدة:

(إنه لم يكن أعمى ولم يكن بغير عقل حتى لا يعرف كيف يثبت رأسه على جسده !) .

فاعتذرت له وأثبت له تصديقى حكاياته وأزلت من قلبه كل شك فى تصديقى له ومع هذا فلم يرو لى أكثر من مثل هذه الحكايات٠٠

(٤)

سلكت طريقى إلى سويقة باعة الشاى حتى وصلت أمام قصر (جنت مكانى) ووجدت رحيم قند واضعًا صندوق حلوياته أمامه وجالسًا فوق مصطبته الأثيرة ، واشتريت منه بقرشين بعض النعناع ووضعته فى فمى وجلست على المصطبة الأخرى للقصر.

كان مقصدى الأساسى فى هذا اليوم هو أن استدل على عنوان لقارى اشكمبه أو على المكان الذى يعبره وكانت كل أفكارى وحواسى مقصورة على هذا المقصد ، ولهذا لم أبذل جهداً فى جعل رحيم قند يتحدث ويقص لى حكاياته وكنت غائصا فى لجج الأفكار ، ولم أكد أنتهى من مص النعناع حتى ظهر قارى اشكمبه من الناحية الشرقية للسويقة من جهة مدرسة (كوكلتاش) وحدقت النظر فيه لأتبين ملامح وجهه ولما زاد اقتراباً وقع نظره علىّ ولم يرفع نظره عنى وفهمت من نظراته الحادة ذات المعنى قوله عنى (هذا هو كذاب الأمس) لهذا اعترانى الخجل ورفعت عينى عنه وتجاهلته لكنى أخذت أتعقبه وأتابع حركاته بطرف عينى ، ووقف مباشرة أمام مصطبة رحيم قند وأخذ منه بعض سكره النبات ونعناعه ووضعهما فى فيه كما أخذ بعض الحلوى الصنف الثالث لرحيم قند ومضى يتابع سيره وهو ينزع الأوراق عن

مشترياته ، وصاح رحيم قند بأنين ولون شاحب وشفتين مرتعشتين : يا عم الشيخ ، لا تهزل أنا إنسان مسكين ذو عيال أعطنى ثمن السكر والحلويات والنعناع ثم امض لحال سبيلك !

فرد عليه قارى اشكمبه دون أن يبطئ من خطواته المتقدمة أو يعود من طريقه ومتابعًا سيره : لا تكن جاحداً ولا تنسْ طعام البارحة كما أننى سوف أعود عليك بالمنفعة المضاعفة عوض هذه النقود التافهة التى تطلبها .

وأخذ رحيم قند يسبه ويشتمه وهو يزمجر : (*اخرس أماتك الله*) .

فسألته كأنى لا أعرفه قط : من هذا الرجل ؟

فأجابنى : إنه مرابٍ عابر ، خسيس بخيل خبيث جشع .

– ألم يمتن عليك بقوله (لا تكن جاحـدا ولا تنس طعام البارحة) إلا إذا كان استضافك بالأمس ؟

– إن امرأته لم تأكل منه طعامًا حتى اليوم ، وروى لى حكاية طعام البارحة كالتالى : بالأمس أخبرنى أحد الناس بإقامته وليمة فجلست أمام مصطبة المنزل فوق معطفى وأخذت أعزف عودى ، وبعد فترة دخل المنزل هذا الرجل وسط صف من الضيوف وذهب معهم إلى مكان الضيافة وأخذ يتناول الطعام ، وبعد الانتهاء من الطعام انتشر الضيوف لكن هذا الرجل جلس على معطفى وقال لصاحب المنزل بأن يؤتى له بالشاى وأخذ يحتسى الشاى جالسا بجانبى ، وأتت مجموعة أخرى من الضيوف وتناولوا طعامهم وانصرفوا ، ولما قاربت الوليمة

والحفل على الانتهاء قال للقائمين على هذا الحفل مشيرا إليّ: هاتوا الطعام لهذا الرجل فهو يعزف على العود ومعه مرافق منذ بداية الحفل ، وطعامه لابد أن يفيض باللحوم والمرق السمين ، فأتوا بطبق من الأرز وكان فى الحقيقة يمتلىء باللحم والدهون ولكنى لم آكل عشر هذا الطعام فمع أنه كان قد أكل مع الضيوف وخرج من دار الضيافة معهم بعد الأكل إلا أنه أخذ يلتهم طعامى بشراهة كحالته الأولى إذ كان يتناول لقمتين أو ثلاثا مع كل لقمة واحدة أتناولها كما يفعل الذين يخدمون مقابل تناولهم الطعام ، وكان يأخذ قطعتين كبيرتين من اللحم مع كل لقمة وأخذ المرق والدهن يتساقط من يده حتى مرفقه... وبعد الطعام أردت العزف على العود وأخذت فى إعداد مفاتيحه وتهيئة أوتاره لكنه قرب فمه من أذنى وأخذ يسر إلى بهذه الكلمات : (تعال ، أوقف الآن عزف العود ، فقد انتهى تردد الضيوف على الحفل)، ثم أضاف : (سوف آخذ لك من هذا الحفل طبقًا من الطعام بشرط أن تعطينى نصفه ، موافق ؟) .

فقلت له : نعم ، موافق

– عظيم استأذن صاحب الحفلة .

– هل تسمح لى الآن ؟ قلت هذه الكلمة لصاحب الحفلة ووضعت عودى فى جرابه ، وجاء صاحب الحفلة ومعه تنجتان ورغيف وحفنة من السكر ووضعها أمامى فأودعت النقود فى جيبى وعقدت منديلى على الرغيف والسكر ، وفى أثناء هذا دلّ هذا الرجل صاحب الحفلة عليّ قائلاً :

– (هذا الرجل فقير وله أطفال فهات له طبقًا من الطعام وعليه اللحم والدهون وغطه برغيف ساخن وسوف يأتى لخدمتك هذا الرجل حيت تقتضى الضرورة) .

فقبل صاحب الحفلة كلامه وأعد الطعام وأتى إلىّ به وحملت العود وطبق الطعام وخرجت من الدار ، وودعنى صاحب الحفلة قائلاً : لا تنس إرجاع الطبق . وما أن ابتعدنا بضع خطوات عن مكان الحفلة حتى قال لى : إن دارى فى أول طريقك فلنذهب إليها أولاً وبعد أن آخذ نصيبى من الطعام فخذ أنت الطبق وبه بقية الطعام واذهب إلى بيتك.

ورضيت وعبرت معه كثيراً من الأزقة والأزقة الفرعية حتى وصلنا إلى منزله ، وعرفت أن منزلى كان أقرب كثيرا إلى دار الحفلة من منزله).

وكنت أبحث بشدة عن مكان منزل قارى اشكمبة فاهتبلت الفرصة وقطعت كلام رحيم قند : (فى أى شارع أو زقاق يوجد منزله ؟) فقال رحيم قند مجيبًا عن سؤالى : (فى شارع الدباغين ، وبآخر الشارع زقاق فرعى مقفول ويقع منزله خلف سوق باعة الأحذية والجوارب ثم استأنف حكايته :

(ولما وصلت إلى منزله أخذ منى طبق الطعام ليأخذ حقه منه ودخل به إلى داره ثم خرج بعد بضع دقائق بالطبق مكشوفًا وأعطاه لى ، لقد سرق اللحم والخبز كله ولم يبق من الطعام غير السمن تقريبًا وأخذ المرق والدهن عن آخرهما منه) وأضاف رحيم قند وهو يختم حكايته (هذا الرجل ثرى ومع ذلك فهو شديد الجشع ولا يتورع أيضا عن فعل أى شيء لأخذ شيء ما وقع ومع هذا لا يشبع أبدًا).

فأجبته : مع أن سعدى الشيرازى قال : (الطماع الثرى لا يملأ عينه غير القناعة أو تراب القبر) إلا أنى أقول : (الطماع الثرى لا يملأ عينه القناعة أو تراب القبر) وبعد هذا الحوار نهضت معجلاً من مقعدى لأن عنوان منزل قارى اشكمبه وهو هدفى الأساسى لذاك اليوم لم أكن اتطلع إلا إليه وقد حصلت عليه من تلك الحكاية ولابــد مــن أجدّ السير الآن إلى منزله.

(٥)

سرت من أمــام قصر (جنت مكانى) حتى الأزقة الفرعية لسـوق (انكشت) وتوجهت إلى شارع الدباغين ودخلت منه إلى الزقاق الفرعى المقفول فوصلت إلى نهايته فكان على يمينى بوابة صغيرة للمنزل الذى وصفه لى رحيم قند ، ولابد أنه منزل قارى اشكمبة فدققت باب تلك البوابة وقلت فى نفسى : إذا لم يظهر أن هذا هو منزل قارى اشكمبة فلا ضرر أيضاً لأننى فى هذه الحالة سوف أستفسر من صاحب هــذا المنــزل عن منزله .

وبعد دقيقة سمعت صوتاً من شرفة وطيئة خلف البوابة وظهر أن شخصين يتحادثان معاً بصوت خفيض منها ، لكن لم يصدر منها إجابة على طرقتى الأولى فطرقت البوابة مرة أخرى :

– من أنت ؟ سـمعت صـوت امـرأة تسـتفسـر من وراء البـوابة ، فرددت :

– أنا طالب وأحتاج إلى عم الشيخ .

فردّت المرأة ثانية : عمك الشيخ ليس بالمنزل ، ماذا تريد منه ؟

– ما أريده لابد أن يسمعه هـــو ولا أحـد غيـره ٠٠٠ متـى يكون بالمنزل ؟

فـأجـابت نفس المرأة : إنه يأتى على غـيـر مـيـعـاد أحـيـانًا يلف على منازل معارفه ولا يأتى هنا حتى منتصف الليل.

فسألتـهـا : لو جئت إليه بعد أن ينام مـباشـرة أو بوقت مـتـأخر فـهل يمكننى مقابلته ؟

– لا . قـالتـهـا المرأة الأخـرى بحـسم ، وأضـافت : إنه لا يدع أحداً يدخل إليه فى أثناء الليل بل إنه لا يفتح البوابة أصـلاً وألزمنا أيضًا بألا نفتح لأحد البوابة بالليل أو حتى بالنهار ، وأكد علينا بالأمس ثانية بألا نفتح البوابة حتى ولو جاء أحد المعارف أو الأقارب ، وعليه فإننا ننصحك بألا تهدر وقتك بمجيئك إلى المنزل أو محاولة مقابلته.

فسألتها : من تكونان لهذا الرجل ؟

فأجابت المرأة الأولى : نحن زوجتاه .

– لو كان له ابن فيمكن أن أحادثه وينقل مطلبى إلى أبيـه ثم أعلم منه جواب أبيه فجاء صوت الزوجة الأولى يقول : إنه ليس له ولد ولا بنت ولا خـادم ، ثم استـأنفت الثانية : إنه كشـجر السـرو الحر وحيد ومستقل يعيش وحيداً ومستقلاً كان صوت الزوجة الثانية تمازحه ضحكاتها.

– حسنًا ، فمتى يمكننى أن أراه فى المنزل فى النهار وآتى إليه فى هذا الموعد؟

فـأجابت زوجتـه الأولى : لا يوجد بالمنزل فى أى وقت من النهار أنه يخرج قبل بياض النهار ويأتى فى منتصف الليل.

ولما تعسّر عليّ مقابلة قارى اشكمبة فى منزله وانقطع أملى فى لقائه بمنزله فى المستقبل أيضًا عدت إلى السويقة والسوق وأخذت قرارًا بينى وبين نفسى : (لو صادفته فى أى مكان هذه المرة فلسوف أقطع عليه الطريق وأعترف له بكذبى وأبين له قصدى حتى أتخلص من خجل الأمس) . وعبرت بهذه النية سويقة باعة الأحذية ووصلت حتى (طاق خواجة محمد) ومنه أتيت إلى سويقة باعة الدخان والطباق ومررت من أمام محلات الزبيب والحلوى فوصلت إلى سوق العطارين ومنه إلى سوق باعة الشاى.

كان الوقت متأخرًا والشمس قاربت المغيب وكان أغلب أصحاب المحال والدكاكين أقفلوا دكاكينهم وعادوا إلى منازلهم وقل عدد الآتين والذاهبين فى الأسواق وكانت الفرصة مناسبة لو تصادف مرور قارى اشكمبة لمحادثته ومحاورته ، لكنه لم يصادفنى فى تلك الأماكن ، ولما وصلت إلى باب قصر (جنت مكانى) وجدت رحيم قند قد تأبط معطفه وأمسك صندوقه وتهيأ للانصراف.

ولما وقعت عيناه عليّ وضع على مصطبته معطفه وصندوقه واستند عليها ونادانى إليه ضاحكًا ، فعجبت من ضحكه لأنه لا يضحك فى عمره كما سبق أن حكيت عنه غير مرة واحدة وهى حين يحمل معه طبق طعام فى ليلة الاحتفال وفى غير هذه الأوقات كأنه قد شرب خلاً فقد كانت طلعته تبدو متغضنة عبوسة متجهمة ، أما الآن فلم يكن يبتسم وحسب بل كان يضحك ، اقتربت إليه فسألنى:

– ماذا فعلت مع قارى عصمت ؟

- لم أفعل شيئًا ، ماذا حدث؟

فجلس رحيم قند على المصطبة واستأنف حديثه:

- حينما غادرت هذا المكان ظهر هو وسألنى عنك قائلاً : من هذا الشخص ؟

فأجبته : طالب من غجدوان!؟

فقال وهو يهز رأسه : صدق حدسى !

فسألته : ماذا كنت حدست؟

ففكر قارى عصمت قليلاً وقال :

(يظننى الناس رجلاً ثريًا ولهذا يتعقبنى بعض اللصوص والمشردين فترات وحينما يدركون أننى لا أحتفظ بدارى قرشًا أسود يستريحون ويتركوننى فى حالي ويمضون إلى حال سبيلهم) وصمت قارى هنيهة ثم استأنف حديثه:

(هذا الطالب ظل يتعقبنى منذ ثلاثة أيام ويبدو أنه كان يريد أن يفهم من أين أتحصل على النقود وأين أودعها . وإذا فهم بوضوح أننى أحتفظ بنقودى فى منزلى فسوف يأتينى بالليل ويقتلنى ويأخذ النقود)٠

فرددت عليه : هذا الطالب ليس كما تتصور ، كذب حدسك !

فقال : لنفرض أنه رجل مستقيم فليس غريبًا أن يضلّه رفاقه ويجعلونه يتعقبنى وعلى كل حال الخوف من أهل غجدوان مطلوب)٠

ويتابع رحيم قند كلامه قائلاً : (وأضاف قاري عصمت في نهاية حديثه : هذا الطالب على معرفة بك ، فهمه أنني فقير وليس لدى نقود ولو حدث أن حصلت بلا توقع على نقود فلا أحتفظ بها في منزلي بل أنني لا أمتلك بالمنزل أي شيء نفيس وليس لدى غير فراش أو فراشين قذرين وباليين لا يفترقان عن مرشحة عرق الحمير التي توضع أسفل البرذعة)٠

وأنهى رحيم قند حكاية قاري وقال لي ناصحًا :

(لا تقترب من مثل هذا الإنسان المريب) فحكيت لرحيم قند بإيجاز عن قصدي من قاري اشكمبة وهو طلب غرفة وتعقبي له بضعة أيام لمقابلته وعدم سنوح الفرصة لي لمحادثته ، ثم قلت له :

ما دام رجل بهذه الصفة قد صار سيئ الظن بي فلن أرى وجهه ثانية ، ولن أطلب منه غرفة للسكن ولا تهمني غرفته ولا مقابلته كما يقول سعدي : (تركت عطاءه بسبب لقائه) ، وتركت رحيم قند ومضيت إلى حال سبيلي٠

(٦)

انقضت أيام عديدة بعد حادثة قصر (جنت مكانى) ولم أصادف كذلك قارى اشكمبة فى أى مكان بل لم أفكر فى تعقبه ولقائه فقد أخليت فكرى تماماً من فكرة التعرف به واستئجار غرفة منه واعتبرت البعد عن هذا الرجل السيء الظن المتهم المريب أمراً ضرورياً.

وفى أثناء تلك الأيام كنت مستغرقًا فى التفكير يومًا وأنا فى فناء مدرسة (كوكلتاش) جالسا على مصطبة أحد دكاكين باعة الملح وإذا بظل إنسان يظلل هامتى فلم آبه بهذا الظل بسبب كثرة فكرى وانشغال بالى ولم أنظر ناحيته فسمعت صوت إنسان يأتى من أعلى رأسى يقرئنى السلام:

– السلام عليكم ، فرفعت رأسى ونظرت إلى من ألقى على السلام وكان هو قارى اشكمبة ، وكان ينظف أسنانه بخلال أسنان أقتطعها من شجر الطرفاء وبراها ويمسك بفتات الطعام الذى أخرجه من بين أسنانه والعالق بأطراف الخلال ، وأخذ ينظر إليها ثم يلقى ثانية هذه الفتاتات فى فمه ويبتلعها ومن فرط غضبى بسبب سوء ظنه الواهى فى حقى فقد أجبت سلامه بغير اهتمام وعدت إلى الغوص فى أفكارى.

– (ما أعجب هواء فناء مدرسة كوكلتاش وأطيبه) قال هذا وجلس بجوارى فلم أجب كلامه هذا بالتصديق أو الإنكار.

فقال بصوت لطيف : أخى ربما لك مصلحة عندى لأنك تتعقبنى منذ أيام:

– كنت أريد أن (أفهم كم عندك من المال وأين تحتفظ بها ثم أسرقها أنا واللصوص من أهل غجدوان). قلت كلامى هذا بفظاظة شديدة.

– لا يعيب الإنسان أن يسوء ظنه بإنسان آخر يتعقبه ولا يعرفه ولكنى لما تفحصت وفتشت وسألت وتبين لى أنك طالب مستقيم وصالح أردت أن أعتذر إليك ورأيتك الآن هنا وأنا أجلس بجانبك الآن لهذه النية وأرجو أن تغفر لى سوء ظنى . قال كلامه هذا بلهجة معتذرة فى الحقيقة.

فلم أقل شيئًا فى جواب كلامه هذا ولما فهم هو من شكلى وزوال آثار الغضب والحنق من عينى ووجهى أنى قبلت عذره أضاف بلهجة حادة قائلاً .

– لا ضرر من أن أنبهك إلى حالتى ، أنا لست رجلاً ثريًا كما يعتقد الناس ولو حصلت على بضعة نقود من أجل نفقات أهلى وعيالى فأنا لا أبقيها فى منزلى بل أودعها عند أحد الناس كأمانة وحين تعن الضرورة والحاجة آخذ من هذا الرجل المبلغ المطلوب وأنفقه.

ففهمت من كلماته الأخيرة أنه لا يـزال يرتاب فيّ لكنني لم أر من المناسب جدال هذا الرجل الذي حل في طبعه سوء الظن كمرض مزمن دائم واعـتبرته كما ذكـر فقيراً معـدماً ، ولـكي أزيل الشـك عنـه قلت له : كنت أبحث عن مكان للإقـامـة به وأخـبـرني أحـد أصـدقـائي أنك اشتريت بضع غرف ولهذا كنت أبحث عنك وأجد فرصة سانحة لأطلب منك غرفة لكني سمعت أنك أسأت الظن بي بسبب تعقبي وبحثي عنك فقلت (تركت عطاءه بسبب لقائه) وأنهيت كلامي بلهجة تنم عن الهزل.

فقال بصوت جاد مضيفًا : ليس لدى غرف اشتريتها لأني ليس عندي نقود في الأساس صحيح أنني أملك بضع غرفات لكني ورثتها عن أبي المرحوم.

وصمت قاري اشكمبة هنيهة بعد إثبات فقره ومسكنته بهذه الطريقة مرة أخرى ثم عاد إلى الكلام وسألني:

– هل وجدت غرفة أو لا تزال بغير إقامة حتى الآن؟

– لم أجد حتى الآن غرفة !

– فعاود السؤال : لو وجدت غرفة فهل تطبخ فيها طعاماً كل يوم؟

– فلاح بسبب تساؤله هذا في خاطري احتمال أنه ليس لديه غير غرفة غير مزودة بمدخنة وموقد ولهذا يستفسر مني عما إذا كنت أعد الطعام أو لا أعده في الغرفة المطلوبة وإذا علم أنني لا أطهي طعاما فلعله يعطيني هذه الغرفة . فأجبت سؤاله آخذاً في حسباني هذه النقطة (يمكنني أن آخذ غرفة بلا مدخنة وموقد لأنني لا أطهو قط طعامًا ويمكنني أن أعيش فيها بدون طبخ).

فقال هازلاً : (لكن عندى غرفة مزودة بمدخنة وموقد يمكنه طهو أرزًا باللحم والمرق لشخصين فى اليوم الواحد) ثم واصل كلامه بصوت جاد : (لدى غرفتان أعطيتهما لاثنين من الطلاب على أساس هذا الشرط وهو أن يطهو كل منهما هذا الأرز الذى يكفى شخصين ، يعد أولهما طعامه فى الحادية عشرة قبل الظهر ، ويعد الآخر طعامه قبيل صلاة العصر وآتى أنا كل يوم فى الوقتين المحددين وأتناول الطعام مع كل واحد منهما) .

فسألته قاطعًا كلامه : (هل يمكنك أن تأكل الأرز باللحم والدهون مرتين فى اليوم الواحد؟) .

فأجابنى مداومًا حديثه الأصلى : (يمكننى أن آكل أربع أو خمس مرات فى اليوم لو وجد ذلك وأمكن) وأحد هذين الطالبين يعد الطعام وفق الشرط كل يوم بلا استثناء فى الوقت المحدد ، أما الآخر فهو مخادع فأحيانًا يقفل غرفته ويهرب فلما قابلته بعد إحدى هذه المرات أغلظت له القول فرد علىّ : (لم يكن عندى نقود لشراء الأرز واللحم) أو (أنا نفسى كنت مدعوًا فى مكان آخر) مقدمًا بذلك أعذار كاذبة ، بينما لا تساوى هذه الأعذار فى عالم التعامل بالنقود الجارية قرشًا أسود وفى السنة الماضية لم يعد طعاما أربع مرات معتذرًا بمثل هذه الأعذار..) .

وتوقف قارى اشكمبة عن حديثه وأخذ ينظف ما بين أسنانه بخلال أسنانه الحادة الأطراف لكنه فى هذه المرة خرجت خلال أسنانه دامية الأطراف بدلاً من خروجها بفتات الطعام فأخذ يبصق حتى نظف فمه من الدم واستأنف حديثه :

والآن فأنا قادم من عند نفس هذا الطالب المخلف وعده وقد أكلت طعامه ، لم يعد طعامه بالأمس وركن إلى الفرار واليوم كان طعامه قليل اللحم والدهن فقلت له مهدداً : (لو سلكت هذا التصرف مرة أخرى فلسوف أطردك من الغرفة) ، أما أنت فإذا تعهدت بإعداد طعام الأرز باللحم وتضيفني لتناوله معك مرة كل يوم فلسوف أطرد هذا الطالب من غرفته وأعطيها لك فما قولك ؟

رأيت من العار أن أكشف أمام هذا الرجل الممسك فقرى وقلة مالى لأن الفقراء والمساكين فى نظر الأغنياء هم أسفل الناس وأدناهم ؛ وعليه فلم أفش له سرى هذا وأجبته بهذا الجواب الكاذب :

– وعدنى أحدهم بالأمس بأن يعطينى غرفة بالمجان فإذا لم تتيسر لى هذه الغرفة فسوف آخذ منك غرفتك وليس إعداد وجبة لشخص واحد يومياً أمراً صعبا ولكن إذا وجدت غرفة مجانية فهى أفضل.

فقال قارى اشكمبة : بالطبع كل إنسان يأخذ فى حسبانه مصلحته قبل كل شىء ثم أضاف :

– حسنًا ، إن غرفتى جاهزة على نفس الشرط المذكور ، وأدعو الله أن يهيئ لى من يأخذ الغرفة من الطلاب بهذا الشرط ، فأنا رجل مسكين وأمضى حياتى اليومية بتناولى الطعام بهذه الطريقة فأنا لست ثريًا كما يظن الناس.

وانتهت مقابلتى الأولى التى تعرفت فيها عليه بهذا الحوار ، وبعد ذاك اليوم كان كلما قابلنى فى الشارع يسألنى : هل وجدت مسكنًا ؟

– أجل وجدت .

– هل تعرف واحداً يبحث عن سكن ؟

– لا ، لا أعرف .

وكان حوارنا على قارعة الطريق ينتهى بهذه النهاية ، لكن هذه الأسئلة منه والإجابات منى كانت تتكرر ثلاث مرات فى اليوم الواحد الذى أقابله فيه ، ولا يقطع أمله قط من أن يجد بواسطتى ساكنا (يقوم بالواجب ويعد الأرز كل يوم فى ميعاده المحدد)٠

(٧)

كان التنزه والتجول يوم (النيروز) بأول السنة الشمسية القادمة يقام كل عام فى بخارا فى الحديقة الملكية ، وكان فى أماكن النزهة ضمن صفوف المطاعم العادية التى كانت تبيع الطعام الجاهز المتنوع للآكلين تفتتح أيضًا مطاعم تؤجر أدوات الطبخ من الأوانى والأطباق لمن يريد أن يعد طعامه بنفسه ، وكان أصحاب هذه المطاعم الخاصة يقيمون خيامهم وسرادقاتهم وأخبيتهم وينظمون أمامها صفوفًا من المواقد ويعدون الأوانى والأطباق كما يجهزون الوقود والحطب وينتظرون جالسين الزبائن فيأتى المتنزهون بمتطلبات الطعام يشترونها هم أنفسهم ويستأجرون متطلبات الطبخ ويعطون أصحاب هذه المطاعم نقوداً مقابل استئجارها.

وفى أحد أيام التنزه بأيام النيروز طلبت مجموعة من رفاقى من أحد هذه المطاعم أوانى طهو الطعام وكنت أنا القائم بإعداد الطعام ، وذهب الرفاق بعد قطع اللحوم وشراء السمن والبصل والخضروات إلى التنزه والفسحة وبقيت أنا لأقوم بإعداد الطعام.

وكنت مشغولاً بتسخين السمن وتحمير اللحم والبصل حين ظهر قارى اشكمبة وبعد أن سألنى بشأن استئجار غرفته أو عدم استئجارها استفسر عن هوية رفاقى فذكرت له مجيباً عليه بأسماء أكثرهم شهرة ،

فقال مـارًا من أمامى ليدخل المطعم المجاور للمطعم الذى أقوم بالطهو فيه : كلهم معارفى.

ولأن تلك المطاعم كانت منصـوبة من الخيام والسرادقات فلم يكن جدران حـاجـزة لها لـذا فـقـد كـان يشـاهد من إحـداها مـا يجـرى فى الأخـرى ، وتقـدم قـارى اشكمبـة إلى المطعم المجـاور إلى مـجـمـوعـة من الصحبة وجلس معهم ، وكانوا يجلسون مترقبين غرف الطعام لهم .

وكنت قـد وضـعت الأرز فى هذه الأثناء فى آنيـة الطـهـو وقـارب أن يتـشـرب مـاءه وأخـذت أزكى النـار تحـتـه ، وأتـى رفـاقى وتحلقـوا تحت الخيمة وجلسوا ، فى هذا الوقت كان طعام المجموعة التى جعل قـارى اشكمبة من نفسه (شريكًا) لهم قد تم غرفه فى أطباق ، وأخذ كل واحد منهم طبقه وانشـغل بالتـهـام طعـامـه ولم يكن أحد منهم يرفـع رأسـه من على طبقه ، لكن قارى اشكمبة كان يدير رأسه إلينا بعد كل لقمة كان يلقيـهـا فى فمـه حتى يعرف هل انتـهيت من إعداد الطعـام أو لا يزال أمـامى وقت ؟ وأعددت طعامنا وغرفت لكل من المجموعة طعامه وأبقيت فى الآنية التى استأجرتها نحو مغرفتين لصاحب المطعم هدية وملأت لكل واحد من رفاقى طبقًا من الأرز ووضعته أمامه .

ولما رأى قارى اشكمبـة أننى غرفت الطعـام ووضـعتـه أمـام الرفـاق نهض من بين المجموعة التى كان جالسًا فيـهـا ، ويبدو أنه كـان لا يزال بآنيتـهم لقمة وحيدة من الأرز لأنه انحنى ثانية وجمعـها بيده وأفرغـها فى فيه وتقدم إلى مجموعتنا بعجل وكان سمن الأرز الذى اختطفه يتقطر من بين أصـابعه وجلس بدون سـلام أو كلام أو اسـتفسـار ومـدّ يده إلى آنيـة

الأرز أسبق من الجميع ، كان بين رفاقنا شاب أبوه كان أحد الأثرياء المتـوسطى الحـال في بخـارا ، وكـان ابن هذا الثـرى أو (البـيـه) من أصدقائى القدامى ومعروفًا بالمزاح والسخرية من قارى اشكمبة أيضًا ، وحين جلس قارى ضمن حلقة مجموعتنا قال له هذا الصديق :

– ألا نستطيع التخلص منك يا عم الشيخ ، إنك تظهر فى كل مكان أكون فيه كأنك أحبال بخارى التى تلتف بسرعة حول قدم السائر !

– لقط الفـواضل من الطعـام ، أقـوم به منكم يا بن البيـه ، إنه لقط الفواضل ، عمل الرجل المسكين هو لقط ما يتفضل من أكل ، ولا ينقص شيء بسـبب لقطنا الحب الفـاضل نحن الفـقـراء من مـحـصـولكم أيهـا الأغنياء .

فسأله ابن البيه : كنت تسمى طعامنا فى منزلنا (ولد الولد) وتأكله والآن ماذا تسمى طعامنا هنا حتى تأكله ؟

فـقـال قـارى وفـمـه يغص بالطعـام وكـلامـه يكاد لا يفـهـم (ولد ولد الولد) ألقطه من حولكم .

ولم يشأ قارى اشكمبة بعد هذا الحوار القصير يجيب عن سؤال موجه له ولم يرفع رأسه عن طبقة ، فتح باسطًا أصـابع يده وأخذ يكور الطعام كرات ضخمة ويلقيها بسرعة إلى فمه بما فيـها من قطع اللحم والدهون كأن كل لقمة فى فيه دفعة ماء تسقط من بحر متلاطم فى بئر هاوية وأخذت تظهر فـجوة عميقة وسط الطعام فى الطبق الكبير ، وكان فمه يغص بالطعام إلى حد أن حبات الأرز كانت تتناثر مع قطرات لعابه فوق الطبق الكبير حين كان يمضغه أو يأخذ أنفاسه .

ولما رأيت هذا المنظر توقفت عن تناول الطعام بل لم تعد بى قدرة على النظر صوب الطعام وقصر الآخرون أيديهم عن تناول الطعام من أطراف هذا الطبق مشمئزين واكتفوا بأخذ القليل من الأرز من أسفل الطبق مبتعدين عن المواضع التى أصابها رذاذ لعاب قارى .

وكان حلقه يغص أحياناً بالطعام ولم يكن ينزل من حلقومه بسرعة فكان إذ ذاك يتناول كوب الماء بيده الشمال دون أن يرفع يده اليمين من فوق الطبق ويشرب قدراً من الماء لينزل به الطعام المحتجز فى حلقه .

فقلت له : يلزمك يا عم الشيخ عصا الحشو لكى تستطيع أكل الطعام .

فتضاحك بخفوت لكلامى هذا ولم يجب لأنه لم يكن يقوى على الكلام بسبب امتلاء فمه فسألنى أحد الرفاق : لأى شىء هذه العصا ؟ فأجبته : لإمرار الطعام المحشور من الحلق إلى الجوف .

فقال رفيق آخر : الماء أفضل للماء من عصا الحشو هذه .

وفى النهاية أتى قارى اشكمبة على جميع ما فى الطبق من طعام وسرعان ما نهض من مكانه ودلك يده المدهونة بالدهون فى ممسحته ونظفها وخرج من المطعم منصرفاً .

التهبت أدمغة كل رفاقى بسبب هذا الضيف المتطفل المقرف ، وكانت دماغى أكثر احتراقاً من الجميع لأنى أعددت طبيخاً فى غاية الإتقان وتعبت فى إعداده تعباً كثيراً ثم حرمت منه تماماً وكنت جائعاً جداً . كما أن آخرين لم يشركونا فى تناول الطعام وبالإضافة إليهم كان

آخرون أيضا لم يتناولوا منه إلا قدرا قليلاً وسكنوا جوعهم قليلاً • وفهم ابن الثرى هذا الذى سبب كل هذا الألم بمعرفته بقارى اشكمبة غضبى منه فنهض من الحلقة وتوجه إلى صاحب المطعم • وكان صاحب المطعم لم يفرغ بعد ذاك الطعام الذى أبقيته فى إحدى الأوانى كهدية فأعطاه هذا الرفيق الثرى نقوداً ثمناً له وأحضره فى طبق ووضعه أمامى ، لكن شهيتى للطعام قد خمدت بسبب ما رأيته من هذه المناظر المؤذية ، ولم تعد لى رغبة للأكل ، لكنى تناولت بضع لقيمات إرضاء لرفاقى وقدروا هم ما قمت لهم من إعداد متقن للطعام حتى يزيلوا ما بى من غضب فسكن غضبى على صديقى هذا بسبب مدحهم وإطرائهم على فأقبلت عليه بوجه منطلق لأسأله :

- أين قابلت هذه السوسة الفظيعة وأقمت معرفة به ؟

فقال : سبب علاقتى بهذا الرجل يرجع إلى عهد بعيد وطويل وسوف أحكى لك عنه فى وقت آخر•

فقلت : لم أفهم معنى (ولد الولد) و (ولد ولد الولد) فى كلامه وكنت سمعت هذه الكلمات فى مرة سابقة من هذا الرجل ولم أفهم معناها فأكشف لى معانى هذه الكلمات الغامضة وإذ ذاك سوف أسامحك على ما فعلته وعلى ما فعله •

- هذا الرجل مرابٍ ويسمى فائدة المال أو الربا (ولْد المال) ويسمى الفائدة على فائدة المال (ولد ولد الولد) ، ثم انطلق (ابن البيه) يشرح كلامه هذا بقوله :

– على سبيل المثال يقوم هذا الرجل بإقراض شخص ما مالاً بفائدة ويأخذ منه مع المبلغ المقترض الفائدة على وفق شرطهما ويسمى « ولد المال » ، وأثناء فترة إقراض هذا المقترض يذهب إلى منزل المقترض ويأكل طعامه ويسمى هذا الطعام (ولد ولد المال) لأنه يعتقد أنه فائدة على فائدة المال المقروض ، وفى بعض الأحيان يأخذ من المقترض بالإضافة إلى الطعام المقرر عن كل يوم شيئًا آخر مثل شمامة أو عنب أو حلوى ويسمى ذلك (ولد ولد ولد المال) أى فائدة فائدة فائدة المال المقروض .

(٨)

بعد مرور بضعة أشهر عن حادثة التنزه أيام النيروز أتى (ابن البيه) أيام الشتاء على غير موعد بعد الغروب إلى غرفتى وقال :

– أنا لدى الليلة مصلحة مع قارى اشكمبة وعلىّ أن أذهب إلى منزله فى العاشرة مساء من أجل هذه المصلحة وبسبب أن السير ليلاً فى أزقة بخارا مخيف فأرجو منك أن تصحبنى فى ذهابى له .

فقلت قاطعا كلامه: على حسب ما سمعت فإن قارى اشكمبة لا يستقبل أحداً فى منزله ليلاً .

– هذه المصلحة أكثر فائدة له منى ؛ ولهذا طلب منى أن أقابله فى منزله فى هذا الموعد .

– أنت لديك خادم ولك أب ولك أخوة ومع هذا تريدنى أن أصاحبك للذهاب إلى منزله وأنا أنفر من وجهه الشؤم الذى يشبه البومة .

– السبب فى ذلك أنى أخفيت هذا الأمر عن أبى وأمى وأخوتى ولدى خادم يحفظ السر ويعلم هذا الأمر لكنه أصيب بالمرض وذهب إلى منزله ولأنى لا أطمئن إلا إليك وأعلم أنك سوف تحتفظ بسرى لهذا توجهت إليك .

– الحكاية تتلخص فى أننى اقترضت من هذا المرابى بدون أن يعلم والدى مبلغ ألف تنجة بالفائدة ، وأريد الليلة أن أوصله ذاك المبلغ ويسبب أن ما حدث كان خافيا فلابد أن أصل إليه بالليل وليس بالنهار حتى يظل سره خافيا فقلت مجيبا رجاء (ابن البيه) : (حسنا) ، ثم أضفت : إن الذهاب إلى منزل قارى اشكمبة بالنسبة إلى يجلب المرض ومع هذا فسوف أصحبك إليه لأنهم قالوا : (الموت من أجل الأصدقاء فرح).

خرجنا إلى الطريق قبل العاشرة مساء وكان الجو ليلتها مظلمًا مغيمًا بالسحب وبلا قمر ، وكان السير فى الأزقة الضيقة والمتعرجة والتى تعدم القناديل فى بخارا فى الليالى المظلمة أمرًا شاقًا ، والحمد لله أن الثلج كان يتساقط وكان بياضه يزيل شيئًا من ظلام الأزقة بنوره الذى يشبه نور القمر الباهت واستطعنا أن نميز نجاد الطريق من وهاده والأبواب من الحيطان بالنور المنعكس من بياض الثلج وأن نواصل سيرنا ، وكنا على وشك الوصول إلى(شارع الدباغين) حين ظهر قائد دورية الليل فى عقبنا ، كان يمتطى صهوة جواده وكان جنوده يقرعون طبولهم أمامه ويصيحون ، وفى العادة كان قادة الدورية لبخارا يخشون اللصوص فلا يقتربون منهم أثناء الليل لكنهم يقبضون على الصالحين من الناس فيتقاضون منهم مالاً ويتركونهم أو يودعونهم الحبس ؛ ولهذا كان موقفنا صعبًا فلم نكن بإمكاننا الهرب لأن هؤلاء الجنود سوف يدركون أننا لسنا من اللصوص فيتعقبوننا ويقبضون علينا ، ولا نستطيع أيضًا أن نواجه قائد الشرطة لأنه سوف يفهم منا أننا لسنا لصوصًا ويتعرف علينا فنضع أنفسنا تحت طائلته ، وكان ابن البيه يرتعد خوفًا

فى ذاك الوقت فلو وقعنا فى يد قائد الدورية فلسوف يضطر إلى أن يعطى سائر المال أو بعضه له وكان المفروض أن يسلمه لقارى اشكمبة ويتخلص من دينه أو يخفى سره وماله ويؤثر أن يدخل الحبس فينكشف سره على أبيه ونويه .

لكنى طمأنته وشجعته وطلبت منه أن يتعقبنى ، أما أنا فقد أخذت أسير خلف جدران المنازل بغير وجل وبيطء ، ولما وصلنا إلى سويقة باعة البوبيات اقتربت إلينا فرقة قائد الدورية فاستترنا بظلمة الممر المسقوف إلى أن وصلنا إلى مصطبة أحد الدكاكين فصعدنا عليها واختبأنا خلف عمود الممر المسقوف وانتزعت من مصطبة الدكان حجراً كبيراً ووقفنا مستعدين لأى احتمال.

واكتشفت الدورية اختباء نا بأسفل الممر المسقوف ولكى تحدد هويتنا هل نحن من اللصوص أو من غير المتهمين صاح أحدهم بصوت عال :

– من أنت ؟

وبدلاً من أجيبه قذفت بالحجر نحوه فى الهواء ففطن القائد وجنوده إلى أننا من اللصوص ، فحوّل القائد – وكان حتى ذاك الوقت واقفًا وراء فرقته – عنان فرسه بدون تفكير نحو الزقاق الخلفى لسوق (انكشت) وتوجه منه نحو الميدان وسلك طريقه إلى جنوده ، وسكت أتباعه عن قرع الطبول فساد المكان الصمت والهدوء وأسرعوا يجدون السير خلف قائدهم وبعد ابتعاد دورية القائد خرجنا من خلف العمود بأسفل الممر

المسقوف إلى عرض الطريق ، وعبرنا من أمام حوض النافورة بشارع الدباغين ودرنا شمالاً إلى الزقاق الخلفى المقفول ، ووصلنا أمام منزل قارى اشكمبة اشترط ابن البيه أن أقف ملتصقًا بجانب بوابة منزل قارى ولا أرفع صوتى ولا حتى صوت خطواتى قائلاً : لو أدرك قارى اشكمبة أن معى مرافقًا غريبًا فسوف يرتاب فى الأمر ولن يفتح بوابة منزله ، فوقفت وفق إشارة ابن البيه ملتصقًا بالجدار ومختبئًا بجانب البوابة وطرق هو البوابة .

ويبدو أن قارى اشكمبة كان قلقًا بشأن مجىء ابن البيه لأنه كان واقفًا فى دهليز المنزل لأنه صاح فور سماعه صوت طرق البوابة : (من أنت ؟) .

– أنا معرفتك يا عم الشيخ ، افتح

وفتح قارى اشكمبة البوابة لكنه لمح أمامه بجوار ابن البيه ظل شخص آخر فصاح متلهفًا وتقهقر وأراد قفل البوابة ، لكن ابن البيه لم يدعه يقفل بوابته فدفع بساعده البوابة وأبقاها مفتوحة وتجاوزها داخلاً ثم قال :

– لا تخف يا عم الشيخ إنه تبعى ثم نظر إلى وقال : ادخل . فدخلت أنا أولاً من البوابة ثم تبعنى ابن البيه ولما دخلنا أقفل قارى البوابة ووضع عليها قفله .

كان ممر المنزل ضيقًا ومظلمًا . وعرفنا من تحسسنا طريقنا أن هناك بابًا آخر ويبدو أنه كان بداخل المنزل ، لكن قارى اشكمبة لم يعمد

إلى هذا الباب ليفتحه بل اتجه إلى باب آخر يفضى إلى سلم صغير ففتحه وأخذ يصعد هذا السلم وكان ضيقًا ومظلمًا وطلب منا أن نصعد فى عقبه .

وأخذنا نصعد السلم ونحن نتحسس بأقدامنا درجاته ودربزينه بأيدينا وكان بأعلى المنزل واجهة منزل صغير ضيق بنى بأعلى الدهليز ، وكان يظهر كل ما فيه بسبب امتلائه بالثلج وكان فى مواجهة نهاية السلم ومتصلاً بهذا المنزل الصغير يقع حجرتان صغيرتان لهما بابان . كما بنى نصف ايوان صغير يقع بين رأس السلم حتى مدخل هاتين الحجرتين العلويتين بجانب واجهة المنزل الصغير العلوى دخل من تحته قارى وفتح باب إحدى الحجرتين الصغيرتين وأمرنا بدخولها وراءه .

فتقدمنا بدورنا ودخلنا الحجرة لكن لم يكن بها شىء يمكن رؤيته ولا مكان يصلح للجلوس ، أما صاحب المنزل فتدحرج يبحث أمام الحجرتين ويلف ويدور فصاح فيه ابن البيه مستفسراً : ماذا تفعل عندك يا عم الشيخ ؟

فقال مجيبًا إياه : كنت أبحث عن المصباح ووجدته ، ثم أضاف : هل معك كبريت ؟

فقال ابن البيه بعد بحث فى جيبه ومحفظته : (ليس معى كبريت!)

زدت أنا على قول ابن البيه : (وليس معى أنا أيضًا كبريت) .

ولما سمع قارى اشكمبة جوابنا أخذ يدق سطح الحجرة بقدمه فسألته : لماذا تفعل ذلك يا عم الشيخ ، هل وقفت عندك لكى ترقص؟ فأجاب :

– تحت هذه الحجرة قاعة جلوسى الداخلية ، وسوف يسمع طرق قدمى أحد فيصعد من الدار ويساعدنا فى إنارة المصباح.

ولم تمر فترة طويلة فى الواقع حتى سمعنا صوت أقدام تصعد درجات السلم.

فقال قارى إلى الشخص الذى ظهر بأعلى السلم : هات مصباحك لكى أنير منه هذا المصباح .

فسأل رفيقى صاحب المنزل : لماذا تريد إحضار مصباح ولم تطلب كبريتًا لإنارة مصباحك ؟

فأجاب قارى : لكل نفقات معيشتى حدود محدودة ، وبناء على هذه الحسبة فلا يجب أن نستهلك فى منزلى أكثر من عود ثقاب لليوم الواحد نهاره وليله ، ولابد أن يوقد بهذا العود بأول النهار غلاية الشاى ، ثم يوقد منها طوال النهار والليل النار والمصابيح الأخرى ، ثم أضاف : ويظن الناس أن المال القليل الذى لدىّ جمعته من الفوائد والربا وهذا ظن خاطئ ولكن كل شيء لدى جمعته بالتوفير والاقتصاد وقيل فى المثل (ربح التاجر فى الهند فى توفيره فى إشعال النار) ، فقلت أثناء الصعود بالمصباح والمجيء به ، وقد أخذ الثلج يتساقط إذ ذاك : (لو انكسرت زجاجة المصباح فسوف تتضاعف نفقات البخيل) – فقال قارى : (إن خسارة كسر الزجاجة يتحملها مَن يمتلك مصباحها ولا دخل لى فيها ولهذا فلم أرسل مصباحى من أجل إشعاله إلى الطابق الأرضى وطلبت أن يصعدوا بالمصباح من أسفل إلى).

فسألته بعجب : ومن صاحب المصباح بالدور الأرضى ؟

فقال مجيبًا وشارحًا : المصباح ملك زوجتىّ . وزوجتاى تغزلان الطواقى وأنا أعطيهما مقدمًا المصباح وزيته اللذين تستخدمانه أثناء غزلهما الطواقى على أن آخذ نصف الفائدة خالصة من ناتج حرفتهما هذه فيما بعد ، لكنهما كانا أكثر وعيًا منى بالحساب فقالتا : (ماذا تصرفه فى النور حتى تأخذ مقابله نصف أجرة تعبنا؟) وبعد ذلك احتسبنا كافة نفقات الإنارة ضمن حسابهما واكتسبتا كافة الفائدة لهما من ثمن الطواقى فيما بعد.

– هكذا الحال ! كل هذه المشقة التى تتكلفها فى بيع الطواقى بثمن مرتفع ليس هدفها مصلحتك بل لمنفعة زوجتيك ! (وكنت أتذكر عند هذا الحوار معاملته التى كان يتعامل بها مع بائعى الطواقى أمامى) . لكن يظهر من رأيك وفكرك الذى أظهرته عن احتمال تحطم زجاجة مصباح زوجتيك أنك لا تفكر فى منفعتهما ولا تفكر إلا فى مصلحتك فما سبب هذا التضاد فى تصرفك ؟

– أنا لاحظت فائدتى وحسب فى هذه النقطة وسوف أشرح لك ذلك : إن الطواقى التى تغزلها زوجتاى آخذها أنا بسعر الجملة والواحدة بسعر التكلفة ، ثم أحملها إلى السوق لدى باعة الطواقى الذين أعرفهم وأبيعها لهم بسعر القطاعى والفرق بين سعر التكلفة وسعر القطاعى يعود بفائدتى.

فقال ابن البيه : فى هذه الحالة أنت تاجر الجملة ؟

فأجاب قارى : نعم ، أنا التاجر البائع بالجملة ، لكن تاجر الجملة الذى لا يخسر ماله عند تأخر بيع بضاعته والذى ينجو من مشقة الجلوس فى الدكان وتعب المعاملة مع الزبائن ، إننى تاجر الجملة الذى يحصل على فائدة خالصة وبالمجان تماما ·

وفى هذا الوقت صعد شخص بمصباح منار ووضعه بأعلى السلم فتقدم قارى وأحضر هذا المصباح إلى الحجرتين العلويتين ، وبعد أن خفض قليلاً شريطها المشتعل أمسك زجاجة بيده ووضعها على الأرض · لكن الزجاجة كانت ساخنة كثيرا فأحرقت يده بشدة فصاح (آه ، آه يا يدى) وقرب أصابعه من فمه وأخذ ينفخ فيها وهو يحاول أن يبرد احتراق أطراف أصابعه ويهدئ من ألمه·

فقلت له بلهجة متأسفة حزينة : ولماذا تمسك الزجاجة الملتهبة بيدك؟ كان عليك أن تمسكها بكمك أو منديلك ! فقال قارى وهو لا يزال ينفخ فى أطراف أصابعه:

– الحمد لله أننى لم أمسكها بمنديلى وإلا تمزق كمى أو منديلى وانتهيا ، ولن يتحمل خسارتهما أحد غيرى فأصاب بضرر عظيم · لكن يدى حين تحترق فعلاجها فى نفسها فهى تخف من نفسها ويذهب ألمها ولا أصاب أنا لا بأذى ولا بخسارة··

– وبعد أن سكن قارى اشكمبة ألم احتراق أطراف أصابعه قليلاً رفع طرف كليم المنزل وأخرج من تحته عودا قصيرا من الحصير وأشعله من المصباح الذى بلا زجاجة الذى أتت به زوجته وأشعل مصباح الحجرتين العلويتين ثم ركب الزجاجتين على المصباحين ، وبعد أن وضع

مصباح زوجته بأعلى السلم ، أتى بمصبـــاح الحجرتـــين ووضعــــه فوق كرسى .

كان المصباح عتيقا وأخذ ضوءه يتراقص بضعف كالسراج الصغير الموضوع فوق ضريح وكان ينير الأركان بنور باهت. ومع هذا استطعنا أن نرى كليم الحجرتين وفرشهما . فقد بسطت على الأرضية وغطتها لبادة عتيقة جدا . وكان يغطى (الكنبة) الوحيدة بالحجرة فرش لا يفترق كثيرا - بحد قول قارى اشكمبة - عن مرشحة الحمار التى تكون أسفل برذعته . أما المسند الضئيل الذى كان موضوعا فى ظهر الجالس على الكنبة فقد كانت أشد قذارة من فرشتها ، وكانت تبدو فى نظر الإنسان كأنهـا مرشحـة وضعـت فـوق ظهـر يمتلـئ جراحا لأحد الحمير .

- تفضلا بالجلوس ! قالها قارى لنا حين كنا لا نزال واقفين وسط الحجرة وأشار إلينا نحو الكنبة للجلوس .

ومن أجل أن نحفظ جسمينا بعيداً عن قذارة الكليم المبسوط بأرضية الحجرة لففنا أنفسنا جيدا برداءينا ، وجلس كل منا على مسند الكنبة وما إن مددنا أقدامنا لكى ندفئها إلى أسفل الكنبة كأننا مددناها إلى داخل ثلاجة طويلة فاضطررنا إلى سحب أقدامنا أسفل منا وجلسنا متربعين ، كانت البرودة المنبعثة من أسفل الكنبة المزودة بمدفئة لا نار فيها أشد قروصة من الأرضية المفروشة بالكليم بحيث كان داخل الكنبة برداً عن خارجها .

فقال ابن البيه لصاحب المنزل : هل وضعت بأسفل الكنبة ثلجًا بدلاً من النار حتى قرصت قدماى تحتها من البرودة؟!

فأجابه قارى : هل البرد بهذا الحد الذى يؤثر به على قدم الإنسان ؟ الآن فهمت أقصى درجة رقة أقدام أولاد البهوات.

فقلت له : إن قدم ابن البدو الفقراء الذى تعلم درجة رقتها لا تستطيع السير أيضًا فى أيام أقصى برودة الشتاء حين يتراكم الثلج المتساقط شبرًا ويدخل الثلج إلى داخل أحذية السائرين ، بل إن قدم الجمل نفسه لا تستطيع مقاومة البرودة. أخرج إلى الحى وامش فى شارع أو شارعين فسوف تفهم إذ ذاك مبلغ تأثير البرودة فى أقدام السائرين.

فقال قارى اشكمبة : أتيت حالاً من الشارع ولم أسر فى شارع أو اثنين فقط بل طفت فى نصف المدينة ولم يكن بقدمى غير حذاء وجورب ممزق ومع هذا لم تتأثر قدمى بالبرودة ومن هنا يظهر أن قدمى أشد قوة من قدم الجمل وأكثر تحملا منها للبرودة.

فقال ابن البيه : بل يظهر أن قدمك تشبه قدم الفيل السميك الجلد الضخم.

فأضفت قائلاً : يقول المثل : (ما يخز فخذ البقرة لا يخز قدم الفيل) ثم عاودت سؤال قارى اشكمبة بعد ذلك : وماذا كنت تفعل فى كل تطوافك هذا لشوارع المدينة؟

– ماذا كنت أفعل ؟... ذهبت إلى منازل معارفى وأكلت طعامهم وشربت شايهم وإذا لم أكن وعدت ابن البيه ما عدت قبل ساعتين آخريين

ودخلت فى منتصف الليل منازل أولئك الذين يتأخرون فى إعداد طعامهم لكى أنال نصيبى المعتاد منه.

فسألته : ألا تأكل قط طعامًا فى منزلك ؟

فأجاب : مطلقًا ، ما دام الطعام والخبز جاهزين فى منازل الأصدقاء ، لماذا أنفق مالى الذى أتحصل عليه بكل المشقة فى طبخ الطعام وإعداد الأوانى وتلويث المنزل بالدخان ؟ قد قال العقلاء : (لا تحمل هم الماء ولا هم الوقود يا عزيزى فهناك بيوت الناس) ، وكأنه صدر عنه خطأ عن غير قصد فقد غير لجته دفعة واحدة وأضاف : لا ، إنى كذبت ، إننى آكل طعامًا فى منزلى مرتين كل عام.

فقال ابن البيه : أنا لا أصدقك ، أنا لا أصدق مطلقًا أنك تنفق حمالاً لتعد طعاما فى منزلك لتأكله !

- أنا لا أنفق مالاً ولا آكل طعاما مطبوخًا. قالها قارى اشكمبة وهو يمد صوته فى نطقه آخر كلمة (لا آكل). ثم شرح قوله هذا : إن زوجتىّ تعدان من مالهما الخاص طعامًا مرتين فى العام فى شهر المحرم وشهر رجب وتدعوان قراء القرآن ليختما القرآن على روحىّ والديهما ولأن ليس لدينا أولاد أو مساعدون فأنا أحمل بنفسى الطعام إلى القراء وأشاركهم فى أكله.

فقال ابن البيه : إنك نفسك قارئ للقرآن فلماذا لا تختم القرآن لزوجتيك وتأخذ نقودهما لنفسك ، ولماذا تسمح بأن تخرج هذه النقود من منزلك وتدخل جيوب الغرباء ؟

– أنا أريد بشق النفس أن أقوم بهذا العمل لكن زوجتيّ الغزيرتي الشعر القليلتي الفكر لا يسمحان لي بذلك قائلين : (إنك سوف تخادع الله أيضًا ولن تقرأ القرآن وتأخذ النقود) ثم أضاف قارى اشكمبة : لكن وجدت حلاً لإدخال جزء من هذه النقود إلى كيسة نقودي.

فسألته : وكيف ذلك ؟

– عادة تدعو زوجتاي لختم القرآن ثلاثة من القراء ثم تعطياني لكل منهم ورقة ملفوفة بها سبع تنجات لأعطيها للقراء ، فأقوم أنا بفتح هذه الأوراق الملفوفة وأنا سائر في الممر وآخذ من كل ورقة تنجتين ثم أعيد طوي الأوراق وألفها كما كانت في البداية وأسلمها للقراء ة هكذا يأخذ كل واحد من هؤلاء القراء خمس تنجات وآخذ أنا ست تنجات .

فقال ابن البيه: بل قل : (سرقت ست تنجات من حق القراء !)

فقال قارى اشكمبة ثائراً : هل ما أقوم به سرقة؟! لو كان هؤلاء القراء يقرأون القرآن ويأخذون مقابل ذلك نقوداً منهم فأنا أقرأ أكثر وأفضل منهم القرآن على روحيّ والديهما وأهب ما قرأته لهما وآخذ نقوداً على ذلك ، ولا تعلم زوجتاي الحمقاوان بفعلي الطيب هذا ولا يعلمه غير الله.

فقال ابن البيه : قد أطلت الكلام ولم تستطع أن تقلل من تأثير البرودة يا عم الشيخ ، إذا كنت تطمع في نقودك فهلم وهات منقلاً أو موقداً وضعه أمامنا على الأرض على شرط أن يكون مشتعلاً لتوه فقد تجمدت قدماي وتقرحت يداي من البرودة ولم تعد بي الآن قدرة على الجلوس ولا أستطيع كذلك عدّ النقود.

- إنك تحدد الهدف الذى إن أصابه سهمك تزهق به روح إنسان
قال هذا قارى اشكمبة ونهض من مكانه وذهب إلى وسط المنزل وأخذ يدق بقدمه أرضيته ، ثم أضاف : إذا لم آت بالنار فإن إفزاعى بعدم إعطائى النقود هو من قبيل إصابة سهمك فى المقتل.

ولم تمض دقيقة حتى سمع صوت صعود قدم على السلم فصاح قارى اشكمبة إلى الصاعد :

- هات منقلاً عليه نار من الموقد داخل المنزل ، وبعد دقيقة ظهر بأعلى السلم منقل نار فتقدم قارى اشكمبة وحمل المنقل إلى مدفأة الكنبة.

فسألت قارى : لماذا لم تلق النار فى المدفأة واكتفيت بوضع المنقل على الأرض؟

فقال : لهذا حكمة .

فسألته ثانية : وما الحكمة فى ذلك؟

- ستفهم فيما بعد .

ومددنا أقدامنا إلى قريب من المنقل ولم يكن ذاكى النار كثيراً وأخذ الثلج على حذاءينا والثلج بداخلهما الملتصق بجوارنا فى الانصهار.

فقلت : كانت كنبتك ثلاجة فيما سبق فصارت الآن ماءً مثلجاً.

- لا ضرر من ذلك ، فحين تغادران منزلى فسوف تسيران بماء الثلج بدل الثلج على ملابسكما وسوف يكون هذا سبب اطمئنانكما كما

هو الباعث على راحتى أيضًا . قال قارى جملته الأخيرة هذه لكى يفهمنى ضمنا أنه لا يزال مرتابا فى أمرى .

فقال رفيقى له : عجل بالنهوض وهات دفاترك وسوّ حسابك لكى نعجل بالعودة وغمز إلى ابن البيه بطرف عينه وخرج يتعقبه . وبعد أن اختلى الاثنان معًا بالخارج وتحدثا بصوت خفيض هبط قارى إلى أسفل السلم وأتى ابن البيه الدار ضاحكًا ، فسألته :

- أى أمر خفى كان ذاك؟

- لا شىء يستحق ، إنما هو عادة المرابين ، وشرح ابن البيه قوله : كان يقول : (أنا لا أبقى مالا بمنزلى بعد أن أخذته أمام غريب منك . فسوف أذهب وآتى معى برجل أرتاح إليه وأثق فيه ، ثم آخذ منك المال وأثبته فى الدفتر ، ثم أحمل معى المال وبرفقتى ذاك الرجل الموثوق به ونخرج فى رفقتكما إلى عرض الطريق وتذهبان أنتما إلى مسكنكما وأحمل مالى أنا مع ذاك الرجل وأودعه فى المكان الذى أعرفه أنا حتى لا يظن صاحبك أننى أحتفظ بالليل بمال فى منزلى).

ولما سمعت هذا الكلام غضبت كثيراً فى البداية من قارى لكنى كظمت غيظى لأن بلوغ الرجل إلى هذه الدرجة من الارتياب والشك يعد من ضروب أمراض الجنون ، وقرّ فى قلبى أنه لا يصح الغضب من إنسان مجنون بل يجب الإشفاق على حاله المسكين سوف يظل معذبًا حتى آخر حياته نتيجة هذا المرض . كنت فى لجة هذا التفكير حين عاد قارى اشكمبة وصعد السلم إلى الدور العلوى ، لكنه كان وحيداً .

فسأله ابن البيه : ألم تجد الرجل؟

– لم أذهب إلى هذا الرجل بعد وتذكرت أمرًا ضروريًا أعادنى من طريقى.

وبعد قوله هذا اقترب إلينا وشرح لنا أمره الضرورى قائلاً : أنتما يعرف أحدكما الآخر ويعرف صوته ، وليس لديكما الآن غير الكلام والجلوس فعل آخر فلا حاجة لكما لهذا المصباح المشتعل فهذا إسراف وإنفاق زائد ؛ وعليه فسوف أطفىء هذا المصباح وأبقيه بأعلى السلم وأثناء عودتى أشعله ثانية من مصباح زوجتى وأسوى عليه الحساب ، تمام؟

وقبل أن نجيبه حمل المصباح أمامنا وأخذه معه ووضعه بأعلى السلم وأطفأ وخرج من بوابة منزله إلى الطريق.

قلت إلى ابن البيه : ما دمنا كل منا يعرف الآخر ويعرف صوته وليس يلزم حديثنا وجلوسنا نور ومصباح ، فهلم لنجلس ونتجاذب أطراف الحديث ، ثم سألته:

– أبوك رجل تاجر غنى أو (بيه) وأنا أعلم أن جميع أموال والدك الحاضرة والمؤجلة بيدك فلماذا احتجت إلى القرض ؟ . إن هذه المسألة أمامى لغز محير فإن كشفته لى سوف أشعر بالسعادة وتزول الكآبة التى ركبتنى من كلام هذا الممسك الأسود الطوية.

فقال : ما دام قلبى مستريحًا لك وأخذتك رفيقًا لى فسوف أكشف لك عن سر اقتراضى وليس لدى أى مانع أو خطر على كشف سر

قرضى هذا . ثم شرح ذلك قائلاً : كما تعلم فأنا أجلس مع أبى فى دكان واحد ولأن أبى جاهل بالقراءة والكتابة فإن كافة أمواله الحاضرة والمؤجلة بيدى كما ذكرت ، وأحيانا آخذ من المال المتحصل عليه من البيع لدواعى الشباب خمسمائة أو ألف تنجة وأصرفه على نزواتى ، وأحيانًا يحدث أن أضطر إلى سداد البنك أو التجار الكبار الذين نأخذ منهم مالاً بعد أن أكون أنفقت ما أخذته من مال الدكان ، وفى هذه الحالة من أجل تغطية المال وعدم اكتشاف أبى للأمر اقترض المبلغ الناقص من أى جهة وأغطى المال الناقص وهكذا أحتاج إلى الاقتراض ، ثم أجمع بعد ذلك من الربح اليومى للدكان المبلغ المقترض وفائدته شيئًا فشيئًا وأسلمه للمقرض.

– صحيح أن هذا يحدث لكافة أولاد البهوات الأثرياء ، ولكن بما أنك تحتاج إلى الاقتراض فلماذا تقترضه من هذا الحيوان ذى الرجلين ؟ لماذا لا تقترضه من هندى أو من مرابٍ آخر؟

فقال : أولاً إن جميع المرابين سواء كانوا هنوداً أو مسلمين لهم نفس المسلك والصنيع والتصرف الذى رأيته فى قارى اشكمبة ! ثانيًا لو اقترضت من غيره فأخشى أن يفتضح سرى أمام والدى لكن قارى اشكمبة لا يفشى سراً قط فى مسألة إقراضه أو تسلمه للمال المقترض وعليه فإننى اقترض من هذا (الحيوان ذى الرجلين)...

انقطع حديث ابن البيه مع سماعنا صوت خطوات من يصعد السلم. وكان هو قارى اشكمبة جاء يحمل المصباح وفى عقبه شخص آخر. وضع قارى المصباح فوق الكرسى وتعرفنا على ضوئه على هذا

الرجل الذى أتى به قارى فقد كان خفير مبنى (شركة التنقيب) الذى حل محل الشركة المتعهدة (شركة النقل ميركورى) وهى شركة نقل روسية.

وبعد أن أحضر قارى اشكمبة المصباح ووضعه فوق الكرسى خرج وأحضر من المنزل الداخلى دفتره وسوى ابن البيه حسابه وتسلم منه قارى المبلغ وأخذ ابن البيه مستند القرض ووضعه فى محفظته ونهضنا من مجلسنا للانصراف.

- اصبرا قليلاً وسوف نرافقكما.. قال قارى اشكمبة أعطى المصباح إلى الخفير وأمسك دفتر الحسابات بيد ورفع بالأخرى من تحت الكنبة منقل النار الذى أتى به من قبل فى بداية حضورنا وبه النار ، ولم يكن يظهر أثر للنار فى المنقل وكان بدلاً منها الرماد.

فسألت قارى : ماذا تفعل بهذا الرماد؟

فأجاب : هذا ليس رماداً تمامًا بل لا يزال به بعض النار وإذا لم أبقها فى المنقل ووضعتها فى المدفأة بأسفل الكنبة لتحولت إلى رماد خامد ، ولعلك فهمت الحكمة من وضعى النار فى المنقل وأبعدتها عن المدفأة تحت الكنبة . ثم أضاف بعد بيان علمه هذا : سوف أضع هذا الرماد الذى لا يزال بداخله نار تحت الكنبة بالمنزل الداخلى وأضع عليه قدمى حتى تدفئا وأستطيع النوم.

وتقدمنا إلى دهليز المنزل الأرضى من السلم وخرجنا إلى الزقاق ، وصاح قارى اشكمبة على زوجتيه وأمرهما بإقفال البوابة وأكد عليهما

عدم فتحها أمام أى إنسان فى غيبته وخـــرج مـــن البوابـــة ورافقنـــا إلى الطريق ٠

وافترقنا عند ناصية سوق باعة الأحذية والجوارب ، سلك قارى مع الخفير طريقهما من تحت الممر المسقوف للسوق وعبرنا نحن من أمام حوض النافورة بشارع الدباغين واتجهنا إلى مسكننا وكان الثلج لا يزال يتساقط وتسرب الثلج إلى داخل الحذاء فكان يصل إلى مفصل قدم السائر وارتفعت برودة الجو٠

(٩)

والآن بمناسبة ذكر حادثة قارى اشكمبة مع صديقى القديم ابن البيه فيلزمنى أن أفصل القول فى سيرته.

ورثت معرفته عن الشاعر المرحوم محمد صديق حيرت وكان أحد أصدقائى المقربين . لم يكن ابن البيه شاباً سيئاً فلم يكن يتكبر أو يتعالى كشأن أولاد البهوات الأثرياء من سكان بخارى علينا نحن الطلاب الآتين من الأقاليم والبدو بل كان يوافقنا فى طبعه وميله وسلوكه وتجنب جماعة أولاد البهوات والأثرياء.

وكان والد هذا الصديق متصفاً بصفات أخرى . كان يجهل القراءة والكتابة لكنه كان يخفى جهله هذا عن الجميع حتى عنى رغم صداقتى القريبة إلى ولده وكثيراً ما كان يحدث أن أمر فى السوق أمام دكانه وإذا لم يكن إذ ذاك ابنه المتعلم موجوداً بالدكان وكان خطاب قد وصله من مكان ما كان ينادى علىّ: تفضل وتناول كوبا من الشاى!

فكنت أجلس معه فى الدكان ويأتى بهذا الخطاب ويعطيه لى فأنظر فى هذا الخطاب وأسأله : هل أقرأه لك ؟

فيرد : لا ، لا يلزم قراءة كل ما ورد به ، إنى قرأته بنفسى ولكن به بعض المواضع لم أستطع فهمها بدقة ، تعب نظرى بفعل الشيخوخة ، سوف أشير لك على هذه المواضع وعليك أن تفهمنى المراد منها٠

ويبدأ فى الإشارة إلىّ على (بعض المواضع) فى الخطاب ، وكان يشير إلى السطر الذى كان يكتب فيه راقم الخطاب طلبه ويقع فى نهاية الخطاب عادة ويضع فوقه خطًا لتمييزه فأقرأه له ، وإذا لم يتضح المطلوب بدقة كان يقول : اقرأ ما سبقه بقليل ويجعلنى أقرأ له ما سبقه من سطور فإن فهم المطلوب جعلنى أقرأ له مواضع أخرى وهكذا يشير إلى جميع أسطر الخطاب مرة من نهايته وأخرى من بدايته ما عدا بضعة السطور الأولى التى يكتب فيها عادة التحية والسلام والدعاء ويجعلنى أقرأها. كان يدعى المشيخة ، فحين يفرغ من التجارة والبيع والشراء ينادى على بعض المشايخ لمجالسته فى الدكان ويتناقش معهم فى بعض المسائل الدينية التى تعد حذلقه تفقيهًا ويجادلهم فيها ، وفى بعض الأوقات تثار أمامى مثل هذه المسائل فيدعونى إلى المناظرة والمجادلة فيها لكنى كنت أنصرف عنهم قائلاً : (ليس لدى وقت) أو (ليس لدى صبر) ، وإذ ذاك يقول مبتسماً باستهزاء : (الشيخ الذى بلا فضل ضيق الخانقاه) طاعنًا إياى ثم يدخل علىّ من باب النصح قائلاً : (لقد أغرقت نفسك فى (الفرعيات) وتركت الأصول ، لا تشغل نفسك بقراءة الشعر أو بنظمه ، أى شاعر أصاب الغنى والثراء حتى تصبح شاعراً ؟)٠

كان يدعى المشيخة ويزعم التقوى ويسعى جاهداً إلى أن يتظاهر بأنه يؤدى كل أموره وفق الشرع٠ كان فى الأماكن الخالية يقدم قدمه

اليسرى فى الخطو لكنه يقدم قدمه اليمنى حريصًا عند دخول المساجد والمنازل الأخرى وهذه أمور كان متقيداً بها بشدة وكان يعلمها لغيره.

وكان يشتد على ابنه كثيراً لكى يتحرك وفق الشريعة فى كل أمره حتى أنه كان يمنعه من شرب النارجيلة وكان شربها شبه عام فى بخارا ، لكن ابنه لم يكن يكتفى بشرب النارجيلة فى الخفاء بل كان يشرب الخمر وكان شربها إذ ذاك ممنوعاً فى بخارا.

كان يقتصد بشدة فى نفقات معيشته وكانت جميع المصروفات لا تمر إلا بعلمه ، وكان قد حظر بشدة على ابنه أن يصرف قرشاً أسوداً فى البيت أو فى الشارع ، وكان ابنه يقيم برضا والده وليمتين للضيافة فى كل عام ، إحداها تقام داخل المدينة فى حديقتها والثانية فى خارج المدينة وقت التنزه فى النيروز حيث كانت تقام عند ضريح الشيخ (بهاء الدين).

كان الضيوف توجه إليهم الدعوات لحضور هاتين الوليمتين برضا والده لكن لم يكونوا يزيدون عن ستة رجال ، وكان يضم إليهم ابنيه الصغيرين وخادمه ، لكن ابن البيه كان يدعو فى الخفاء جميع معارفه ، وكان أبوه يصرف له من المنزل يوم الضيافة على عدد الأشخاص الذى حدده الأرز والسمن والخبز المنزلى ثم يدعه يشترى اللحوم والخضروات والبصل من السوق . ويسير من أجل الركوب عربته الصغيرة التى يجرها حصان ، ويختلى بولديه الصغيرين فى ركن ويعرك أذنيهما ويأمرهما بأن يطلعاه بما كان يجرى من أخيهما الكبير من إسراف فى النفقات أو قيامه بعمل خفى.

وكنت إما دائمًا أحد هؤلاء الضيوف فى مثل هاتين الوليمتين وكنا نجمع أصناف مواد الطعام ونضعها فى الخرجين ونركب العربة الصغيرة ونخرج بها من السوق إلى الطريق ، وما إن خرجنا من المدينة كان ابن البيه يحتجز العربة الصغيرة فى جانب من الطريق ويسأل أخويه الأصغرين:

– هل تريدان ركوب عربة الخيول ؟

– نريد ، نريد.

– سوف آتى لكما بهذه العربة بشرط ألا تخبرا والدكما بأى خبر ولا تقولا له شيئًا مهما سألكما .

– لن نقول ، لن نقول .

فكان ابن البيه يذهب إلى محل تأجير هذه العربات ويأتى بعربة يجرها حصانان قويان معقود بذيلهما جرس رنان ، وكنا نركب هذه العربات ونلف بها فى الطريق ونتجول ، أما العربة الصغيرة فكان أحد غيرنا يحملها بأصناف الأطعمة المختلفة الأخرى التى كان يشتريها ابن البيه من بوابة واحدة علاوة على الأطعمة التى أحضرت من المنزل . فإذا ما وصلنا إلى مكان الوليمة يكون الضيوف المدعوون سرا قد ركبوا فى عقبنا عرباتهم ووصلوا ، وطبعا كان البيه يسدد أجرة هذه العربات أيضًا.

أما البيه والده فقد كان سعيدًا وهو يقول فى نفسه (قد لبيت مطالب الوليمتين التى يعقدهما ابنى فى سنة بأكملها بمثل هذا الرخص وبنفقات قليلة).

كانت الأربعين الباردة للشتاء حين كانت البرودة القارصة سائدة ، ويقل فى بخارا عادة هطول المطر وأخذ الثلج فى التساقط بغزارة بعد أسبوع من ليلة عودتنا من بيت قارى اشكمبة ، وكان سكان بخارا يقومون بجرف الثلوج إلى الأزقة مرتين أو ثلاثًا فى اليوم بسبب ضيق منازلهم التى كان كل موضع بها سقف ، فكانت الأزقة الضيقة للمدينة تمتلئ بثلوج المنازل إلى حد أنها كانت ترتفع قريبًا من الأسطح ، وكان كل إنسان يشق الثلوج المتراكمة أمام بيته بالفؤوس والأزاميل ويصنع فيها بئرًا ثم ينشىء من الثلج ما يشبه السلم لكى يرقاه ويخرج إلى الزقاق .

ولم أذهب إلى المدرسة فى آخر أيام الأسبوع الدراسى وهو يوم الثلاثاء بسبب ضعف ملابس تدفئتى بالشتاء فأقفلت علىّ باب غرفتى ونمت . وطرق الباب إنسان فى الساعة العاشرة صباحا ففتحته ورأيت أن الطارق كان (البيه) ، عجبت كثيرا لأنه لم يكن قد أتانى للزيارة فى غرفتى من قبل وبدلاً من أقول له (تفضل) بسبب اضطرابى قلت له بصوت مرتفع :

– ها ، أى خدمة ؟

فقال : تعال معى إلى منزلى ، فقلت له (حسنًا) ثم خرجت برفقته إلي الطريق. ولم يتفوه البيه بكلمة ونحن بالطريق ولم يكن لدى كلام لأقوله له ، وكان يظهر من ملامح وجه البيه أن ثمة شيئًا صعبًا كثيرًا جرى له أثناء النهار.

ودخلنا منزله ، وفتح غرفة الضيوف وجلست على كنبة ودفأت قدمى بنار المدفأة. ودخل البيه إلى منزله الداخلى وأتى بالشاى والخبز لى ووضعهما فوق الكنبة ، وجلس هو على وسادة وأخذ كل منا يحتسى شايه .

ولم ينبس البيه حتى ذاك الوقت بكلمة ، ولم يكن أحد غيره فى المنزل الخارجى له ، وفى النهاية ضقت ذرعًا من الانتظار وسألته :

– أين أولادك ؟

فأجاب : فى الدكان ، ثم أضاف : أنا الذى عدت إلى المنزل ولابد من فتح الدكان ولا يمكن إبقاؤه مغلقًا بالنهار

– لماذا تركت الدكان فى وقت رواج البيع وعدت إلى المنزل ؟

– أريد منك مصلحة.

فوقعت فى تفكير مُلِحّ : (أى مصلحة يريدها منى ؟ إنه لم يناد عَلَىّ من أجل أمر حتى الآن .

كان عليه أن يقرأ خطابًا وصله فى غير وجود ابنه فقمت بذلك له بالسوق ... لعله علم بإسراف ولده فى نفقاته ويود الاستفسار عن ذلك منى بسبب معرفتى الوثيقة به ، لو سألنى فى هذا الخصوص فبأى جواب سأجيبه ؟ لو حكيت له عن أحوال ابنه بصدق فلسوف أخون صداقته ، ولو أخفيتها عنه فهذا يعد كذبًا منى) وغرقت فى لجج مثل هذه الأفكار فبادرته بالسؤال :

– ماذا تريد منى ؟

- أريد منك أمراً ولا أدرى هل ستقوم به أو لا ؟

- أقوم به لو كان بإمكانى .

- أنت الوحيد الذى يمكنك أن تقوم به .

- حسناً ، تفضل وأفصح لى عن طلبك .

- طلبى منك هو أن تذهب إلى قرية (رازماز) التابعة لمدينة (فابكند) وتعود.

- إن المسافة من هنا حتى قرية (رازماز) ليست كالمسافة بين غرفتى وبيتك بحيث يمكن لإنسان أن يقطعها فى بضع خطوات ويعود . من هنا حتى هناك أربعة منازل سفر . ومن الصعب الذهاب إليها والعودة ، خاصة فى هذا الجو البارد.

- لن تذهب ماشياً ... قالها وهو يمد فيها ... سوف أعطيك جوادى المُسرج.

- ملبسى خفيف والثلوج والبرد يتساقطان وليس لدى معطف واقٍ من المطر أو أى أردية ضد المطر.

- سوف أعطيك المعطف الواقى من المطر والثلج الخاص بى الذى لا يدع لبرد أو ثلج أو مطر ينفذ إلى جسمك ، قال ذلك البيه وصمت لمدة ثانية وغرق فى الفكر.

لعله كان يفكر أننى اعتقدت أنه سوف يعطينى هذا المعطف الغالى ملكاً لىّ لأنه أضاف بناء على ذلك : سوف أهبك هذا المعطف مع أنه الوحيد لدى.

وعلى أية حال فلن أدع خدمتك لى تمضى مجانًا وسوف أعطيك مقابلها نقدًا أو عينًا ٠

– لو قمت لك بهذه الخدمة فليس من أجل أى مقابل بل بسبب معرفة سنوات طويلة بابنك ، وإلا فأى إنسان عاقل يرمى بنفسه فى التهلكة فى مثل هذا الطقس البارد من أجل أجر، فقال البيه بسعادة :

– أحسنت يا عزيزى ثم قال :

– كنت قد سمعت أن اللصوص من أهل غجدوان لا يتورعون عن قتل غجدوانى منهم فى الطريق وصدق هذا الذى سمعته فى الحقيقة ٠

وكان يريد البيه امتحانى بقوله هذه الجملة الكثيرة الإحراج ، لقد كنت إذ ذاك غجدوانيًا كثير الحمق ، إننى أحد أهل غجدوان الذين يعتبرون عدم قيام الغجدوانى بأى سفر سواء كان يحيط بمعالم طريقه أو لا يحيط عارًا على كل غجدوانى . كان ينتابنى إذ ذاك الإحساس بأننى إذا لم أقم بهذا العمل كأن جميع أهل غجدوان سوف يقولون لى : (لم تقم بقطع مسافة قليلة الوعورة وأنت تعرفها إنك حططت من سمعة أهل غجدوان وأهنت كرامتنا أمام أهل المدن أف عليك !)

فقلت بحسم : حسنًا ، هذه المسافة معروفة لدى ومهما كان طريقها فسوف أقطعه٠

ولما رأى البيه أن جملته قد أثرت فى كثيرًا أراد ثانية أن يظهر حمقى فقال :

- كان لدى خادم شجاع لا ينكر الجميل اسمه عبد النبى وأنت تعلم أنه مرض وعاد إلى موطنه ومات .

- وليس ابنى بهذه الجرأة والشجاعة التى تمكنه من قطع هذه المسافة فى أيام الشتاء ، وحين تخلو جميع الصحراء من الناس والتى تمتد أربعة منازل خاصة فى المناطق المحيطة بقرية (رازماز) وأغلب سكانها هم أولاد اللص الشهير (فيضى أوليا) ، وليس ابنى وحدى بل جميع أولاد المدينة لا يستطيع أحدهم أن يتجه إلى هذه النواحى فى هذا الوقت من العام . ولو خاطر فأقل ما يحدث له هو أنهم يأخذون منه حصانه وملابسه ، ولهذا السبب طلبت منك أن تقوم بهذه المشقة لأنك غجدوانى كثير الشجاعة.

فقلت يدفعنى الغرور الغجدوانى :

لا بأس وضير فبإمكانى القيام بهذا السفر سواء كان أولاد (فيضى أوليا) فى طريقى أو لو بعث فيضى أوليا نفسه حيًا وقطع طريقى ، ثم أضفت : متى أذهب ؟

- فى يومنا هذا أو ساعتنا هذه

- انتهى اليوم تقريبًا ويلزمنا ساعة للاستعداد للرحلة وليس قبل الليل إلا أربع ساعات ، ولا يمكن فى هذه الفترة فى مثل هذا الطقس والطريق الطويل أن أصل إلى هذه القرية وأعود منها .

- إن صعوبة هذا الأمر تكمن فى هذا الذى قلته وهو لابد من التحرك فى نفس يومنا هذا والوصول فيه إلى القرية ذاتها ، ولابد من أن تأتى برفقتك منها برجلين غداً .

ويلزمني تواجدهما عندى يوم الخميس صباحًا وقت تناول الإفطار . فإذا لم يتحقق هذا المطلوب فى الوقت المحدد الذى ذكرته لك فلن يفترق عن عدم تحققه فى أى شىء ، فقلت بغروري الأول : حسنًا ، فليكن ما يكون ، أسرج حصانك !

فخرج لإسراج الحصان وأخذت أفكر فى ذاك الطريق الذى يمتلئ بالثلوج ويمتد أربعة منازل أى اثنين وثلاثين كيلو مترًا .

وأسرج البيه حصانه وعاد وقال لى :

– تفضل الحصان جاهز . فقلت بعجب : حين أصل هناك من الذين أدعوهما لكى أعود بهما ؟

فقال : فى الوقت نسيت من فرط انشغالى هذا الموضوع ، وأخرج من تحت إبطه كيسًا ملفوفًا ، ثم أخرج منه خطابًا ملفوفًا وأعطاه لى واستمر قائلاً :

– فى قرية رازماز رجل اسمه أرباب حاتم إنسان محترم ، اذهب مباشرة إلى منزله وأعطه هذا الخطاب وعبوة الشاى الذى وضعته داخل الخرجين وسوف يجد هذين الرجلين اللذين أحتاج إليهما ويجعلهما يرافقانك وتقوم أنت بالعودة بهما فأبقيت الخطاب ملفوفًا فى كيس البيه المعقود ، ولبست معطفه الواقى للمطر وخرجت من غرفة الضيوف وعقد البيه الخرجين اللذين وضع بواحد منهما عبوات الشاى فوق السرج . وساق الحصان ووضع اللجام فى فمه ووضع علف الحصان فى الخرج الآخر المتبقى ، ودفع سائقا الحصان وخرج به من البوابة إلى الشارع .

وامتطيت صهوة الحصان على ناحية الشارع ، وأخذت السوط من يد البيه وأخرج من تحت إبطه لفافة بها خبز منزلى وأعطاه لى قائلاً :

- إن حمل الخبز فى السفر له ميزات منها أن المسافر يبقى فى أمان من الأخطار بحق نعمة هذا الخبز ، وبعد قوله هذا توجه إلى القبلة ورفع يديه إلى الهواء وأخذ يدعو وهو يمسح وجهه بيديه : سلمك الله فى سفرك وحفظك!

فوضعت الخبز تحت إبطى وخرجت إلى الطريق.

كان ركوب الجواد صعبًا فى حارات بخارا الضيقة وفوق ركام الثلوج المتراصة كأنها الجبال ، لهذا آثرت أن آخذ الطريق المتسعة التى تمر بها العربات متجهًا بسرعة إلى بوابة (مزار) ومع أنه كان يتجه إلى خلف المدينة إلا أننى سلكته حتى وصلت بوابة (مزار) التى خرجت عبرها من المدينة ، ثم تقدمت بعد ذلك إلى قلعة (تجتج) ومررت أمام ميدان تدريب الجيش ووصلت إلى بوابة سمرقند ، ودخلت منها إلى الطريق الأساسى العريض (بخارا - غجدوان).

كان هذا الطريق كثير الاتساع ولم يكن بوسطه ركام الثلوج لكن كان يغطيه من أوله لآخره بدلاً منها ما يشبه الأسفلت المفروش ، فقد كان الثلج المتصلب الأسود اللون قد اندقت قطعه على الطريق ، لأن الثلوج الكثيرة لما تكاثر عليها ضرب سنابك الخيل والحمير السائرة واحتكاك العجلات الحديدية للعربات غدت (أسفلتا) ، وفى هذا الطريق كانت تنزلق قدما الحصان فى كل خطوة يخطوها حتى كانت بطنه فى إنزلاقه تصل تقريبًا إلى الأرض .

وعلى جانبى الطريق امتلأت بالثلوج جميع الحقول الزراعية وبرك المياه اليابسة والترع والشقوق والفجوات وسائر الوهاتو البخار وصارت معبدة مستوية ، وكان يخطف بصرك فى كل اتجاه تصوب إليه نظرك الثلج اللامع الأبيض ، وظهرت بعض الجداول والترع بجانب الطريق ينبع بعض مياهها ووصلت ثلج الطريق عن طريق المعابر والطرق الفرعية فأخذت يفيض ماؤها المتسرب فوق ثلوج الطريق وجعلت الثلج المعقود أو أسفلت الطريق ما بين لونين وحالتين .

وأخذت أشجار الصفصاف والتوت والكافور التى تشبه أشجار المشمش المزدهرة فى الربيع تظهر للأعين مزرعة أزهار ، وا أسفاه لم يكن باستطاعتى التفرج والتريض فى هذه المزرعة للأزهار خوفًا من ضياع بصرى .

لم يكن يظهر فى الصحراء أى من الأحياء ، اللهم إلا جماعات الغربان الباهتة الحمرة المصطفة وهى تدور أو تلعب بنثر البرد والثلج كما تلعب الطيور المنزلية بنثرها التراب على ريشها ، كانت تنام على الثلج برءوسها وصدورها ثم تنثر بمخالبها الثلوج تحت أجنحتها ثم تغمس رءوسها بقطع الثلج الصغيرة كما تفعل طيور الماء حين تغمس رءوسها فى المياه ولو كان بيدى اختيار الألفاظ وتسمية الأشياء لسميت هذه الغربان الحمراء (طيور الثلج) ، وكانت أصوات هذه الغربان وحدها تقلق سكون هذه الصحراء الميتة الصامتة المترامية الأطراف ، ولم يكن يظهر فى القرى أى إنسان ولم يكن يدل على أن بها حياة وأحياء غير حلقات الدخان السوداء الغليظة المنبعثة من حرق فضلات الحيوان اليابسة من فصل الخريف والوقود اليابس وهى تتصاعد من

خلال الثلوج البيضاء إلى أعلى الأسطح والسقوف ، لم يكن غير هذه الغربان وحلقات الدخان التى كانت تقلل من وحشة القرية الخالية والصامتة .

كان النهار قد بلغ وقت الأصيل حين بلغت قرية (جلة آسيا) التى كانت تبتعد عن بخارا بمسافة فرسخ ولم يبق على الغروب غير ساعة ، وغلبنى الاضطراب خوفًا من ظلمة الليل فى هذا الطريق المفزع والصحراء التى تمتلئ بالوحشة فأخذت أضرب الحصان بالسوط ، لكنه لم يعد أمامه مجال للتقدم خطوة واحدة ، كان الزّبَد والرغوة يتطاير من عنقه وقدميه مثل رغوات النشا المنتفجة من أوانى الطباخين وكان البخار يتعالى من سائر جسده مثل قمينة صناع الطوب ، أما عرفه وذيله فكانا يشبهان شعر بنات ذلك الوقت المتصلب حين كن يعقدنه ويزينه بقطع الثلج المدورة.

كنت أخشى على نفسى فى تلك الحالة وفى كل خطوة يخطوها الحصان أن أسير مجمداً معلقًا وأنا على صهوته كقوس السرج البارز بمقدمته.

ولما عبرت (جلة أسيا) انطلقت إلى الفضاء الرحب فظهرت من بعيد بأعلى الطريق أسراب الغربان التى كانت تطير حينًا وتحط حينًا آخر. وكان يظهر أيضًا بأعلى منها فى الجو الطيور الآكلة الجيف ، وقد أشرعت أجنحتها وهى تدور وتلف وقد تثبتت عيونها على الأرض.

ويدأ الحصان يتوقف عن السير لكن بضربى له بالسوط أُجبر على متابعة السير ، ووصلنا إلى مجموعة من الغربان أحاطت بجثة حصان

ملقاة على جانب الطريق ، وكان من الواضح أن هذا الحصان المسكين قد نفق من جراء وعورة الطريق أو بسبب الضعف الشديد أو أنه تدحرج ودقت عنقه ، وقد قام صاحبه بسلخ جلده وتركه صدقة لأكلات الجيف من الجوارح وكان أمام جثة هذا الحصان أربعة كلاب مجتمعة أيضا وكانت تقطع لحم الحصان وتأكله وهى تزمجر واحدا للآخر ، وفى بعض الأحيان تترك التهام اللحم وينشب أحدها مخالبه وأسنانه وهو يعوى فى وجه غيره ورأسه ثم يعود كل منها إلى مداومة التهام لحم الحصان النافق كما يفعل المستعمرون أحدهما بالآخر .

وكانت الغربان تحط من كل طرف وتختطف قطعًا من اللحم على حسب قوتها واستطاعتها لكن ما أن تأخذ الكلاب تنظر نحوها وتعدو مهاجمة حتى تضطر إلى الطيران هاربة كأنها هى المستعمرون الصغار الذين لا ينالون نصيبهم من عالم المظلومين إلا برضاء المستعمرين المهيمنين الكبار، أما الطيور الجارحة مع علو طيرانها وارتفاعه فقد كانت تخشى الكلاب ولا تستطيع أن تقترب إلى الجثة لكنها تصاب باليأس ولا تعود تدور حول الكلاب ، كأنها قسم من المستعمرين الذين كانوا يخشون سطوة المستعمرين الفاشيين ومع أنهم ساخطون عليهم فإنهم ينتظرون إلى حين يأكلون الفاشيون العالم ويرقبون فعلهم بأعين ساخطة ولعلهم يأسفون لأن هؤلاء الفاشيين (استلبوا كل شيء ولم يبقوا لهم غير نصيب قليل) .

وعبرت من هذا الموضع واستمرت فى سيرى وحل الليل وعمت الظلمة الدنيا ، وغدا من المستحيل إذ ذاك رؤية الطريق الأسفلتى الأسود

لكن جانبى هذا الطريق بفضل لمعان الثلج الشديد البياض كانا ظاهرين ، وأخذ الحصان وقتذاك يسير بحذر شديد ، وقبل أن يخطو خطوة واحدة كان ينظر إلى ما هو تحت قدميه ويتوقف وهو يلهث بأنفاسه ويصهل.

فى هذا الوقت ألهمت فكرة وهى أن أسير بحصانى فى الناحية الشمالية للطريق نحو المزارع حيث غطت الثلوج هذه الأماكن فلم تخط فيها قدم ولم تغرس أو تنزلق بها مما يسهل سير الحصان على أرضها ، ولو كان بها بعض الترع أو الجداول اليابسة والأحواض والبرك فلا ضرر منها لأنها لابد أن تكون تجمدت وتصلبت ولا خوف أيضًا من انصهار الثلوج فى بعض الأماكن لأن بإمكان الحصان فى مثل هذه المواضع أن يخرج نفسه منها بيسر.

ونفذت فى الحال هذه الفكرة وانعطفت إلى شمال الطريق وكان الطريق فى الحقيقة ملائما جدا لعدم السير فيه من قبل بحيث كان الحصان يسير بخفة ويسر كأنه كان يسلك طريقا معبداً جافًا ترابيًا وكان يتجاوز وثبًا الجداول واليابس وما علا وسفل فى الطريق . لكن الأمر الذى كان يقلقنى ولا شىء غيره هل هذه الطريق الفرعية غير المسلوكة سوف تنتهى بى إلى خلاف المكان الذى أريد الوصول إليه؟

كنت أجيل نظرى وأنا أفكر فى هذه المخاوف إلى كل الأطراف ، ولم يكن يبدو لى غير صحراء هائلة تمتلىء بالثلوج ، ولم يلح أى أثر للقرى والضياع.

وبعد سير ساعة ، ظهر فى الناحية اليمنى للطريق على بعد نحو ألف قدم حلقات من الدخان كانت ترتفع دائرة إلى الهواء ، فأدركت أننا

وصلنا إلى مواجهة سوق قرية (يلنجى) لأن هذا الدخان لابد أنه كان منبعثًا من موقد مخبز هذا السوق أو من إحدى المداخن لأحد المنازل بهذه القرية ، واطمأن قلبى قليلاً لأنى لم أبتعد كثيراً عن الطريق الرئيسية ووجهت نظرى إلى الناحية الشمالية لطريقى وأخذت أقود حصانى نحوها .

وبعد مسيرة ساعة أخرى ظهرت أمامى مزرعة واسعة قد حرثت وقطعت أرضيتها قطعًا من الطوب وكانت قطعات هذه الأرض المحروثة من الضخامة بحيث كانت تظهر أسفل الثلوج رغم عظم سمكها وهاد الأرض ومرتفعاتها .

ووصلت إلى هذه الأرض المحروثة وأردت أن أقتاد الحصان إلى الطريق الرئيسية ماراً بوسط الأرض المحروسة وناظرًا إلى ناحية الشمال . لكن الحصان جفل وحرن وأظهر عناده وحرونته ولم يتقدم خطوة واحدة ، فضربته بالسوط ولم يؤثر ضربى له ، وكان كلما أمعنته ضربًا يحنى رأسه أمامه ويصهل ولكن لا يتقدم .

فأخذت السوط بيدى اليسرى وضربته أكثر من ضربة فى موضع به أثر جرح فى الناحية الشمالية من بطنه وفخذه وكانت موضع ألمه فخرج عن حرونته ، وتقدم صاهلاً بضع خطوات حتى صارت قدماه الأماميتين فى الأرض المحروثة وغاصتا كأنه يغوص فى الأوحال.

لكنه لم يتقدم أكثر مما تقدم ، وعاد إلى سكونه وثباته ، لكنى عدت إلى ضربه فى جنبه الأيسر ، فاضطر الحصان إلى التقدم خطوتين أخرتين ، لكن ما إن رفع قدميه وخطا خطوته الثالثة حتى غاصت أقدامه

الأربعة فى الأرض المحروثة واندفع الماء كأنه نافورة من الموضع الذى غاصت فيه أقدامه وأصاب لبادة سرجه وانسال المـــاء أيضًا فوق الأرض الحرث.

وأدركت إذ ذاك أية ورطة سقطت فيها ، إن هذه الأرض لم تكن أرضًا محروثة بل كانت نهر (زر فشان) الذى تجمدت مياهه . عادة لا تنحدر مياه الأنهار الكبيرة الجارية فى أوقات البرودة الشديدة من أعلاها ولا من أى جهة أخرى بل من نهاية الثلوج المتجدمة فى مجاريها . وتجمد مياه الأنهار الكبيرة الجارية ينشأ بهذا النحو وهى أن قطع الثلج الصغيرة تنحدر من الأعلى مع الماء المنحدر وتنتهى إلى المكان الذى تتجمد وتتلاصق تتجمد وتلتحم إلى حد أن سطحها يبدو غير متساوٍ ومستوٍ كأنها قطع من الأحجار غير المتناسقة المتراصة ، ولا يبدو شفافًا ومستويًا متناسقًا تسطح الأحواض والبرك المتجمدة. وقد خدعنى المنظر الظاهرى الذى بدا كأنه طوب أرض محروثة فى ظلام الليل واعتقدت أن نهر " زر فشان " المتجمد أنه أرض محروثة وقدت الحصان على غير رضاه سائرًا فوقه.

لم أدرك أنى سقطت فى نهر زر فشان إلا حينما غاص الجواد حتى بطنه وارتفع الماء إلى لبادة سرجه فألقيت بنفسى فى الحال من فوق سرج الحصان إلى سطح الثلج ورفعت الخرجين من فوق الحصان وألقيت بهما فى الهواء.

وللاحتياط خشية أن يتحطم الثلج أو سطح النهر المتجمد ولا أجد نفسى غارقًا فى هوات الثلج أوثقت إحدى يدى بحديدة سير لجامه فإذا

تهاوى الثلج تحت قدمى أنجو من الغرق عن طريق حديدة سير لجام الحصان بالسرج.

وسحبت نفسى إلى أقصى ما يسمح به سير لجام الحصان ، ورأيت أن الثلج بأسفل قدمى قوى متماسك وسير اللجام لم يعد يسمح لى بالتقهقر أكثر مما تقهقرت إليه ، فأردت أن أخرج يدى من الحديدة لكنها لم تدع يدى.

وظلت يدى معلقة فى الحديدة البرنزية التى يحتويها الثلج المتجمد ، فى هذا الوقت جال الحصان جولة فانفصلت الحديدة عن يدى ، لكن يدى أخذت تؤلمنى بشدة وظهر أنها جرحت وكأن ملحًا رش فوق جرحها.

وبالطبع لم يكن ممكنًا التوقف فى هذا الموقف الحرج بسبب ألم جرح يدى ؛ وكان لابد من التصرف السريع وسحب جسمى بعجل وخفة إلى شاطئ النهر ، فكان ما أردت وصعدت إلى الشاطىء.

لكن الحصان كان لا يزال بداخل صدع الثلج فضرب فى قفزة أخرى له قدميه الأماميتين ناحية الشاطىء لكن ما حدث هو أن سطح الماء المتجمد أمامه انشق وغاص الحصان بدرجة أعمق مما كان فيها ، وبعد أن استراح الحصان قليلاً واستعاد قوته قفز ثانية بقدميه الأماميتين نحو الشاطىء ثم هدأ قليلاً وبهذه الطريقة مع تكرار قفزاته وهدوئه أخرج الحصان جسده من شق الثلج ووصل إلى الشاطىء ، وبعد أن هز جسده بشدة مرة واحدة ونفض ما عليه من قطع الثلج وقف محنيًا رأسه ، أخذ الحصان كأنه أصيب بقشعريرة شديدة يرتعد

ويرتعش كأوراق الصفصاف وأخذت قطع الثلج الملتصقة بعرفه وذيله تتساقط محدثة صوتًا مسموعًا .

وكنت أنا أيضًا مبلولاً حتى ركبتى كما كانت ملابسى وجواربى متجمدة بالثلج وأخذت أرتعش من القشعريرة والبرودة كالحصان ، ففكرت أننى لابد أن أكون قريبا من قرية (بل مهتر قاسم) ، وعلى أساس هذا الظن حملت الخرجين ظهر الحصان وأطلقت الحصان بأن وضعت على ظهره حبل مقوده وسقته سائرًا واتجهت سائرًا من شاطئ النهر إلى جهة اليمين ، ونظرت إلى الشرق وسلكت طريقى إلى الطريق الرئيسية .

لم يخب ظنى فبعد أن سرت نحو ربع الساعة بدا لى سواد مخازن سوق بل مهتر قاسم وبعد بضع دقائق أخرى كنت فى أول سويقة مسقوفة فيه.

طرقت باب مقهى واستيقظ صاحب المقهى وفتح الباب ورأى بصحبتى حصانًا فأيقظ أهله وأخذ أحدهم الحصان من يدى ودخل به إلى المنزل ، وجلست بداخل المقهى وأدخل الحصان الحظيرة ورأى صاحب المقهى ثيابى المبللة المتجمدة فحمل كرسيًا وأوقد نار المدفأة وأذكى لهيبها وخلعت ثيابى وأخذها ونشرها على حبل طويل وأعطانى ثيابا أخرى فلبستها وخلعت أيضًا جواربى ووضعتها على مقربة من النار . لكن رجلىّ اللتين تجمدتا تماما لم تدعانى أمدهما إلى مقربة من النار فلفقتهما ببطانية كانت دافئة وموضوعة على الكرسى حتى وقت وصولى واحتفظت برأسى وصدرى قريبًا من النار وفى مواجهتها تمامًا

وجلست أقرب ما يكون من المدفأه . وبعد قدر من الراحة أدركت أن يدى لاتزال تؤلمنى فقربتها إلى نور نار المدفأة فرأيت أن جزءًا من جلدها تمزق والتصق بحديدة لجام الحصان ودخل صاحب المقهى وأتى ببعض ورق شجر ووضعه فوق الجرح وعقد عليه منديلى وقال : سوف يبرأ الجرح عند الصباح (ولا من شاف ولا من درى) . وفى الحقيقة لم يطل برء هذا الجرح طويلا إذ إن الجلد الجديد لما بعد خمسة أيام .

ورويت حكايتى وانزلاقى فى نهر رزقشان إلى صاحب المقهى بعد أن شعرت بالذقة والراحة ، فقال : أهكذا الأمر ، لابد من تدفئة الحصان أيضًا ونادى على ابنه لكى يوقد نارًا لكن للتدفئة فى حظيرة الحصان ولكى يقوم بتجفيفه .

وفار ماء الشاى الموضوع على طرف المدفأة . وصبّ لى منه صاحب المقهى فى كوب وأخرجت الخبز الذى كان البيه أعطانيه (لكى يحفظى من الأخطار) وقطعته وأكلته مع الشاى .

وبعد الأكل والشاى أحسست بالدفء بداخل جسدى بعد أن أحسسته بخارجه بفعل نار المدفأة الذاكية فأخرجت قدمى من البطانية ومددتهما بعد استئذان صاحب المقهى . وكانت النار لاتزال ملتهبة داخل المدفأة التى كانت تمتلىء بجمرات النار التى تشبه زهور الرمان ، فوضع صاحب المقهى الكرسى مكانه وبسط عليه البطانية ومددت قدمى إلى الكرسى وغطيتهما بالبطانية .

واستيقظت عند بياض النهار فأسرجت الحصان لكن لم يكن معى نقود أعطيها لصاحب المقهى فاضطررت إلى إخراج جزء من الشاى

الذى وضعه البيه لأرباب حاتم فى الخرجين وأعطيته شاكراً جزيل الشكر صاحب المقهى .

- لا داعى للشكر . إن واجبنا نحن الموجودين على الطريق هو خدمة العاجزين من المسافرين والمصابين بالبرودة والتجمد . قال هذا وأضاف مبتسماً : ماذا أخفى عنك ؟ أحياناً يحدث أن يأتى (الأشبال) بصيد عظيم ويبقى منه لنا فتات فيزول ثواب الخدمة التى نؤديها لك ولأمثالك لوجه الله بسبب هذا الفتات . وكان صاحب المقهى يعنى فى كلامه هذا اللصوص .

وخرجت إلى الطريق وسلكت بعد عبورى قرية (بل مهتر قاسم) الطريق الواقع فى الناحية اليمنى من الطريق الذى كنت سائراً فيه وكان يتجه إلى قرية (رازماز) . ولم يكن الطريق إليها بهذا القدر من السوء وكان يعلوه الثلج أيضاً لكن الحصان كان يسير بدون تعب فى الخطوط الطويلة التى كانت تخلفها عجلات العربات بعد أن تسحق ما كان عليها من ثلوج .

وصلت إلى قرية (راز ماز) فى العاشرة صباحاً وسألت عن منزل أرباب حاتم وأنا بأول الشارع فدلونى على منزل كبير كانت له بوابة تدخل منها الجمال وأخرى تدخل منها عربة جياد. فدخلت هذا المنزل وسألت الخادم عن سيده فحملنى إلى حجرة الضيوف وأدخلنى فيها .

قال : سيدى موجود ، هو فى نفس هذا المنزل.

فى مواجهة حجرة الضيوف كان يجلس على وسادة الكنبة رجل أبيض الشعر محمر الوجه حسن الطلعة له لحية كثة وخطها المشيب كان يمكن تقدير عمره ما بين الخمسين والخمسة والخمسين عاماً .

كانت رأسه الكبيرة تتناسب وقامته الطويلة وجسمه العريض لكن حَوَل عينيه اليسرى كان يزرى بحسن طلعته ، وكان يمكن الحدس من بدانة جسمه وظهور البروزة بقفاه أنه تربى على أكل اللحوم على اختلاف أصنافها ومطابخها . وكان يرتدى فوق ملابسه عباءة صوفية حسنة المنظر يظهر منها الشال الذى كان يعقد خاصرته به وفوق العباءة ارتدى معطفا من الجوخ أزرق اللون.

وعلى رأسه كانت عمامة بيضاء عريضة سميكة كانت تتدلى أطرافها على صدره وكان رجلان أشيبان يجلسان على كنبة متأخرة قليلاً لا تفترق ملامح أحدهما كثيراً عن الآخر ، إذ كان من الصفات المشتركة بينهما الوجه المحصّب النحيف الطويل والعينان بدون رموش والحاجبان واللحية البيضاء الخفيفة والشارب المحلوق تماما ، وليس من فرق بينهما ظاهر إلا أن أحدهما كان مستقيم الأنف والآخر مقوسه .

وكان يظهر أن عمريهما يقع بين ٦٥ – ٧٠ عامًا وكان جسم كل منهما يتناسب مع نحافة وجهيهما وكانت ثيابهما تتوافق وهيكليهما فى النزارة والعجافة أما عمامة كل منهما فكانت ضخمة مصنوعة من الصوف وأطرافها سميكة ، وكان أمام الشيخ الأشيب ذى الأنف المستقيمة شاى طيب الرائحة كان يصب منه للآخرين.

فدخلت وصافحت - كما هى العادة - الرجل الجالس بالواجهة ثم المستقيم الأنف وأخيراً المقوس الأنف ، وحين صافحت الرجل الجالس فى المواجهة قام إلى نصف قيام أما هذان الأشيبان فلم يتحركا واكتفيا بمد يديهما إلى.

ولم أنتظر دعوتهم إلىّ بالجلوس والترحيب ولم آبه بكلامهم وجلست على الوسادة الخالية وكانت تتوسط الجالس بالمواجهة وهذين الأشيبين ورفعت يدى كما هى العادة وقرأت الفاتحة وبدأ الرجل الجالس فى الواجهة الكلام : لا حياء فى السؤال من أى بلد الضيف ومن أين جاء ؟ فرددت : من بخارا ولم أدعه يوجه إلىّ سؤاله الثانى وأخرجت الخطاب من جيبى ، لكنى لم أكن أدرى من منهم أرباب حاتم . بناء على العادة المتبعة فلا ينبغى أن يجلس المضيف أمام ضيوفه خاصة إذا كانوا أكبر سنا ولا يكون فى المقدمة أو الواجهة لهذا فقد آمنت بأن هذا الرجل الجالس فى الواجهة والمتقدم عن الأشيبين ليس هو أرباب حاتم صاحب المنزل ، لكنى لم أتبين من هو صاحب المنزل من هذين الأشيبين الجالسين فى المؤخرة ، وكما هى العادة فإن صاحب المنزل المضيف هو الذى يقوم بخدمة ضيوفه لهذا اعتقدت أن الرجل العجوز المستقيم الأنف هو أرباب حاتم فأعطيته الخطاب قائلاً :

البيه فلان يقرئكم السلام ، فلم يأخذ المستقيم الأنف الخطاب من يدى قائلاً : أنا لا أعرف هذا البيه بل إننى لم أسمع من قبل باسمه أليس من الغريب أن تقع فى الخطأ ؟

- ألست أرباب حاتم ؟

فنظر المستقيم الأنف الأبيض الشعر إلى الرجل الجالس بالواجهة وضحك أيضًا الجالس بالواجهة قائلاً : أنا أرباب حاتم لكنى جلست أمام الضيفين بناء على المثل القائل (لو جلس صاحب المنزل فى الواجهة قل مقداره) .

فمددت الخطاب إلى هذا الجالس بالواجهة فأخذه من يدى وفض غلافه وفتحه وقال ناظرًا إلىّ : هل تستطيع قراءته ؟

فأجبته : سأرى هل يمكننى قراءته ، فأعطانى أرباب الخطاب مفتوحًا .

فأخذت الخطاب وقرأته . قال البيه فى خطابه بعد الدعاء والتحية المعروفين (أرسل رجلين شاهدى إثبات وحدّد لى أجر خدمتهما لى واكتبه لى) ، ثم ذكر فى نهاية الخطاب : كلمة (الورق الأخضر) مخبرًا عن إرساله عبوات الشاى ووجوب مطالبة حامل الخطاب به والتأكيد على أخذه منه ووعده بدوام المراسلة فى المستقبل ثم أنهى خطابه بجملته (السلام عليكم ... الداعى... البيه)

وبعد أن قرأت الخطاب ذهبت إلى دهليز حجرة الضيافة وأتيت بالشاى من الخرجين ووضعته أمام أرباب ورويت له انزلاقى فى نهر زر فشان وإعطائى جزءًا من الشاى إلى صاحب المقهى فقال : لا ضرر أتى الشاى من الهواء وضاع جزء منه فى الهواء أيضًا .

وأشار أرباب إلى العجوزين فتقدما معه إلى خارج حجرة الضيوف ثم نادى على خادمه لإحضار الطعام والشاى ، وأضاف إلى ذلك بأن

يأتى باللحم المطبوخ أيضًا ، وبعد أن يتناول مع صاحبيه بعض الحديث عاد الثلاثة ودخلوا حجرة الضيافة

وأتى الخـادم بالشـاى والطعـام من الخـبـز والأرز واللحم وسكين ووضعه فوق الكرسى وقطع أرباب اللحم وأخذنا فى أكل الخبز والطعام.

قـال أرباب لى : لابد من أن تكون ضـيفنا هذا اليـوم . فحكيت له عن ضـرورة العـودة إلى المـدينة فـى هـذه الليـلة واعـتـذرت عن المبـيت عنده بالليل.

فقال : إذن فلابد من علف الحصان ونادى على خادمه وأمره بأن يخرج اللجام من فم الحصان وتقديم العلف له ، ثم قال أرباب :

– ليس فى قريتنا من يستطيع الكتابة ، وقد أمليت على الشيخ إمام القرية خطابات وأرسلت بها ولم يستطع أحد قراءتها .

فقال المستقيم الأنف : والعيب أيضًا ليس فى الكتابة لأن الإنسـان حين يملى عليه يملى عليه كلامًا خاطئًا ، فقال المقوس الأنف :

– هذه هى الأمية والجهل لأن الإنسـان لا يفـهم كتـابة أمـلاها رجل أمى ، فـإمـامنا الشـيخ هذا قـرأ وصـار شـيـخًـا بل صـار الإمـام الوحـيد لقـريتنا (راز مـاز) ومـع هذا فـلا يسـتطيع حـتى اليـوم أن يكتـب بدقـة خطابًا ولا يقرأه بدقة ، وكم من مرة أتيت بخطابات براءة ووثائق إليه فلم يستطع قراءة ما فيها بوجه الصحة بل كان لسانه يتلجلج فى قراءتها .

فسـألنى أرباب قائلاً : هل يمكنك كتابة الخطاب ؟

- قليلاً .

- حسن جداً ، فاكتب منى خطاباً إلى البيه .

- حسناً .

- هل لديك قلم ؟

- لا ، ليس معى قلم .

فنادى أرباب على خادمه وأمره بأن يذهب إلى الإمام ويأتى بقلم وورقة منه وأتى الخادم بعد دقيقتين خالى الوفاض وقال : الإمام ليس موجوداً ، ذهب إلى القرية المجاورة لقراءة القرآن والدعاء لأحد المرضى.

فقال أرباب : حسناً ، ما فائدة كتابة خطاب ، انقل ردى شفاهة إلى البيه لكن العجوز المقوس الأنف رفض ذلك قائلاً :

- الخطاب أفضل لأنه يكون حجة.

فقال أرباب للمقوس الأنف : إذا كان الأمر هكذا فأحضر قلماً وورقة ، فقال هذا العجوز : أحضر قلماً ولكن لا أعرف من أين أحضر ورقة.

فقلت : هات القلم وسوف أكتب على ورقة الشاى .

فقال المقوس الأنف وهو يتهيأ للخروج : إذن سوف أحضره .

وبعد فترة قصيرة أحضر قلماً مكسور السن ، فسأله أرباب الفرح : من أين أتيت به ؟ فقال : أخذته من المعلم روزى النجار ، كنت

قد رأيته مرة يكتب به على ألـواح الخشب حينما كان يـركـب الخشب فى منزل (نوروز بيه)، فقال المستقيم الأنف :

- الحمد لله أنه لم يضع منك من يومها .

وأعطانى المقوس الأنف القلم فبريت أعلاه بالسكين الذى قطعت به اللحم وأعددته للكتابة.

وأفرغ أرباب عبوة الشاى منه ونظفها بمنديله وأعطانى ورقة منها وجهزت الورقة والقلم وبدأت كتابة السطر الأول وهو (بعد التحية والسلام أعرفكم أن ...) ونظرت إلى أرباب حاتم سائلاً : ماذا أكتب ؟

- اكتب : أرسل « إليك أنا الفقير الحقير الكثير التقصير دعاءً بلا حد منى أنا المشتاق وسلامًا بلا عد منى أنا الغائب أنا أرباب حاتم ».

فقلت له قاطعًا كلامه : كتبت هذا قل لى ما هو طلبك .

فمد أرباب والأشيبان أعناقهم ونظروا إلى الكلمات التى خططتها فى الخطاب وقال أرباب بلهجة مرتابة : قلت كلامًا كثيرًا والكلمات التى كتبتها قليلة جداً ، فقلت : أنا أكتب الكلام الكثير فى بضع كلمات قليلة.

فأشار العجوز المستقيم الأنف من ناحية بدون أن يرينى إلىّ بإصبعه مظهراً إعجابه وتظاهرت بعدم الملاحظة.

فقال أرباب بادئًا إملائى : اكتب بطريقتك هذه إننى وجدت شاهدين فاضلين بارعين وأرسلتهما إليك اسم أولهما (خالق ايشان) ،

وقد كان مريدا للشيخ المرحوم ايشـــان شـــايخـشى الـــكبير، وثانيهما (رازق خليفة) وهو خليفة عباد الله مخدوم ولد خليفة حسين وقد نال منه إجازة الإرشاد والمشيخة ثم قل بعد ذلك إننا قررنا إذا سارت أمورك أن تعطى لكل منهما خمسين تنجة ثم قل له إذا حـكم له أن يعطى كلاً منهما خمسا وعشرين تنجة أيضًا ثم قل له بأن يعطيهما نفقات السفر والانتقال ثم قل بأن يعد لكليهما فى كل صباح القشدة والشاى المشبع بالقشدة وبالعشاء الأرز المشبع بالدهن ويعلف جيدا حصانيهما ، ثم قل السلام عليكم ثم قل الداعى الفقير الحقير أرباب حاتم الرازمازى...

وبالطبع لم أكتب الخط بالترتيب الذى قاله أرباب وأوجزت طلبه فى ثلاثة أسطر وطبقت الخطاب أربع تطبيقات ووضعته فى جيبى ثم سألت أرباب : حسنا أين خالق ايشان ورازق خليفة لكى نعود على عجل ؟ فأشار أرباب حاتم إلى العجوز المستقيم الأنف قائلاً : هذا هو خالق ايشان وأشار إلى العجوز المقوس الأنف قائلاً : وهذا هو رازق خليفة.

أسرة خالق ايشان ورازق خليفة جواديهما وركباهما وخرجا من باب منزل أرباب حاتم ، وخرجت أيضًا من حجرة الضيوف وركبت جوادى وسلك ثلاثتنا طريق مدينة بخارا ، وكانت الشمس إذ ذاك فى وسط السماء إذ كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً.

كان حصانًا رفيقى سفرى أكثر نحافة من حصانى لكنهما كانا يسيران فوق الثلج بأسرع وأخف من حصانى فسألت عن سبب ذلك رفيقى :

فقال رازق خليفة : حدوتا حصانينا جديدة وحصانك بلا حدوة أو أن حدوته قديمة ، وقال خالق ايشان الذى كان يأتى خلفنا وكان يرى باطن حافر جوادى أثناء سيره : إن حصانك بلا حدوة أصلاً.

ووصلنا (بل مهتر قاسم) التى يبدأ منها الطريق (الاسفلتى) السيء وقصصت على رفيقىّ تجربتى بالأمس التى كانت على وشك أن تنتهى بموتى وهلاك الحصان . ووقعت قصتى منهما موقع القبول ، وسلكنا الطريق الفرعية غير المسلوكة.

ولما بلغنا (جلة آسيا) كانت الشمس على وشك الغروب وإذا لم نصل إلى بوابة المدينة قبل وقت النوم فلسوف نضطر إلى قضاء الليل والمنام خارج المدينة فى أحد المقاهى ، وكان الإسراع محتماً فى السير لكن حصانى لم يكن يسرع خاصة وأننا اضطررنا بعد ترك (جلة آسيا) إلى سلوك الطريق (الأسفلتى) لأن الجداول والحفر والتلال والبيوت كانت تكتنف الطريق من (جلة آسيا) إلى بخارا ولم يكن الطريق مستويا ومعبدا فوق ثلوج الأراضى الزراعية حتى نسلكه لكن حصانى لم يكن يرضخ للسير فى الطريق الأسفلتى وحين كان يضطر إلى التقدم خطوة بقوة ضرب السوط كانت أقدامه الأربعة تنزلق فى مواضعها واضطر خالق ايشان إلى الترجل عن جواده وأركبنيه وساق أمامه حصانى وسار مترجلاً ، وبهذه الطريقة وصلنا إلى بوابة المدينة فى صلاة العشاء ودخلناها قبل قفلها .

وسلمت (البضاعة) التى أتيت بها من رازماز والحصان الذى بلا حدوة وخطاب أرباب إلى البيه وخلعت له معطفه الذى ترطب ذيله

بالماء وجف بالنار وتعلقت به قطع من فروع شجر الكافور وأعطيته له ورجعت إلى غرفتى مع الرجاء البليغ للبيه لتناول طعامه والنوم فى فراشه الدفىء.

ولم أستطع النوم فى تلك الليلة الطويلة رغم تعبى وسهرى وغلبنى التفكير فى الشاهدين وقول أرباب حاتم : (إذا سارت أمورك أعط كلاً منهما خمسين تنجة ، وإذا حكم لك أعط كلاً منهما خمسًا وعشرين تنجة) فى خطابه إلى البيه وفى هذا الأمر المبهم الغامض.

استيقظت فى الساعة التاسعة صباحًا وبعد أن تناولت الشاى توجهت إلى السوق وكنت لا أزال أفكر فى الشاهدين ومعنى خطاب أرباب حاتم ، يمكننى أن أحل هذا اللغز فقط بمساعدة ابن البيه ، وعليه فتوجهت مباشرة إلى دكانه وكان يجلس بدون أبيه ، جلست أمام دكانه وحكيت له عن رحلتى ومحتوى الرسالة التى كتبها أبوه إلى أرباب حاتم ورد هذا الأخير عليه وإرساله شخصين شاهدين وسألته تفسير هذا اللغز ، وبعد أن تريث ابن البيه قليلاً قال:

(لن أخفى عنك أى سر وأود أن تبقى هذا السر بعيدا عن علم كل إنسان) . ثم استمر فى كلامه بصوت خفيض : (لقد ظلم أبى عبد النبى الذى كان خادمنا لفترة طويلة ظلمًا بيّنًا لقد قام عبد النبى بخدمتنا لمدة عشر سنوات ، ولم يكن يتقاضى أجرا غير طعامه ولباسه صحيح إننى كنت أعطيه أحيانًا أربع خمس تنجات من الدكان لكن أبى لم يكن يعلم بذلك) .

وبعد أن شرب ابن البيه ما فى الكوب الذى أمامه من شاى ملأ لى الكوب بالشاى وأعطاه لى واستأنف حديثه : (ولما مرض عبد النبى

لم يدعه أبى يقيم معنا فاضطر أبى العودة إلى الصحراء والذهاب إلى منزل إخوته وكانوا مزارعين فقراء ، ولم يلبث فى مرضه عندهم فترة طويلة ومات وبعد موته رفع والدى دعوى على إخوته مفادها (كنت أعطيته قبل مرضه أجر خدمته أربع سنوات مقدمًا البالغ ألفى تنجة ، ولم يقم بأى خدمة لى لقاء هذا المال أو حل به المرض والموت والآن وقد مات وأنتم ورثته فلابد من سداد دينه)٠

فقطعت كلام ابن البيه مستفسراً : إنهم مزارعون فقراء فكيف يتحصلون على مثل هذا المبلغ ويسددونه فقال ابن البيه : إذا ثبت أنهم مسئولون عن أداء هذا المال والقرض فإن حصولهم عليه وتسديده لأبى أمر يسير فهم يقومون بأعمال شاقة وهم حمالون وكل ما يحصلون عليه لن ينفقوه فى أكل أو لبس فيظلون يدفعون فائدة هذا الدين مع أقساطه أى يستمرون حتى آخر عمرهم عبيداً لأبى بهذا النحو٠

– حسنًا فكيف يحمل أبوك إخوته هذا المبلغ المنسوب إليهم ؟

فقال ابن البيه : ناد هذين الشاهدين لإثبات هذه الدعوى وهذا الدين والمال ، ثم استأنف : عقدت يوم الثلاثاء الماضى جلسة حكم وطلب القاضى من والدى مستنداً أو شاهداً فوعد أبى أنه سوف يجهز شاهده يوم الخميس والآن جاء هذان الشاهدان للشهادة فى المحكمة ٠

– حسنا أصبح هذان الرجلان شاهدين وكان عبد النبى عند إخوته فى الصحراء وهما لا يعرفان والدك فكيف يؤديان الشهادة والحال هكذا ؟

- إننى على يقين من أن أبى لم يرهما من قبل ، لكن البارحة بعد تناول الطعام قادنى والدى خارج حجرة الضيوف وتحدث إليهما سراً فأخذت أنصت إلى حديثهم من خلف الباب ، وما فهمته هو أن والدى كان يلقنهما كلاماً معينًا لكنى لم أقف بالضبط على محتوى هذا الكلام.

فقلت : لكنى فهمت ما كان يلقنهما من كلام ، ونهضت من دكانه واتجهت مباشرة إلى المحكمة.

كان المترافعون الكثيرون يجلسون فى المحكمة وجلس البيه ومعه (شاهداه) والمدعى عليهما وهما أخوا عبد النبى ومعهما عمدة قريتهما . ولم يطل الوقت كثيراً حتى تقدم حاجب القاضى الكبير إلى البيه قائلاً : تفضل فتدخل دور مرافعتك.

فصعد البيه مع (شاهديه) ومن ورائهم المدعى عليهما وعمدة قريتهما إلى المنصة العالية فى إيوان المحكمة كان رئيس القضاة يجلس على المنصة فى المواجهة دخل دار ضيافته وهى مقر المحكمة . كان وجهه نحيفًا كالطائر ولحيته غزيرة كلحية التيس وعيناه ضيقتين وبلا رموش وحمراوين كالقرد وأذناه طويلتين منحنيتين كالحمار وأنفه طويلة معقوفة كالقطا. ويخارج القاعة فوق المصطبة الواسعة بأسفل الإيوان فرشت حصيرة ، وكان يجلس عليها المدعون والمدعى عليهما جنبًا إلى جنب . وبعد أن ضيّق القاضى عينيه الضيقتين أصلاً تمعن فى المدعى والمدعى عليهما ثم سأل حاجبه الذى كان واقفا إلى اليمين فى المواجهة : ماذا ثم ؟ فأجابه : (أتى البيه بشاهديه) قال هذا معظماً للقاضى ومعطيًا له محضر الدعوى الشرعية الذى كان بيده وبعد أن ألقى كبير القضاة نظرة على المحضر نظر إلى البيه وسأله:

– من الذى أعطيته ألفى تنجة ؟ فأجاب البيه مشيرا إلى المدعى عليهما : عبد النبى أخو هذين ثم أكمل كلامه : مات عبد النبى وهذان أخواه وورثاه.

فسأل القاضى المدعى عليهما وهو يتفحصهما بعينيه الضيقتين : هل تُقران أو تُنكران ؟

فقال أحد المدعى عليهما مجيبا وكان يظهر أنه أكبر سنا من الآخر : نحن نقر بموت أخينا لكننا لا نعرف شيئا عن دينه . كل ما نعرفه هو أن أخانا عبد النبى خدم هذا الرجل عشر سنوات بلا أجر وحينما مرض ..

فعلق كبير القضاة شفتيه بلسانه وقال بصوت مفزع :

– لا تطل الكلام هل أنت مقر أو منكر ؟ فأجاب المدعى عليه الأكبر سنا :

– منكر يا صاحب الفضيلة .

وأعاد كبير القضاة نفس السؤال على المدعى عليه الثانى فسمع نفس الإجابة ، ثم نظر بعد ذلك إلى المدعى وسأله:

– هل معك دليل أو شاهد ؟

فأجاب البيه : لدى شاهداى يا صاحب الفضيلة .

وبعد ذلك نظر كبير القضاة إلى صاحبه الذى أعطاه المحضر قائلاً :

– خذهم إلى الخارج فإن اصطلح الجانبان فسو المشكلة وإلا فسوف نحكم وفق الشرع الشريف، فعظم الحاجب كبير القضاة وأخذ منه المحضر قائلاً :

– أجل يا صاحب الفضيلة ، وأشار إلى المترافعين لكى ينهضا للخروج وبعد أن نزل الجميع من المنصة العليا ذات الإيوان نظر الحاجب إلى المترافعين قائلاً :

سوف تتأجل القضية حتى يوم السبت القادم وأمامكما مهلة يومين آخرين ، فإن تصالحتما أعطيناكما ورقة البراءة وإلا فعليكما الحضور يوم الثلاثاء إلى حضرة جناب نصير الشرع والآن أعطيانى مصاريف الدعوى.

وأخرج البيه خمس تنجات وأعطاها للحاجب . فقال الحاجب : هذا المبلغ قليل لأن اليوم وغدا ويوم السبت ثلاثة أيام وعلى كل يوم خمس تنجات ، يعنى لابد من دفع خمس عشرة تنجة.

فقال البيه : خذ منهم أيضًا . ثم قال مخرجًا له تنجة أخرى ومعطيًا إياها له : حسنًا لن أكسر كلامك فقال الحاجب ناظرًا إلى المدعى عليهما – الآن دوركم : ففتح العمدة – وهو المساند للمدعى عليهما – كيس نقوده واقترب إليه المدعى عليه الأكبر وقال له : هل ندفع نحن خمس تنجات ؟

فرد العمدة متعجبًا : أجل هل لا تعلم بتعامل هذا البلد ؟ إلى أن يسوى النزاع يدفع المصاريف بالتساوى كل من المدعى والمدعى عليه وحين ينتهى النزاع ينظر جناب نصير الشريعة فيمن سيتحمل هذه المصروفات . وأخذ اثنتى عشرة تنجة من كيسه وأعطاها الحاجب.

ونظر الحاجب إلى المدعى عليهما وقال : ادفعا للعمدة فقال العمدة : المهم أن ترضى أنت أولاً وسوف نتراضى لأننا معا وتفرق الجمع وذهب كل منهم إلى حال سبيله.

كنت في غـاية الأسف لأن هذا النزاع لم يُسـو اليـوم حـتى أعلم نتيجته وأخذت أفكر في نفسي : (يوم السبت على حضور دروسي فهل يمكنني الحضـور للمـحكـمـة أو لا ؟) لأن عليّ في هذا اليـوم سـتـة دروس كل درس منهـا أحضره في مكان مـختلـف والمسـافـة بـين كل منها لا تقـل عن كيلو متر . صحيح أن لدى درسًا سوف أحضره أمام كبير القضاة هذا ويبدأ في الحادية عشـرة ، لكني لا أعلم هل ستنعقد المحكمة قبـل هذا الدرس أو بعده ؟

أخـذت أعـدو إلى مـدارس دروس السـبت التي على أن أحـضـر دروسها المختلـفة وكنت أود أن أنتهـي مـن حضور دروسـي كلها على عجل حتى لا يبقى أمامي غير درس القاضي فأتوجه إلى منزله بأقصى سرعة ، وكنت أحث الخطى سريعًا يدفعني قلقي حول حضوري مبكرا إلى تلك الدروس وتقصـير زمن الدروس أو عـدمـها فكنت أود بشـدة أن أرى شـهادة الشـاهدين الكاذبين اللذين اشتراهما البيـه . وفي النهاية تلقيت الدرس الذي كـان يسـبق درس القـاضي في المحكمـة وخـرجت وأصبح عدوي وجريي بفائدة . خرجت معجلاً إلى الطريق فوصلت قبل درس المحكمـة بربع السـاعـة وأمـعنت النظر في دائرة المحكمـة . كـان داخل المحكمـة وخـارجـهـا يمتلئ بالمتـرافـعين ، ولكن لم يكن منـهم المترافعان اللذان كنت أريدهما فجلست في مقدمة صفوف زملائي في الدراسـة وأنا أشـعر بالحزن تحت إيوان المحكمة الواقع أمـام مـدخل دار الضيافة حيث يعقد القاضـي جلساته وانتظرت قلقا ميـعاد درسي . وأخذ زملاء المدرسة يتجمعون شيئًا فشيئًا . وخرجت المجموعة التي كانت تسبق مجموعتنا في تلقي دروس القاضي فدخلنا مكانهم إلى دار ضيافة هذا القاضي الكبيرة وكانت قاعة إلقاء دروسه أيضًا ، وأحطنا

بمقدمة دار الضيافة ومؤخرتها وشغلناها كلها جالسين فيها مزدحمين ازدحام النظارة على المنشدين والمداحين فى ذاك العهد ·

ولأنى جئت أبكر من زملائى إلى دار الضيافة وكنت اليوم أول القادمين فى الصف الأول اتخذت مكانى بالقرب من كبير القضاة وفى مواجهته وإلا ما سمح لى زملائى الأقوياء أكتافًا وسواعد بالمرور إلى الصف المتقدم كما حدث فى الأيام السابقة أو كانوا هم الذين يحتلون الصف الأول ولا يدعون المتأخرين فى الحضور والضعفاء جسدا الدخول فى صفهم ، وكانوا يجلسون فى أقرب مكان إلى كبير القضاة لكى يتمكنوا من مشاهدته وسماعه جيدا ·

وكان كبير القضاة فى العادة يعقد جلسة مرافعة بين الدرس والدرس التالى فى أيام الدراسة واليوم وفى وقت مجيئنا نظر إلى الخارج من الباب العالى الذى كان يجلس أمامه قبل دخولنا وطلب عقد جلسة مرافعة وبعد انتهاء هذه المرافعة التى نادى كبير القضاة عليها عاد المترافعون وجلسوا على الحصيرة ، وبعد نهوضهم قدم المترافعون فى الجلسة الثالثة فوجدتهم هم المترافعين الذين أريدهم رغم اطمئنانى على أنى سأحضر مرافعتهم ، صرت من أخمص قدمى إلى منبت شعرى عينًا مثبتة عليهم وأذنا مصغية إليهم · أخذ القاضى المحضر من يد الحاجب وكرر نفس الأسئلة التى ألقاها منذ يومين وسمع نفس الإجابات ·

وحين سأل القاضى البيه (هل لديك مستند أو شاهد ؟) رد البيه : لدى شاهدان·

فقال القاضى : أشر إلى شاهديك ؛ فنظر البيه إلى شاهديه وكانا يقفان وراءه تماما وأشار إليهما بالجلوس فجلسا محيطين بالبيه·

فقال كبير القضاة وهو يهمهم بصوت خفيض : آه ، هذان نفس المؤمنين الطاهرين المسلمين الخالصين الصادقين المقررين ! واعتقدت من كلام كبير القضاة أنه يعرف حقيقة أمرهما فشعرت بالراحة من أنه سوف يكشف زيفهما وكذب شهادتهما وتقاضيهما رشوة بعد أداء الشهادة وسوف يوقفهما ولا عجب إن أمر بحبسهما .

قال القاضى الكبير يستفسر من الشاهدين : هل تعلمان شروط أداء الشهادة ؟

فقال خالق ايشان المستقيم الأنف ورازق خليفة المقوس الأنف مجيبين :

– نعلم يا صاحب الفضيلة نعلم ، فعاد القاضى إلى سؤالهما :

– هل تحفظان كلمة الشهادة بمعناها والواحد عشرين جوابا فرض العين ؟

– نحفظهما يا صاحب الفضيلة ونعيهما .

فقال كبير القضاة إلى الشاهدين : وبما أن الحال هذه أذكر هذه الشهادة وجواباتها واحدة واحدة فأخذ خالق ايشان أولاً وتبعه رازق خليفة فى ذكر هذه الفروض الدينية والشروط المتبعة الشرعية على نحو صحيح ودقيق وسليم لا يمكن أن يتأتى من أى شيخ إمام قط على مسمع من القاضى الكبير والحاضرين فقال كبير القضاة إلى الشاهدين : حسناً أدليا بشهادتكما ، فبدأ خالق ايشان – المستقيم الأنف والذى كان يتقدم الشاهد الآخر قليلاً – بإدلاء شهادته على النحو التالى :

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ، أشهد لوجه الله لا من أجل الرياء أن المرحوم عبد النبى أخ هذين (وأشار إلى المدعى عليهما بيده فى هذا الوقت) كان اقترض أمامنا نحن الأشيبين حين كنا ضيفين على البيه مقيمين فى منزله مبلغ ألفى تنجة أو ما يساوى ثلاثمائة قطعة ذهبية بالنقد الروسى من هذا البيه مقابل خدمته له أربع سنوات آتية . وأدلى رازق خليفة بدوره نفس الشهادة ؛ وبهذه الطريقة (حلل) الخمسين تنجة التى أخذها من البيه.

ونظر كبير القضاة إلى المدعى عليهما وقال خلافًا لتوقعاتى : صارت الألفا تنجة الآن دينًا فى عنقكما وعليكما أيضا دفع مصاريف الدعوى ولابد من أن تدفعا هذه المبالغ فى المحكمة نقدا وإلا أودعتما الحبس ، يمكنكما فى حالة إرضاء البيه أن تتعهدا كتابة بدفع الدين وبإمكانكما حينئذ أن تأخذا أمرا بالإفراج عنكما من المحكمة .

أخذ المدعى عليهما يصيحان (يا فضيلة القاضى) لمحادثة القاضى فأسدل الستارة على الباب الفاصل بين المنصة والحضور ونظر ناحية الطلاب لإلقاء دروسه عليهم ، فتقدم المدعى عليهما باكيين ومرتعدين إلى الباب لكى يحدثا القاضى لكن الحاجب صدهما وزج بهما إلى نهاية صفوف الحاضرين لكن أصواتهما كانت تسمع وهى تحمل سب البيه ودعوات الشر عليه ولم تجد معهما محاولة الحاجب وحرس المحكمة لإسكاتهما بصياحهم (امسكوهما ، قيدوهما ، احبسوهما).

لا أدرى ما يفكر فيه كبير القضاة فقد طأطأ رأسه وصمت هنيهة (لا عجب إن كان يشعر بالألم وتعذيب ضميره بسبب هذا الحكم الظالم) ، وبعد ذلك رفع رأسه ونظر إلى قارىء المجموعة وهو العريف المتقدم لها .

قال : اقرأ . فبادرت إلى محادثة القاضى قبل أن يبدأ قارئ المجموعة فى القراءة قائلاً :

– لدى كلمة يا فضيلة القاضى فسأل كبير القضاة متعجباً : ماذا تريد قوله ؟

فقلت : أنا أعرف هذه الواقعة أى واقعة النزاع الحالى . إن البيه هو المتهم فقد رشا شاهديه وهما لم يريا من قبل البيه أو المرحوم عبد النبى.

وبعد أن مَصَّ كبير القضاة شفتيه نظر إلىَّ برهة وقال :

– إن الشرع ظاهر بين فلا تحاول . لقد أدى الشاهدان المسلمان الكاهلان الشهادة كما يوجب الشرع ، وصار المال ديناً فى عنق المدعى عليهما . أما أنت إذا لم تثبت اتهامك هذا ولم تثبت ارتشاء الشاهدين فمن حق هذين الشاهدين إذا سمعا بأنك طعنت فى أمانتهما أن يرفعا عليك دعوى بالطعن والقذف ، وطبعا لن تستطيع فى هذه الحالة أن تثبت قبولهما للرشوة وكذب شهادتهما بشاهدى عدل مسلمين ، وإذ ذاك سوف تقع فى طائلة العقاب ، فالأفضل لك ألا تجرى وراء هذه الأمور وأن تسعى إلى فهم دروسك .

ولم أجد بعد سماع هذه (النصيحة) مناصاً من طأطأة رأسى والبقاء صامتًا ، وقد انضم إلى عتاب القاضى نظرات زملائى وضحكاتهم المستهزئة بى وكانوا يحسدوننى بسبب جلوسى بالقرب من كبير القضاة فازددت خجلاً وإطراقا ، والحمد لله أن انتهى الدرس. قرأ قارىء المجموعة أو المتقدم عليها عبارة واحدة من الكتاب المقرر علينا دراسته ، وبعد هذه العبارة اشتبك الطلاب فى نقار كنقار الديوك

وانتفجت أوداج كل منهم فى عراك كعراك القطط وأعلى كل منهم صوته ودخل أحدهم فى شجار مع الآخر.

طبعًا نسوا أمرى فى خضم هذه المعركة والصراع المحتدم فاسترحت فترة من تعنيف كبير القضاة وطعن الزملاء ورفعت رأسى هادئًا .

وبعد ساعة من هذه المعركة غير المفهومة وصراخ أحدهم فى الآخر أخذ كل منهم يسب غيره ويشتمه وجاء دور كبير القضاة فى السب والشتم : أيها الحمير ، أيها المغفلون ، أيها الجهلاء اصمتوا اسمعوا الكلام ، لابد من فهم المقصد الأصلى للمصنف رحمة الله عليه . وأجبر صياحه الطلاب على إلتزام الصمت وانتهى الدرس بهذا القدر من السب والشتم وخرجنا من القاعة.

وبعد خروجى من قاعة درس كبير القضاة فهمت من الحاجب أن المدعى عليهما فضلاً عن أنهما صارا مدينين للبيه بمبلغ ألفى تنجة وتعهدا دفع مائة تنجة أخرى مصاريف محكمة أو دار كبير القضاة أودعا الحبس (بتهمة) شتم البيه وتلويحهما بقبضتيهما لضربه..

ولما أدع البيه أو ابنه يتردد ذكرهما على لسانى وما استطعت فعله هو أنى قطعت صلتى بهما تماما علمت شيئًا فشيئًا قصة حياة قارى اشكمبه ، سماه أبوه (عصمت الله) وأرسله إلى المدرسة حين كان صغيرًا أو بعد أن (فك) الخط سلمه إلى أحد المقرئين وبعد أن حفظ القرآن كله أصبح (القارىء عصمت) ، ومات أبوه فى هذا الوقت وورث عنه منزلاً صغيراً وحجرتين تابعتين للمدارس الوقفية لبخارا ، وكان قارى عصمت يقرض بالفائدة الفقراء القريبين منه وأصحاب الدكاكين الصغيرة إيجار حجرتى الوقف للمدرسة وما يكتسبه من ختم القرآن

وقراءته ، وفوق هذين المصدرين وجد مصدرا آخر للاكتساب ذلك هو أنه كان يشجع الصبيان الذين يعرفهم على لعب القمار ، وكان يوزع عليهم مجانًا أوراق الكوتشينة للعب بها وبعد فترة يكون الصبيان قد تعودوا لعب القمار فيلعبونه بالنقود٠

وبدأ دخله من هذا الوقت من لعب القمـــار وكـان يبـيع أوراق الكوتشينة الملونة إلى لاعبى القمار بسعر عالٍ ويحتفظ دائمًا فى جيبه بعلب أوراق اللعب غير المفتوحة وكان إذ زادت أعداد اللاعبين وتطلب لعبهم أوراقًا جديدة كان يبيع لهم هذه الأوراق بأربعة أضعاف ثمنها الذى اشتراها به وكان خلاف هذا يأخذ بسبب لعبهم القمار نسبة من الكاسبين ويعطـــى منها قروضا على أساس أنه كان يقرض الخاسرين من اللاعبـــين حـــتى لا يتعرضوا إلى أن يكونوا (أرقاء) لمن كسبهم ومن لا نقود معهم نقوداً بنسبة خمسين بالمائة فائدة ، ومع هذا فلم يكن ينفق قارى عصمت من هذه الدخول شيئًا على أكله فقد كان يلتهم أطباق الأرز نهاراً مع الساكنين بحجرتيه ، وكان يملأ بطنه من خبز صبيان القمار ليلاً٠

ولم يطل به العهد والصلة بلاعبى القمار الصبيان٠

ذات ليلة راح لعب القمار وزاد واستمر من بداية الليل حتى طلوع النهار ، وفى نهاية اللعب حسب كل واحد من اللاعبين ما كان معه من نقود فرأوا أن بعض الصبيان فقدوا جميع ما معهم من نقود وضاعت نقودهم وأن بعضهم لم يفقدوا ما كان معهم من نقود وحسب بل اضطروا إلى الاقتراض من قارى عصمت ، وأن البعض الثالث كانت

النقود قليلة فى جيوبهم رغم فوزهم لأكثر من مرة أى كانت أقل من المبالغ معهم متعادلة أم غير ذلك.

- كم كان معك بأول الليل ؟ أخذ بعضهم يسأل الآخر

- عشر تنجات :

- وأنت ؟

- عشرون

وحسبوا بهذا النحو كافة النقود التى كانت معهم بأول الليل وضموا إليها ما اقترضه الخاسرون من قارى عصمت وحسبوا هذه المبالغ جميعها فوجدوا أن نصف المبالغ التى كانت معهم بأول الليل ناقص . وعندئذ حار الصبيان قائلين : إذن أين ذهبت نقودنا؟

آه لم نحسب المبالغ التى أخذها قارى عصمت من الفائزين كنسبة متفق عليها ، فقال أحد الصبيان :

فصاح أحد الصبية : صحيح ونظر إلى قارى عصمت وقال له : أخرج ما معك من نقود النسبة حتى نحسبها ونرى هل جملة المبلغ المحسوب هى نفس ما كان معنا بأول الليل أو لا ؟

ولما سمع قارى عصمت هذا الكلام اجتذب إلى جسده أطراف ملابسه بشدة قائلاً :

لا ، لن أخرجها ، لن أرى أحد نقودى . فقال أحدهم بلطف:

- أخرجها لنحسبها ثم نعيدها لك ثانية .

فزاد قارى عصمت لف ملابسه بجسمه واجتذابها له ، وقال محتداً

- لا ، قلت لا.

فقال أحدهم له : لا ؟ لسوف نخرجها منك بالقوة . والتصق به يريد انتزاع ما يخفيه ، ولحق به آخرون لمعاونته.

فتقوقع قارى عصمت فى نفسه كالقنفذ حين يخفى رأسه وأقدامه تحت شوكه وصار قطعة متكورة واحدة ، وأخذ الصبيان يتجاذبونه ويدفعونه إلى كل ناحية لكنه كان يجرى ويختبىء فى كل ناحية كمن يلعب (الاستغماية) لكنهم فشلوا فى فك يديه وقدميه الملتصقتين بجسده ولم يستطيعوا إخراج كيس نقوده منها.

فصاح أحد الصبيان : اضربوه.

وانهالت اللكمات والضربات كالمطر على رأسه وجسمه لكن لم تؤثر لكماتهم وضرباتهم فيه رغم أن دقاتها على جسده كانت مسموعة كصوت قطرات المطر التى تسقط على الإناء النحاسى ، ورفع أحد الصبيان قبضته عالية إلى الهواء ثم هوى بها بقوة على رأسه لكنه صرخ متأوهاً صارخاً ، ووضع قبضة يده إلى فمه وأخذ يمص مكان تألمها ، ثم اندفع قائلاً (طيب يا أسطى) إلى مقدمة المنزل ورفع اللوح الحجرى المستخدم فى لعبة القمار ، وكان يوضع عليه أوراق الكوتشينة وأتى وضرب رأس قارئ عصمت . كانت هذه الضربة شديدة جداً وجرى الدم من رأسه ، فوهنت قوته شيئاً فشيئاً ومد يديه وقدميه وأخرج الصبيان كل ما جناه من مال من الفائزين فى تلك الليلة ووزعوا على كل منهم بقدر ما نقص من ماله عن أول الليل وقرأوا الفاتحة وأخذوا عهداً

على أنفسهم ألا يلعبوا مرة أخرى القمار وألا يدعوا غيرهم من الصبية المعروفين لهم يلعبون القمار.

وأخرجوا قارى عصمت من المنزل لكى يعود إلى داره لكنه لم يقوى على السير ، وكان الدم لا يزال يتدفق من رأسه فسقط مغشياً عليه على الكنبة ، وعلمت أم الولد صاحب المنزل بما جرى فأحرقت قطعة من اللباد وغطت بها الرأس المشجوجة لقارى ثم عقدت رأسه بمنديل وعادوا به إلى منزله ونوموه .

ومن حين أن حرم قارى عصمت من أخذ نسبة من الكاسبين فى القمار صرف كل همته وغيرته إلى أخذ الربا من باعة السوق الجائلين وكسب المال ببيع القرآن والتهام الطعام فى بيوت المقترضين منه وساكنى غرفتيه. ولما زادت نقوده ترك نهائيا الفائدة القليلة من ماله المقرض للباعة الجائلين وكان يخسر شيئًا منه فى عملياته هذه وبدأ التعامل مع أصحاب الدكاكين الكبار والتجار.

كانت نقوده لا تخسر تقريباً شيئًا مع إقراضها للأثرياء لأنهم إذا أفلسوا كانوا يقدمون سداد ديونهم لقارى عصمت أولاً قبل كل شىء ثم يعلنون إفلاسهم أو خسارتهم ويعطون بقية مقرضيهم أموالهم على دفعات مقسطة بقدر ما كانوا يستطيعون .

وعلى حسب قوله حدث فى وقت شبابه أن نقوده التى أقرضها لاثنين من الأثرياء المفلسين كانت على وشك أن تضيع عليه، لكنه تزوج بنتيهما بلا مهر أو نفقات واحتسب مهر الزواج ونفقاته بدل هذا المال الضائع ، وكانت ابنتا هذين التاجرين المفلسين هما هاتين الزوجتين اللتين تعملان بجد وبراعة فى نسيج الطواقى واللتين ستظلان حتى آخر

عمرهما فى منزله.. وبعد أن بدأ قارى عصمت فى التعامل مع التجار الكبار أخذ يملأ بطنه باللحم والدهون ، فكان يتجه كل ليلة إلى منازل عدة التجار المتعاملين معه والمقترضين منه ويلتهم عندهم طعام الأرز المحشو باللحم الطيب والدهون والدجاج المشوى ولحم الخراف المشوية وسائر أصناف اللحوم بقدر ما كان يتسع بطنه ، وعلى إثر هذا النهم أخذ كرشه يزيد ضخامة وسمانة .

وألحق الناس باسمه كلمة (اشكم) أى البطن ونادوه بقارى عصمت اشكم) ولما تجاوز نهمه الحد ولم يكن يشبع من إلتهام الطعام أخذ الناس يسمونه (قارى عصمت اشكمبه) أو الشيخ عصمت كرشة ، وفى هذه الأوقات ضاق البعض ذرعًا بنطق هذا الاسم الطويل ورأوا إيجازه فسموه بقارى اشكمبه.

أثناء تلك الأوقات التى تعرفت فيها على قارى اشكمبه قيل إن (لديه خمسمائة ألف تنجة أى ما يساوى خمسًا وسبعين ألف قطعة ذهبية بالعملة الروسية) ، وفى تلك الأثناء أيضا كان يودع أمواله التى لا يطلبها التجار والأثرياء قروضًا لهم فى البنوك.

فى ذلك الوقت حدثت واقعة كانت على شفا أن تهدم ثقته فى البنوك ، حدثت هذه الواقعة على النحو التالى :

كان أحد البنوك المؤسسة فى بخارا كان بنك (روسكا كتايسكى) الذى كان قارى اشكمبه يودع فيه أمواله ، كان مبنى هذا البنك يقع فى زقاق خلفى يبدأ من نهاية سويقة باعة الثياب ، ويمر من أمام غلاية حمام الصرافين والحارات الضيقة المتداخلة لليهود حتى ينتهى عابرًا تلة (الغربان) إلى بوابة السلخانة.

كان البنك يقفل أبوابه يوميًا بعد عملياته المقررة فى ساعة محددة ، وكـان يقف خلف بوابة البنك من الداخل أحد الحـراس وبيـده هراوة ، وكان يصطحب العملاء الباقين بداخل البنك بعد انتهاء العمل الرسمى إلى خارج البوابة ثم يقفلها ويمنع من بخارج البوابة الدخول إلى البنك وهو يقول لهم (البنك مقفل) ٠

ويعيدهم أدراجهم ، غادر جميع العملاء البنك ولم يبق به غير الموظفين فى نفس هذا الوقت ظهر نحو اثنى عشر رجلاً غير معروفين وكانوا يرتدون الملابس الأفرنجية آتين من خلف الزقاق واصطفوا ملتصقين بأسفل سوره مبنى البنك بحيث كانت تقع عين الحارس عليهم إذا جاء ناحية البوابة ، وتقدم الواقف فى بداية هذا الصف إلى البوابة ودق قبضته عليها ، وفتح البواب البوابة نصف فتحة وقال مجيبًا الطارق : (الساعة اثنان أقفل البنك ٠٠)

لكن الحارس قبل أن يتم كلامه فتح الرجل المجهول البوابة بالقوة ودخلها والتقط بسرعة الهداوة من يد الحارس وهجم الرجال المجهولون كذلك من بعده ودخلوا ٠ وأغلق أحدهم البوابة ووجه الآخرون مسدساتهم إلى الحارس صارخين :

– لا ترفع صوتك ، وطبيعى أن يؤثر الحارس الصمت خوفًا على حياته : فقيد المهاجمون المجهولون يدى الحارس ورجليه وكمموا فاه وألقوه على الأرض وقام أحد هؤلاء الرجال بخلع الملابس عن الحارس ولبسها وأخذ هراوته بيده ووقف يحرس مكانه خلف البوابة بعد أن أنحوه جانبًا ، وأمسك بقيتهم بمسدساتهم وصعدوا إلى أعلى مبنى

البنك حيث كان الموظفون مشغولين بحساباتهم وأعمالهم واقتحموا عليهم مكتبهم قائلين : ارفعوا أيديكم !

– ولم يملك الموظفون عند سماعهم هذه الصيحة المنبعثة من أفراد مسلحين غير رفع أيديهم. ولم يجد بعضهم فرصة لرفع أيديهم وانحبست فيهم الحركة والإحساس وانهاروا من مقاعدهم ساقطين إلى الأرض ، ووقف بعض من هؤلاء المهاجمين المجهولين على أهبة لإطلاق النار من مسدساتهم وأمروا الموظفين بعدم الحركة أو إصدار صوت. أخرج بعض منهم من جيوبهم حبلاً ومناديل فقيدوهم وكمموا أفواههم ورموهم إلى الأرض ، كما قطعوا أيضا سلك التليفون . ثم فتحوا الخزينة وأخرجوا ما فيها من أوراق نقدية وأموال وحشوا بها أكياس البنك المعدة لتكييس المال ووضعوا هذه الأكياس داخل أجولة صغيرة وحملوها ، وبعد أن أعادوا على الموظفين الأمر بعدم إصدار صوت أو التحرك من أماكنهم ، رحلوا هابطين بعد أن تركوا اثنين مسلحين لحراسة الموظفين.

وفتح الواقفون من هؤلاء المهاجمين المجهولين خلف بوابة البنك والذين كانوا يحرسونها بدل الحارس البوابة أمام حاملي الأجولة وأخرجوهم ووقفوا يحرسون البوابة ، وبعد ساعة هبط حراس الدور الأعلى واصطحبوا حراس البوابة وخرج الجميع وأقفلوا البوابة الحديدية للبنك بقفل من خارجها.

ولم يستطع الموظفون المحكمون المقيدون الاستنجاد إلا بعد أن مضت دقائق على التخلص من كماماتهم وقيودهم وكان المهاجمون قد

ابتعدوا عن البنك بعد هذه الفترة ومع صراخ الموظفين واستنجادهم تجمع الناس من حول المبنى المغار عليه ، ولما سمع جنود الدوريات الليلية وعساكر رئيس الشرطة وحرس كبير القضاة والرئيس بما جرى أقبلوا إلى البنك مسرعين.

وحطم المسئولون قفل البوابة ودخلوا البنك واستجوبوا الموظفين عن أوصاف اللصوص وبدأوا في البحث والتفتيش . لكنهم رغم بحثهم في المدينة لم يجدوا شخصًا مشتبهًا به ، وجمع رئيس الشرطة فرسان الأمير الذين كان يطلق عليهم اسم (القاوقاز) للبحث عن اللصوص في أطراف مدينة بخارا فعدوا بخيولهم إلى كل جانب ووجدت جماعة منهم في الشمال الشرقي للمدينة عند شاطئ (البحيرة المالحة) أكياس تجميع الأموال الخاصة بالبنك لكنها كانت خاوية فتوجهت جموع الشرطة إلى هذا المكان وأخذوا في البحث والفحص لكنهم لم يعثروا على أثر لواحد من اللصوص ، إلا أن جماعة صغيرة من الجنود عثرت على ثلاثة من هؤلاء اللصوص بالقرب من محطة (مرغك) على السكة الحديدية جنوب مدينة بخارا وأرادوا القبض عليهم لكنهم جردوا الهراوات واشهروا عليهم مسدساتهم وأطلقوا النار على الجنود . واستمر التراشق بين الجانبين عدة دقائق وأصيب أحد الجنود برصاصة فسقط جريحًا فتخلى الآخرون عن فكرة القبض على اللصوص الثلاثة وانسحبوا إلى المدينة ، وفي النهاية نجا اللصوص من الوقوع في الأسر ولم يعلم أي شيء عن هوياتهم.

بعد هذه الحادثة حدث تغيير في أعمال البنوك في بخارا ومفاده أن أي بنك منها موجود في محيط المدينة عليه ألا يحتفظ بأي مال وأوراق

نقدية داخل خزينته بعد مضى ساعة من نهاية العمل . وكانت الخزينة الرئيسية للبنوك تقع فى مدينة (كاجان) فكان يخرج بالمال المتجمع بعد العمل اليومى حارس مسلح إلى شوارع بخارا ويتجه الحراس المسلحون متجمعين بالأموال والأرصدة لإيداعها فى (كاجان).

بعد حادثة السطو هذه أخذ الناس يرهبون قارى اشكمبه بقولهم (ضاع الآن مالك فى البنك) وكان هو نفسه ضعيف الأمل فى أن يستعيد أمواله لذلك ظهرت عليه علامة الجنون واختلال الفكر ، لكن ما أن فتح البنك المسروق أبوابه واتجه إليه وطلب رصيده حتى أعطاه البنك نقوده فوراً.

وبلا نقاش ، وأمام هذا الصنيع زادت ثقة قارى اشكمبه فى البنوك عن ذى قبل فكان يودع ما يجمعه فى اليوم بالبنك نفسه فى ذات اليوم ويحاول ألا يبقى معه أى نقود زائدة ثقيلة ويسارع إلى البنك بها ، لكن المشكلة كانت كامنة فى الفترة التى تلى قفل البنك أبوابه فى الليل أو النهار فكيف يأمن على المال الذى يأتيه فى هذه الفترة ؟ كان يعيش فى هم مقيم من جهتين أولهما إن ماله سوف يخمد حتى غداة افتتاح البنك بلا فائدة وعمل ثم أنه كان يخشى عليه من اللصوص والسرقة فكان عليه أن يخفى ما معه من مال خوف اللصوص فى مكان لا يعلم عنه أحد شيئًا .

وأخذت أقف شيئًا فشيئًا على سبب اشتباه قارى اشكمبه فى كل إنسان يقترب إليه ، كان يعتقد أن الجميع يتعقبونه وكل إنسان يتحين الفرصة لكى يختطف نقوده من يده.

كان لا يطمئن إلى أحد الناس قط إلا لخفير بناية (القاوقاز) كان هذا الخفير وحده الذى يعلم أين يخفى قارى اشكمبه المال الذى يأتيه بعد أن يقفل البنك أبوابه.

إن قصة اطمئنان قارى اشكمبه لهذا الخفير جديرة بالتسجيل:

ذات يوم كان قارى اشكمبه يمر من أمام بناية القاوقاز وأراد هذا الخفير المزاح معه فأخرج من حافظة نقوده (تنجة) وألقى بها خلف قارى اشكمبــه في شارع البناية حيث سار ثم ناداه وأشـــار إلى هذه النقود قائلاً له :

– يا عم الشيخ ، هل سقطت هذه النقود من كيسك ؟

فصاح قارى كأنه رجل وجد شيئًا مهمًا فقده:

– أين هى ، أين هى ؟ وعاد أدراجه إلى حيث أشار الخفير ولما وقع بصره على النقود التقطها من الأرض قائلاً :

– أجل ، إن كيستى مخرومة وسقطت منها هذه النقود ولولا أمانتك ما وجدتها وأخرج قارى مضطربًا كيسته المخروقة لكى يريها الخفير ثم طواها على ما وجده من نقود وأضاف :

– باركك الـله يا أخــى ، لو وجـد هــذه النقــود واحـد غـيـرك لأخذها لنفسه .

وكان بسبب هذه (الواقعة) أن اطمأن قارى اشكمبه ووثق بهذا الخفير اطمئنانا وثقة عظيمين ، إلى حد أنه بعد هذه الحادثة إذا لزم أن يأتيه مال بالليل من إنسان ما كان يصحب هذا الخفير معه ، وهذا هو نفس ما حدث ليلة أن استعاد قارى المبلغ الذى اقترضه منه ابن البيه

فقد ذهب وعاد بهذا الخفير وأخذ من ابن البيه القرض أمامه وحمل هذا المبلغ الكبير إلى الموضع الذى يخفى فيه أمواله ولا يعلم به سواه غير هذا الخفير.

إلا أن ثقة قارى اشكمبه بهذا الخفير لم تطل كثيراً أيضًا فقد حدثت واقعة فى تلك الأثناء جعلت هذا الخفير يلج صف أسوأ الخونة ، وإذ ذاك تحقق اعتقاد قارى اشكمبه أنه لا يوجد فى الدنيا إنسان يحافظ على حقوق الآخرين وسوف أروى حادثة انهيار ثقة قارى فى هذا الخفير فيما يلى فى موضعها حين يقتضى ترتيبها التاريخى .

(١٠)

لم يكن بمقدور قارى اشكمبه أن يجنى أكثر من تنجتين ونصف تنجة على كل مائة تنجة فائدة شهرية بسبب كثرة المرابين الموجودين فى بخارا ، بل كان مضطراً إلى الرضا بتنجتين أو أقل عن كل مائة تنجة فى الشهر من الأثرياء الكبار الذين كانوا يقترضون منه مبالغ كبيرة لأن جميع التجار الكبار كانوا يتعاملون مع البنوك الروسية وكان بإمكانهم أن يقترضوا منها بفائدة تبلغ ثمانى تنجات عن كل مائة تنجة فى السنة أى أقل بكثير من الفائدة التى يحصلها قارى اشكمبه لكنهم كانوا يضطرون إلى الاقتراض من قارى اشكمبه حين لا يقرضهم البنك مالاً أكثر مما يجب إقراضه لهم على حسب ما لديهم من ممتلكات تضمن حقوق البنك فكان لا يكفيهم ما يقرضه البنك لهم من مال يغطى ما يشترونه فى موسم شراء فراء الوشق وغيره من السلع التجارية الغالية ذات المكاسب العالية ، فى مثل هذه الحالات كانوا مضطرين إلى التعامل مع قارى اشكمبه وكانوا يدفعون له فائدة تربو على ضعفى الفائدة التى كان يأخذها البنك أى تصل إلى الضعفين ونصف الضعف ، وبسبب أن جماعة أخرى من المرابين كانت موجودة فى بخارا وكانت تسمى نفسها (بالصرافين) وكانوا لا يقرضون البقالين والتجار الصغار شأنهم شأن قارى اشكمبه ويقرضون وحسب

التجار الكبار مبالغ ضخمة فكان قارى اشكمبه عاجزا عن طلب فائدة أكثر مما كان يجنيه من هؤلاء التجار الكبار لوجود هؤلاء المنافسين ٠

فى تلك الأوقات كان المرابون أصحاب الأراضى فى القرى يعطون المزارعين الصغار قروضاً تبلغ فائدتها عشر تنجات عن كل مائة تنجة فى الشهر الواحد ، وحين كان يسمع قارى اشكمبه هذه الفائدة كان يسيل لعابه لضخامتها ويحسد المرابين فى الأرياف ويتلوى فى نفسه فى نار الحسد كالشعرة حين تقترب إلى النار ، لكنه كان يخشى من الذهاب إلى الريف وإقامة صلات مع الفلاحين ، وفى الواقع لم يكن يستطيع - وهو الساكن بالمدينة والواقع تحت حماية الحكام المركزيين والتجار الأثرياء الكبار والذى يشك فى كل إنسان - أن يجازف بالذهاب إلى الريف حيث يوجد المزارعون الخطرون ومنافسة المرابين فكان يقول بين نفسه : (لست أحمق حتى أذهب إلى الريف على أمل الفائدة الكبيرة وأضع حياتى وأموالى التى هى أغلى من حياتى تحت رحمة الخوف على تلفهما) ولهذا كان يقنع مضطرا بفائدة التنجتين والنصف عن كل مائة تنجة فى الشهر من البقالين والتجار الصغار وبالفائدة القليلة من التجار الكبار فى المواسم التجارية ، كما كان مجبرا على أن يضع الفائض من ماله فى البنك بفائدة سنوية تبلغ خمس تنجات٠

وكان قارى اشكمبه أكثر سخطاً على البنوك من المقترضين منه لأن البنك - على حسب قوله - يفوق الجميع خسة مع هذا الكم الكبير للمتعاملين معه ، ففى الوقت الذى يعطينى البقالون وأصحاب الدكاكين كل شهر تنجتين ونصف تنجة فائدة شهرية عن المائة تنجة يعطينى فى السنة خمس تنجات فائدة)٠

وإذ ذاك يتذكر الفلاحين الفقراء الذين يعطون المرابين عندهم عشر تنجات شهريا عن كل مائة تنجة فيسمى الواحد منهم (حاتم عصره) وكان يقول فى نفسه : (البركة فى الريف ولو سهل الله فلسوف أقيم علاقة مع المزارعين وإذ ذاك أشبع من الفائدة وأزيد الفائدة القليلة التى أحصلها من هذا البنك البخيل عشرة أو خمسة ضعفا من هؤلاء المزارعين الفقراء القانعين)۰

فى هذه الأثناء حدثت واقعة فتحت الطريق إلى الريف أمام قارى اشكمبه لإقامة العلاقات مع الفلاحين ، ففى أحد الأيام – على حسب عادته المقررة – كان يصلى صلاة الصبح فى مسجد (مغاك) فى بخارا، وقبل الصلاة أخذ يتلو الأوراد والأدعية ثم صلى بعد ذلك صلاة الإشراق ، ثم خرج من المسجد والمسبحة بيده وجلس على مصطبة أمام المسجد وانشغل فى قراءة الترتيل والأوراد والتسابيح۰

فى هذا الوقت قدم أحد الفلاحين وكان متوسط الطول يزيد عمره عن سن الشباب ويرتدى ثياب الفلاحين المساكين وكأنه يعرف قارى ورفع يده بالسلام معظما مبدياً احترامه وجلس على مصطبة أخرى أمام المسجد وهو مطرق الرأس لكنه كان ينظر إلى قارى بطرف عينه۰

واعتقد قارى اشكمبه أن هذا الفلاح كان أحد المترددين على الصلاة بهذا المسجد وأنه يظن أن قارى هو شيخ هذا المسجد ويريد أن يؤدى إليه نذره لكنه ينتظر أن ينتهى من قراءة أوراده وتسابيحه فأخذ يرفع صوته فى قراءة أدعيته ويجود فى ترتيلها ويقرأ كالقراء محسنا نطق مخارج الحروف العربية وأخذ يدير حبات مسبحته كما يفعل النساك الهنود بحذق ومهارة۰

وبعد أن عاين آثار ترتيلاته فى الفلاح ورآها حققت غرضها بسط يديه وقرأ الفاتحة ومسح بهما وجهه ثم رد سلام الفلاح وقال :

(أخى إذا كان معك نذراً أو قرباناً فهاته فأنا أقبله منك نيابة عن حضرة الخضر الذى يحضر فى هذا المسجد الصلوات الخمس)٠

فأجاب الفلاح : ليس معى نذر أو قربان لكنى أريد الاقتراب منك .

فقال قارى مستفسراً : حسن جداً ما دام الأمر هكذا فكم تنجة تريد اقتراضها وكم تدفع فائدة ومن الذى يضمنك ؟

فى هذا الوقت أخذ العطارون الذين تواجه محلاتهم المسجد وتحيط به فى التجمع واحداً بعد الآخر وأصاخوا السمع إلى كلام قارى مع الفلاح قبل أن يبدأوا فتح دكاكينهم٠

فاضطرب قارى لما رآه وهو الذى يخفى معاملاته المالية بل الحديث عن المال والنقود عن كل شخص فقال للفلاح قبل أن يسمع منه الإجابة على سؤاله:

انهض يا أخى وسر ورائى لنذهب إلى أحد الأماكن الخالية ونهض من مكانه واتجه مباشرة إلى ناحية الشرق وسار صوب سويقة باعة الشاى وبعد سيره بضع خطوات انثنى راجعا نحو اليسار إلى الزقاق الخلفى للحلاقين ، وبعد بضع خطوات أخرى دخل الميضأة الواقعة إلى شرق هذا الزقاق الخلفى ، ودخل الفلاح أيضاً هذا المكان فى إثره٠

ومع أن الوقت إذ ذاك كان لا يزال مبكراً وبعيداً عن صلاة الظهر ولا يحتمل أن يدخل هذه الميضأة أحد للتطهر والوضوء إلا أن قارى اشكمبه للحيطة أقفل باب الميضأة من الداخل وجلس على كتبة بها وجلس الفلاح بجانبه وأعاد نفس السؤال الذى سبق أن طرحه عليه :

حسن جدا ما دام الأمر هكذا فكم تنجة تريد اقتراضها ؟ وكم تدفع فائدة ؟ ومن الذى يضمنك ؟

وبعد أن قصّ عليه الفلاح أنه يمتلك فى قرية (بولة خوران) قطعة أرض تبلغ خمسة أفدنة وأن أرضه هذه تقع بين أراضى مملوكة لمن يسمى السيد روزى عمدة قرية (سنج سبز) وكيف أن هذا الرجل اتحد مع رجل آخر من قريته اسمه السيد حميد لكى ينتزع منه ظلمًا أرضه وجرّاه إلى دعوى ظالمة وانتهى أمرهم إلى المحكمة استمر يقص حكايته قائلاً :

وبعد أن كلفتنى هذه الدعوى والقضية نفقات خمسمائة تنجة انتهت القضية بالأمس بالبراءة فاقترضت هذا المبلغ من (القهوجى) الذى يعمل بالمحكمة على وعد بأن أعطيه مع كل أذان خمس تنجات أى أننى اقترضت المبلغ بفائدة يومية مقدارها خمس وعشرون تنجة ، وصار علىّ مع أذان صبح هذا اليوم مبلغ خمسمائة وخمس وعشرين تنجة ولو أعطيتنى هذا المبلغ غدًا فسوف أدفع خمسمائة وخمسين يعنى المبلغ الذى ستدفعه لى يتوقف على ميعاد إعطائه قرضًا لى ، أما كم أدفعه من فائدة فهذا يتعلق باختيارك وإنصافك لقد وصفوك لى بأنك مرابٍ منصف .

رأى قارى اشكمبه هذا الرجل (خروفًا سمينًا ، سعى إليه بقدميه) فسال لعابه وانفتح حلقومه . لكنه ارتاب فى سبب نجاة الخروف هذا (الخروف) من مخالب (ذئاب الريف) وأتى إلى (ابن اوى المدينة)، وقال مفكرًا بينه وبين نفسه : (لعل بداخل هذا الشراب اللذيذ سمًا زعافًا ويريد أندادى الحاسدون الإيقاع بى) فسأل الفلاح يستفسر حول هذا الخاطر :

(أليس فى قريتك مراب صادق القول ويعرفك حق المعرفة ويقف على أملاكك ويقرضك حتى أتيت إلىَّ فى المدينة ؟) .

– فى قريتنا مرابون منهم السيد روزى والسيد حميد اللذان رفعا علىَّ دعوى جائرة باتهامى وغيرهما كثيرون ، لكن هؤلاء المرابين لا يقنعون بأخذ الفائدة على قروضهم بل يأخذون أيضاً أرضى رهناً إذا أقرضونى وبعد أن تزيد ديونى ينتزعون أرضى منى وأخسر أنا الجلد والسقط .

– أنا أيضا إذا أقرضتك سوف آخذ أرضك رهناً .

– خذ أنت أيضا أرضى رهناً لكنك لن تأتى قريتنا وتقوم بفلاحة الأرض ولذلك فلن تسعى نهائيًا للحصول على أرضى وتملكها . أرسلونى إليك بناء على هذه الميزة التى عرفوها لى فيك .

– حسناً ، كم تدفع فائدة شهرية عن كل مائة تنجة ؟

فقال الفلاح : أعطيك فائدة مقدارها خمس تنجات فى كل شهر عن كل مائة تنجة .

فرد قارى : لا ، إن اعطيتنى عشر تنجات شهرياً عن كل مائة تنجة سوف أقرضك ما تريد وإلا فعد إلى هؤلاء المرابين الذين يطمعون فى أرضك واقترض منهم .

– مرابو قريتى ومنهم السيد روزى طلبوا عن كل مائة تنجة عشر تنجات فى كل شهر ونتيجة لهذه الفائدة الثقيلة سوف أفقد أرضى ؛ ولهذا رفضت عرضهم ، فقيل لى إنك (مراب منصف ترضى بتنجتين ونصف فائدة شهرية عن كل مائة) أرسلونى إليك . ومع أنك منصف

إلا أننى تعهدت بأن أعطيك ضعفى الفائدة التى تأخذها من المقترضين منك من أهل مدينتك . فإذا طلبت منى عشر تنجات فلن أستطيع بالتأكيد أن أدفع هذه الفائدة الباهظة وسوف أضطر من أجل سداد قرضك فى النهاية إلى بيع أرضى إلى نفس أولئك المرابين .

– عليك أن تسلك طريقة بحيث (لا يحترق السيخ ولا يحترق الشواء) أى لا تضيع أرضى منى ولا تحرم نفسك من ضعفى الفائدة المقررة في مدينتك فإذا لم ترض بمطلبى فالأفضل أن أطلب القرض من أولئك المرابين فى قريتى حتى لا يزيدوا فى عداوتهم لى وكما قيل (يستريح المقطوع إذا قطعته الفأس) فسوف أعيش مستريحاً بعد أن أفقد أرضى.

– واستأنف القروى يجيب السؤال التالى لقارى اشكمبه (ومن هو ضامنك) بقوله :

(ما دمت سوف أرهن أرضى لك بوثيقة من القاضى فما الحاجة إلى ضامن يكفل حقوقك ؟ فإذا لم أستطع أن أسدد نقودك بعت أرضى وأخذت نقودك . وإنما الضامن لابد من وجوده حين لا يعطى المقترض إلى مقرضه شيئًا رهنًا أو لا يكون لديه شيء يرهنه) أطال الفلاح حواره مع قارى اشكمبه الجشع وأراد النهوض فقال :

– يا عم الشيخ طلبى هو بالضبط ما أقوله لك إذا رضيت عنى وأردت إقراضى فسوف أتعهد بأن أدفع لك كل شهر خمس تنجات فائدة عن كل مائة تنجة وهذه الفائدة (أكلة دسمة) فإن أردت فكلها وإلا تركتها للكلاب القرويين أو مرابى القرية ، لك الخيار) .

– وقال هذا ونهض واقفًا لكن قارى أجلسه ثانية وقال بلهجة راضية : حسنًا ، أريد أن آكل (أكلتك الدسمة) لكنى أود منك أن تصب فوق هذه الأكلة قدرًا قليلاً من السمن أى تضم إلى التنجات الخمس تنجة واحدة أى تزيد كل مائة تنجة ست تنجات فى الشهر حتى لا تضيع نقودى سدى مع هذا القدر من الفائدة .

وسوف أدعو لك عقب كل صلاة بالخير مقابل هذه التنجة الزائدة ، ومدّ يده إلى الفلاح قائلاً : (تعال ووافق وبارك الله لك !).

فصافح الفلاح يد قارى ولم يجد بأسًا من زيادة تنجة واحدة حتى لا يغضب (سيده) الجديد وقال :

– بارك الله لك أنت أيضًا . ثم أضاف : إذن فالتصرف على هذا النحو أن أذهب إلى منزل القاضى وأرهن باسمك الأرض بوثيقة منه وتعطينى المبلغ المطلوب حتى لا تزيد فائدة القهوجى .

فقال قارى اشكمبه وهو ثائر قليلاً : أنت إما أن تكون ساذجا أو خدّاعا ! أنا لم أر أرضك ولم أسأل أحدا عن أحوالك فكيف أسلمك مالى بناء عن وثيقة جوفاء ؟

إن المال ليس روحًا يفتدى بها صاحبها كل من هب ودب وفى أى مكان وزمان.

– معك حق متى تأتى وترى أرضى وتتفحص حالى ؟

– خلال هذه الأيام الثلاثة القادمة.

– عمى الشيخ رحماك بى ، تعال بأسرع من هذا حتى لا تزيد فائدة القهوجى . تعال إلى قرية (بولة خوران) واسأل (أين هى أرض

همراه رفيق ؟) فسوف يدلك عليها كل أهالى القرية من سن السابعة حتى السبعين وسوف ترى أن خمسة فدادين قد زرعتها كأنها جنة أمام المنزل.

- سوف أحاول أن آتى بأسرع ما يمكنني ، لكنى لن آتى معى بالنقود إلا بعد أن نسوى الأمر فتأتى أنت المدينة وتأخذها ، قال قارى اشكمبه هذا ونهض من مكانه وخرج الاثنان معًا من الميضأة. وأعاد (همراه رفيق) التماسه من سيده بضرورة التعجيل فى المجىء إلى القرية وافترق الرجلان على هذا ومضى كل منهما إلى شأنه.

كان يجتذب قارى اشكمبه إلى السفر إلى الريف حرصه على الحصول على فائدة قدرها خمس تنجات شهريا عن كل مائة وهى فائدة تساوى ضعفى الفائدة التى كان يأخذها من أهل مدينته. من ناحية أخرى كان يشجعه على هذا (السفر المهول والخطر) وجود نائب القاضى وهو أحد أصدقائه المقربين فى قرية (جلة آسيا) التى كانت تتبعها قريبًا (سنج سبز) و (بولة خوران) . بل إن التأخر عن هذه الرحلة كان يبدو له مقلقًا لأنه - حسب رأيه - لم يكن يستبعد أن ذئاب القرية إذا سمعوا باتفاقه مع ابن قريتهم يخفضون قيمة فائدتهم عن فائدته ويخطفوا (ذلك الخروف السمين من قبضة ابن آوى الحضرى هذا) وبناء على هذا فقد ترك لأول مرة فى حياته صلاة الصبح فى مسجد مغاك وتلاوة الأوراد فيه وغادر بيته فى السحر متجهًا إلى طريق الريف.

كان يسير على قدميه ورغم بدانته المفرطة فقد كان يمشى شبه مهرول فى طريقه حتى يلحق بنائب القاضى قبل أن يخرج من منزله

ويتجه إلى مبنى النيابة فى قرية (جلة آسيا) لكى يطبخ معه أمره فى منزله بتوافق ، ثم يسوى بعد ذلك أمره مع (همراه رفيق) فى حضوره أيضا .

وحين وصل قارى اشكمبه إلى (جلة آسيا) اتجه مباشرة إلى منزل النائب فرآه راكباً جواده أمام منزله وهو يتأهب للتحرك ومغادرة القرية وحين وقعت عينا النائب على قارى اشكمبه ترجل من فوره عن جواده وأسرع إليه حتى يلاقى صديقه القديم لقاءً حاراً وشديد الاحتفاء ، لكن إسراعه لم يكن يفترق شيئا عن سرعة السلحفاة لأنه كان كشأن قارى اشكمبه ضخم البطن بدينا ، كان لحمه بأسفل ذقنه وبقفاه كثير البروز بحيث سوّى بين عنقه وبطنه وكاهله ، الفرق الوحيد بينه وبين قارى اشكمبه هو أنه كان صغير الرأس خفيف اللحية وقدماه أقصر من قدمى قارى أما بسبب بدانة جسده أو ورمهما فكانتا تبدوان كقاعدة العمود الضخم.

كان شكله الظاهرى بهذه الصفات والسمات للنائب أشبه بجوال يمتلئ بالقمح أقفلت فتحته وربطت بحبل فظهرت رأسه الصغيرة فى الحقيقة بأعلى جسده الضخم هذا الذى كان قطعة واحدة مستوية من قدميه حتى عنقه كالفوهة الصغيرة المعقود أسفلها بحبل البارزة بأعلى الجوال الملىء بالقمح .

ولما تلاقى هذان الصديقان وأراد كل منهما احتضان الآخر لم يستطع ملازمو النائب وموظفوه أن يمسكوا أنفسهم عن الضحك لأنهما باحتضانهما كانا أشبه بقدرتين ضخمتى التكور وضعت إحداها فى مواجهة الأخرى ولم يلتق وقت احتضان أحدهما بالآخر غير سُرتيهما

ورغم سعى كل منهما لتنفيذ عملية الاحتضان هذه فلم تبلغ يداهما إلى جنب كل منهما لأنهما كانتا أقصر من أن تلتفا حول جسدهما الضخمين السمينين وبطنيهما الأكرشين.

وبعد هذا اللقاء المضحك أدخل النائب صديقه فى دار الضيافة أمر أهله بإحضار الفطائر والرقاق والخبز الملبّن وطبقًا من اللحم المطبوخ ، ومن بعد ذلك أمر بتحمير دجاجتين سمينتين له فى التو والحال . ثم استفسر من صديقه عن سبب قدومه غير العادى إلى الريف فقال :

– مُرْهُم بإحضار الشاى حتى أزيل وعثاء السفر عنى بكوبى شاى وأعد بطنى لالتهام خبزك ثم أروى لك فيما بعد سبب مجيئى إلى الريف ، إن سيرى مترجلاً مسافة فرسخ أرهقنى بحيث لا أقوى على الكلام الآن.

– ألم ترهق بدنك الرقيق فى هذا الجو الحار وطويت سائرًا على قدميك مسافة فرسخ ؟ لماذا لم تستأجر دابة لتركبها ؟ لماذا لا تحتفظ فى منزلك بدابة تفيدك فى مثل هذه الظروف؟

فقال قارى اشكمبه : إنك تتحدث كالسذج المرتاحين من الناس . كيف يجيز الرجل العاقل على نفسه أن يهب ماله الذى يحصله بكثير من المشقة لمؤجرى الحمير والأكارين من أجل ساعة راحة ؟

أنا لا أسمح بأن يدخل بيتى منشار فى شكل (أسنان) وأنت حضرتك ترى من صلاح أمرى الاحتفاظ بحصان أو حمار فى بيتى وما هما إلا مخربين سالبين لما فى البيت.

وفى هذه الأثناء أتى الخادم بالخبز والشاى واللحم ومَدّ أمام قارى اشكمبه أرغفة الخبز (المرحوح) ، ولما رأى قارى طبق اللحم والخبز الساخن توقف عن الكلام ومد عنقه وفمه ويده ناحية اللحم والخبز كأنه بقرة جائعة كانت مقبلة بنهم على (الكُسب) فلم يكن يرفع ناظريه عن الخبز المخبوز باللبن واللحم حتى أنه نسى الشاى الذى طلبه لإزالة تعب السفر.

وأنهى النائب حواره مع ضيفه ودخل فى تناول اللحم وأخذ يقطع قطع اللحم الدهنية بسكينه ويلفها بالخبز الساخن ويلقى بها فى فمه ويبتلعها دون مضغ.

ورأى قارى اشكمبه هذا الفعل من صاحب الدار فقرب إليه الطبق وسأله بفم يغص بالخبز واللحم : هل لم تتناول إفطارك حتى الآن ؟

- احضروا لى وقت الصباح دجاجتين مشويتين لكن بسبب أن زوجتى التى شاركتنى الطعام كانت مسدودة الشهية غير مقبلة على الأكل فقد سدت نفسى عن الأكل ؛ فأكلت دجاجة واحدة بالقوة وأعطيت الأخرى إلى الخدم ، لابد من وجود مثلك ليشاركنى الطعام حتى تنفتح شهيتى .

- لكن لا يلزمنى لفتح شهيتى أى واحد يشاركنى الطعام خاصة إذا كان شريكا مثلك يأمر بالطعام من أجلى ثم يلتهمه هو . إن شهيتى مفتوحة دائما بالفطرة ولا تحتاج إلى من يشجعها على الأكل .

رأى قارى اشكمبه أن مُشاركه الطعام قد أحدث فجوات فى طبق اللحم وهو منشغل بالكلام فزاد الطبق إليه اقترابًا وانحنى بكل رأسه الكبيرة وعنقه الضخم فوق طبق اللحم كأنه صقر بسط جناحيه على حمامة اختطفها بمخلبه فجعل الطبق كله تحت تصرفه.

ربما اعتبر صاحب المنزل جذب الطبق ثانية إليه من أمام ضيفه مخالفًا لآداب الطعام فلم يمد يده إلى الطبق ، لكنه أبعد الخبز (المرحوح) إلى ناحية من المائدة واستند نازلاً على ركبتيه فاقترب إلى الطبق وأدخل رأسه الصغيرة تحت رأس قارى وعنقه فصار أكثر إنحناءً وقربا إلى طبق اللحم من قارى وظهر فى هذا الوقت هذان الصديقان كأنهما بقرتان تحرثان متعاونتين يشد رأسيهما نير واحد وكما أن البقر بسبب عملها معاً ينشأ بينها الائتلاف والائتناس فتأكل جميعا فى مزود واحد مع إن إحداها لا تنطح الأخرى وقت التهام العلف أى أن كل منها يدفع بشدة رأس الأخرى فتبعدها عن المزود كذلك كان شأن هذين الإنسانين فقد اقترب كل منهما أكثر إلى الطبق برأسه وعنقه وضيق على زميله وأراد أن يستحوذ على أكبر قدر من الطعام .

لم يكن النائب يفترق عن قارى اشكمبه فى النهم والشره للطعام ، لكن هناك فرقًا بينهما وحيداً كان يتمثل فى أن قارى اشكمبه كان يملأ بطنه دائما من بيوت الناس ، من بيوت المقترضين منه ومن ساكنى غرفتيه من ولائم البيوت ومن الطعام المقدم فى المساجد ومن طعام المتعاملين معه من أصحاب الدكاكين ولم يكن يتذوق قط طعاما مجهزا على نفقته فى منزله ، أما النائب فقد كان يحشو بطنه من ولائم ملاك الأرض وأثرياء القرى لكنه كان يجهز الطعام فى منزله بإنفاق جزء من أسلابه التى يحصلها من الفلاحين الفقراء وكان طعاما يمتلىء باللحوم والدهون وكان يستضيف أصدقاءه مثل قارى اشكمبه وزملاءه كما تتوجب الضيافة ويقدم لهم الطعام موافقا المثل (اقطع الطريق وأسلب ثم أنفق منه على الناس) .

وبعد أن التهم المضيف والضيف الدجاج المشوى بشهية البقر الجائع انتهيا من تناول الطعام وأتى دور تناول الشاى ، وأثناء تناولهما الشاى قصّ قارى اشكمبه سبب قدومه إلى الريف والاتفاق الذى أبرمه مع همراه رفيق ثم استفسر من النائب عن أحوال هذا الفلاح المذكور.

فأجاب النائب : إنه فلاح متوسط الحال نشط وفعال ويمتلك خمسة أفدنة مزروعة وثورا يعمل وبقرة . ثم أضاف : وهو رجل صادق الوعد ساذج سريع التصديق ولهذا فقد هرب من مرابى الريف وسقط فى شراكك فكان (كالمستجير من الرمضاء بالنار).

فضحك قارى اشكمبه من الكلام الأخير للنائب قائلاً : بل قل إن جاموسة شابة تمتلىء باللبن وتدر لبنًا وفيراً وكثيراً سقطت فى يدك وأضاف : لكن مثل هذا الرجل الساذج الغافل لو أن نداً أضله عن الطريق وأفسد نيته فكيف العمل إذ ذاك ؟

فأجاب النائب : فى مثل هذه الحالة فإن الوثيقة الشرعية المهورة بخاتم القاضى الكبير تقع تحت تصرفك كالسكين الماضية القاطعة وأنا الذى أجعل هذا السكين تعمل فى هذه النواحى فاسلخ بها جلده وأفصل عنقه ورجليه وأعطيها لك هذا هو واجبى .

– إذا كان الأمر هكذا أرسل من يستدعى همراه رفيق على عجل واكتب لى وثيقة بامتلاكى أرضه وأعود أنا إلى المدينة وآتى بالنقود فلو تأخرنا أخشى أن غيرى من المرابين يختطف هذه اللقمة الثمينة الناعمة التى أوشكت على أن تدخل فمى.

- لابد من الذهاب إلى تلك القرية وتسوية الموضوع والوثيقة بين سادتها وكبرائها وقد روى هذا المثل (قابل السادة وانهب القرية) ، والأمر الذى يتم دون علم كبار الملاك والعلية فى القرى لا يثمر نتيجة طيبة .

فقال قارى اشكمبه : فليكن ما تقول ، ولنعجل بالذهاب إلى قريته.

فقال النائب وهو يأمر حرسه بإعداد الخيول : فلنذهب.

توجه النائب ومجموعة حراسه وقارى اشكمبه إلى الطريق المتجه إلى قرية (بولة خوران) ، ولم يكن قارى قد ركب من قبل فى حياته حصانا ، ومع هذا فقد تعمد النائب بهدف السخرية به أن يركبه حصاناً جموحًا نافراً شاباً لم يروض بعد وخرجوا إلى الطريق فكان الحصان يجمح ويلعب ويريد رفس بقية الخيل وكان حينًا يقف على قدميه الخلفيتين ويرفس ويركل بقدمه الأماميتين فى كل اتجاه وكأنه يريد بحركاته أن يصد هجوم الخيل الآتية من خلفه . فكان قارى اشكمبه فى هذه الحالة يتشبث بكلتا يديه بقوس السرج ويصرخ (الحقونى يا ناس) ثم يأخذ فى سب النائب وقرية بولة خوران وهمراه رفيق ، وفى النهاية يسب نفسه لأنه ارتكب حماقة بمجيئه إلى الريف بأقذع الألفاظ . كان يقول متحسراً (سأموت بعيداً عن أموالى الموجودة رغبة فى زيادة مالى) فكان اتباع النائب يضحكون عليه ويسخرون منه.

إذا لم يكن فى الحقيقة الفاهم طبيعة الحصان الحرون والمروض له من أتباع النائب يتقدم راكبًا حصانه أمام حصان قارى اشكمبه ويمسك بقبضة قوية سير لجامه ويكبح جماحه ويسيطر عليه بمهارة وقوة لألقى

هذا الحصان الجامح النافر فى أول لعبة بقارى اشكمبه من فوق ظهره إلى جانب الطريق أو أسقطه فى مزرعة ولقى حتفه.

ولما وصلت جماعة النائب إلى قرية (بولة خوران) أزداد الضحك والسخرية أكثر مما سبق بالتلاعب بقارى فقد كان النائب يسبق بحصانه حصان قارى ويضربه بسوطه فيزيد هياجًا أو يجعل حصانه يعض حصان قارى فى دبره فيجعل هذا الحصان الجامح يزيد جموحًا .

أما عمامة قارى اشكمبه الطويلة العريضة فقد صارت على غير صلاح وترتيب فقد التفت لفات كثيرة حول عنقه والتوت أطرافها وحلقاتها كالأحيولة حول جسمه وانتشرت أطراف ثيابه إلى كل ناحية وزادت اضطرابا.

ولما سمع أهالى قرية بولة خوران بمجىء النائب خرج جمعهم إلى ناصية الطريق لاستقبال هذه المصيبة المباغتة ، كانت هذه المرة هى الأولى فى حياتهم التى يستقبلون فيها حاشية النائب وهى مستغرقة فى الضحك والسرور ، وكانت ضحكات هؤلاء والضوضاء والجلبة التى يحدثها أطفال القرية وضحكات الأهالى وصيحاتهم تزيد حصان قارى اشكمبه هياجا وثورة . ولما دخلت الجماعة دار عمدة القرية وهو السيد حميد ترجل النائب وأتباعه عن خيولهم . وأحاط بضعة منهم بحصان قارى فسكنوا من هياجه وحملوا على أيديهم قارى المسكين من فوق سرجه ووضعوه فوق الكنبة الأمامية المشرفة على حوض الدار ، وأثناء إنزال قارى اشكمبه من فوق حصانه وإجلاسه فوق الكنبة كان صراخه وأنينه يؤذى المشاعر لأن ثيابه الداخلية التى التصقت تماما بأسفل

فخذيه البدينتين والناعمتين واللتين لم تتعودا ركوب الخيل انحشرت داخلهما النصف الخلفى من ثيابه وصار العارى من فخذيه وساقيه يحتك بسرج هذا الجواد الجامح الهائج فى كل حركة وتحريكه فكان فى كل فترة يتمزق قدر من جلدها ويفضى هذا به إلى عذاب أليم.

جلس النائب وصحبه فى صف على الكنبة الطويلة الأمامية . لكن قارى اشكمبه لم يقو على الجلوس مستويًا بسبب الجروح التى أصيب بها بين فخذيه وبهما . فأعد له أمام الكنبة موضع مستقل وخاص به ليجلس به . بسط له أربع وسائد كاملة الحشو ليجلس فوقها وأحاطوها من كل جانب بمساند فكان قارى يستند وهو جالس على الوسائد بجنبه هذا وجنبه ذاك أو يعتدل ويستند إلى السند خلفه.

وتقدم علية القرية إلى الكنبة الطويلة الأمامية وأخذوا أماكنهم بجانب الضيوف ، وبعد أن رحب السيد حميد العمدة وصاحب الدار والمضيف بضيوفه أتى وجلس على الكنبة المتأخرة وأتى أتباعه بحمل سمين إلى مقربة من الكنبة الأمامية وعلى مرأى من النائب وذبحوه وكان هذا الذبح تعظيما من قبل عمدة القرية فى حق نائب كبير القضاة . بعد هذا وزع أتباع العمدة أمام الضيوف أقراص الخبز الكبيرة وعليها الخبز الملبّن والفطائر التى تمتلىء بالدهون والفاكهة المتنوعة ، كما رتبوا وضع غلايات الشاى وأكوابها أمامهم وأثناء تناول الطعام واحتساء الشاى نظر النائب إلى عامة الفلاحين الممزقى الثياب وكانوا يستندون فى نهاية الجلسة على الأشجار والجدران واقفين على أرجلهم ولم ير وسطهم همراه رفيق فسأل حميد العمدة : أين همراه رفيق إنه لا يظهر بين الناس ؟

فأجاب العمدة : إنه فلاح نشيط لا يضيع وقته عبثا لابد أنه يقوم بتذريه قمحه فى الحقل ٠ إذا كنت تريده فى أمر أبعث من يأتى به لك٠

– ابعث له ، هذا أفضل

أمر العمدة واحداً من الجالسين فى نهاية المقاعد لإحضار همراه رفيق ، وكان يفكر فى نفسه قائلاً (ماذا يريد منه النائب ؟) وفى النهاية سأله :

– ماذا حدث من همراه رفيق ؟ هل تبين قتله لتورة مراد ؟

فأجاب النائب السؤال الثانى للعمدة : لا ، لا ، ثم أضاف : تم التراضى بينه وبين جناب قارى (وأشار إلى قارى اشكمبه) حول إقراضه مالاً وتحرير وثيقة برهن أرضه فى اتفاق مبدئى ، وجئنا اليوم لكى نحرر ونؤكد فى حضوركم هذا الاتفاق المبدئى٠

وحين سمع العمدة هذه الإجابة رفع يده مشيراً إلى قارى اشكمبه وأحنى رأسه قليلاً مظهرا احترامه لكن تغيراً ظهر فى وجهه كان ينبىء عن عدم رضائه عما فعل قارى ونظر إلى النائب بنفس نظرته هذه فقال بقلب غير راضٍ:

– حسن جدا ، لكن فى القرية أى أرض أو حديقة أو منزل يعرض للبيع فأول من يخطر لشرائه أقرب مالك لهذا العقار المراد بيعه فإذا رفض هذا المالك الجار شراءه فللبائع الحق فى أن يبيع ملكه لمن يريد ، وهذا هو نفس حكم الشريعة وأنت أعلم به منى ، ولكن بما أن السيد قارى أتانا شارياً فقال أنت بدور الإشراف بين البائع والمشترى فلقد كفيتنا فعل ذلك ، ولن نقف أمام ما فعلت فقال النائب : أنا لم أقم بدور الإشراف بينهما ، لم ير النائب مناسبا أن يغضب منه عمدة القرية وهو

واسطته فى نهب الفلاحين الفقراء وسلبهم ، فقال : إنه همراه رفيق نفسه الذى أدرك عدم تحمله رؤية وقوع أرضه فى يد جيرانه فذهب إلى المدينة ولا أدرى من الذى أشار عليه بذلك واتفق مع السيد قارى ، وأضاف النائب لطمأنة العمدة : يجب أن تعلم هذا الأمر أن السيد قارى أو أى رجل من الحواضر والمدن وتقع مدينته على بعد من قريتكم وتملك أرضا عندكم فلن يتسطيع أن يعمل بالفلاحة ، وحين يعجز المقترض عن أداء دينه بعد أن تراكمت عليه الفوائد المركبة لهذا الرجل (قارى اشكمبه) فالبتأكيد سوف يبيع هذه الأرض ويأخذ ماله٠ وفى هذا الوقت يكون الأمر تحت تصرفكم فتعطى الأرض لمن تراه مناسبا لشرائها من أهل القرية ، وعلى أية حال فلن يصيبكم ضرر من وصول السيد قارى إلى قريتكم أنت أو أحد الكبار غيرك فهذا الرجل مبروك الخطو واليد ٠

ثم سأل النائب العمدة فى نهاية كلامه : من هو جار أرض همراه رفيق ؟

فأجابه السيد حميد : السيد روزى عمدة قرية (سنج سبز) وأشار بيده إلى السيد روزى حين كان يدخل بوابة منزله فى ذاك الوقت مضيفا ٠

- ها هو قد شرفنا بنفسه٠

حين وصل السيد روزى إلى المقاعد الأمامية نهض جميع الجالسين من مجالسهم تعظيما له ، فتقدم إلى الصف الأول للحضور وصافح النائب وقارى اشكمبه واتباع النائب واحدا واحدا وفى النهاية صافح صاحب الدار وجلس فى الموضع الأسبق والمتقدم عن مكانه الذى أشار

إليه له ، فلم يقم روزى بمصافحة بقية كبار القرية واكتفى بإحناء رأسه قليلاً إليهم.

أتى خدام العمدة حميد من الهدايا التى قدم بها العمدة روزى بجوال من الشمام وفطيرة معدة بالزبد كبيرة وبداخلها أربع دجاجات مشوية ووضعوهما أمام المقاعد الأمامية ، وفتحوهما أمام النائب ، فاحتفظ النائب بدجاجتين منها أمامه وأمام قارى اشكمبه وأعطى البقية الأخريين ليوزعوهما بينهم ويأكلوها .

لعل هذا الصنيع الذى بدر من النائب قد بدا غير معقول لقارى اشكمبه لأنه وهو حالما كانت يداه مشغولتين بتقطيع لحم الدجاجتين أمامه وقذفه داخل حلقه لم تغمض عيناه عن الدجاجتين التى وزعت على الجالسين أمامه على أمل أن ينال أيضا لحمهما لكنه كان يزداد حسرة مع كل قطعة تنقص أمامهم .

وبعد أن أكلوا الدجاج المشوى أتى فوق أقراص الخبز الكبيرة الخروف المشوى وصارت ليته وأحد جانبيه نصيب قارى اشكمبه والنائب .

وفى النهاية جمع المتبقى من الخبز والعظام الممصوصة وألقيت إلى الكلاب ونثر الفتات أمام الطيور وأعطى الفلاحين الفقراء قطع الخبز الأكبر والعظام التى تبقى بها نتف من اللحم وكانوا يقفون أسفل الأشجار والجدران كأنهم متفرجون على هذه الوليمة حتى (همراه رفيق) الذى أقيمت هذه الوليمة على شرف نهبه وسلبه واستدعاه النائب على وجه الخصوص لم يُدْعَ إلى المشاركة فى تناول الطعام .

وبعد هذا الطعام الساخن وأثناء تناول الشمام روى الاتفاق بين قارى اشكمبه وهمراه رفيق النائب إلى السيد روزى الذى كان متعلقا بأرض هذا الفلاح ، وبعد جمع قشور الشمام ورميها أمر النائب بإحضار همراه رفيق أمام المقاعد الأمامية .

أتى همراه رفيق إلى الواجهة وجلس فى ناحية مطرقًا ، نظر حميد إلى النائب وقال :

- لم نكن موجودين حين تم الاتفاق بين السيد قارى وهمراه رفيق فتفضل وأرو هذا الاتفاق في محضر السيد روزى حتى يسمع الكبار والصغار فى القرية بما تم ويقفوا عليه ويصبحوا شهودا أحياء عليه .

وبعد أن روى النائب حكاية هذا الاتفاق سأل همراه رفيق :

- كم تريد قرضا من السيد قارى ؟

- لا أدرى ، ما أعرفه هو أننى اقترضت من القهوجى خمسمائة تنجة ووصل هذا المبلغ إلى خمسمائة وخمسين تنجة بعد إضافة فائدة يومين إليه.

وأعاد النائب سؤاله : يعنى تريد أن تقترض منه (٥٥٠) تنجة ؟

- هو كذلك

- هل لديك نقود للنفقات الأخرى ؟

- ليس معى قرشًا أسوداً ثم سأله رفيق : وما هذه النفقات الأخرى هى أيضا ؟ فأجاب النائب بلهجة ساخرة وهو ينظر إلى رفيق :

– يبدو عليك أنك رجل ساذج . أولاً حتى يوقع جناب القاضى الكبير الوثيقة وتأخذ المال من قارى فسوف ينقضى يوم ثالث ويصبح عليك للقهوجى (٥٧٥) تنجة ، أليس كذلك ؟

فأجاب رفيق : بلى ، هو كذلك .

– ثم انظر إلى السيد روزى الذى أتعب قدميه وحمل معه طعاما مع هدايا كبيرة وأتى من أجل مصلحتك ألا يجب أن تعطيه (حق قدميه) خمسا وعشرين تنجة ؟

– فأجاب رفيق السيد حميد قائلاً : لابد من إعطائه .

– مع هذا المبلغ يصل ما تريده إلى ستمائة تنجة . ألن تعطى السيد حميد الذى جهز لإتمام مصلحتك وليمة ضخمة وكان عمدة قريتك ورئيس الأحياء والأموات لك أربعين تنجة ؟

فأجاب رفيق السيد روزى : لابد من إعطائه .

– وصل المبلغ بهذا الحساب إلى (٦٦٠) تنجة . وألن تعطى الخمسة الكبار فى قريتك الذين حضروا فى مجلس الخير هذا وهم الشهود المخلصون لهذه المعاملة تعطى كلاً منهم تنجتين ؟

فأجاب السيد حميد : يعطيهم .

فقال النائب : الآن بلغ المبلغ المطلوب اقتراضه (٦٥٠) تنجة ، ثم تابع قوله : وألن تعطى كُتّابى وملازمىّ من أجل الحصول على خاتم كبير القضاة خمسين تنجة أخرى ؟

فرد حميد مقاطعا : هذا المبلغ قليل على ختم الوثيقة ونفقات النيابة فهى لا تعد شيئا لكافة هذه الأتعاب ولابد من أن يدفع مائة تنجة .

فقال النائب وهو ينظر إلى رفيق : يلزمه دفع مائة تنجة ولكنى راعيت قسوة ظروف رفيق وصدقه فسامحته فى خمسين تنجة وأملى ألا ينسى جميلى هذا ويدعو بالخير لحباب القاضى الكبير وفى حقى ثم تابع قوله :

بلغ المال المطلوب بهذه الخمسين تنجة سبعمائة . وبناء على الاتفاق الذى أبرمته مع السيد قارى ومفاده أنه يأخذ على كل مائة تنجة فى الشهر ست تنجات فائدة فإن فائدة المبلغ كله فى الشهر اثنتان وأربعون تنجة وفى السنة (٥٠٤) تنجة . فإذا جمعنا هذا المبلغ إلى أصل المبلغ الذى تريد افتراضه وهو (٧٠٠) تنجة يصبح الحساب (١٢٠٤) تنجات.

وتابع النائب كلامه إلى رفيق بعد هذا الحساب ليوضح شروط الوثيقة :

- إذا أخذت من السيد قارى سبعمائة تنجة فإن فائدتها السنوية خمسمائة وأربع فإذا جمعت المبلغين صار حاصل الجمع ألفا ومائتين وأربع تنجات هى ثمن الأفدنة الخمسة ملكك تبيعها بيعاً شرعيًا لهذا الرجل ، فإن سددت فى آخر العام هذا المبلغ كله استرجعت وثيقتك وتظل أرضك بيدك ملكا خالصا . وإن سددت آخر العام فائدة المبلغ وحسب مايجرى حكم هذه الوثيقة أيضا على السنة التالية وكذلك على السنة الثالثة والرابعة . وإذا امتنعت عن أداء فائدة المال أو أصله فللسيد قارى الحق فى انتزاع كافة الأرض منك.

وبعد شرح النائب هذه الشروط سأل رفيق:

- كلامى صحيح ؟

– كلامك صحيح . قالها رفيق حينما ظهرت على وجهه أمارة الارتياب وعدم الراحة بعد ذلك سأل النائب قارى اشكمبه :

– وما رأيك أنت ؟

فرد قارى بحسم شديد:

– أنا أعتبر حسابكم غير دقيق.

فسأل النائب بلهجة مستغربة : لماذا ؟

– لأننى أتسلم فى نهاية كل شهر فائدة المقرضين منى فى مدينتى وأبقى هذه الفائدة للمقترض بفائدة ثانية ، وبناء على حسابكم فسوف تبقى فائدة الشهر الأول وهى اثنتان وأربعون تنجة أحد عشر شهرا بلا فائدة ، وتبقى أيضا الفائدة عن الشهر الثانى عشرة شهور بلا فائدة وهكذا فينتج لى ضرر عظيم.

ولما سمع النائب هذا الكلام زال عجبه وقال : الآن فهمت كم تقدر فائدة فائدة مالك بناء على حسابك فى سائر العام ؟

– فائدة فائدة هذا المبلغ التى أسميها فى رأيى (الحفيد) للمبلغ لو حذفنا الكسور حتى يعى الفلاح الحساب هى فى السنة الواحدة (١٦٥) تنجة .

فقال النائب : يعنى هذا أن همراه رفيق حين يأخذ منك سبعمائة تنجة سيكتب القاضى المبلغ المقترض على أنه (١٣٦٩) ثم سأل : أليس كذلك ؟

فقال قارى : هذا المبلغ بالتقريب لكن إذا حسبنا المبلغ بدقة فيلزم أن أقرض همراه رفيق (١٤٠٠) تنجة.

كان همراه رفيق يجلس صامتًا حتى تلك اللحظة ، وكان يفكر في عاقبة أمره على أثر هذه الحسابات التي لم يكن يتوقعها . ولما سمع آخر كلام قارى اشكمبه وهو محصلة نهاية قرضه هاج وماج مرة واحدة كأنه حزمة حطب ينبعث منها حتى تلك اللحظة الدخان فاشتعلت دفعة واحدة بهبوب عاصفة قفز من مكانه ووقف وخاطب أهل المجلس : (إذا كانت نيتكم هي إحراق بيتي فاحرقوه مرة واحدة وإذا كانت نيتكم بيع أرضي فخذوها ووزعوها بينكم واطردوني أنا أيضا من القرية . وإذا لم ترض قلوبكم بهذا فأحملوني وارموا بي في سجن الأمير أو علقوني على المشنقة ولكن مع كل هذا فأنا لا أستطيع أن أرضى بهذا الحساب طواعية مني واختياراً .

ولم يكن يعرف ماذا يريد قوله لكن حلقه اختنق بسبب هيجان أنفاسه وتجمع في فمه الزبد والرغو فبصقها وركن إلى الصمت.

ولما رأى أهل المجلس حالته هذي أخذوا يضحكون بشدة وبعد أن انتهى ضحك الجميع بدأ حميد يخاطب رفيق:

– أخي رفيق ، وقال كلمته بلطف ، لك أن ترضى أو لا ترضى ولن يغصبك أحد على الرضا ولن يضغط عليك أحد حتى تقبل لكن لا تعكر دمك ، اجلس في مكانك واسمع كلامي.

– فجلس رفيق في مكانه متأففا ، ونظر إلى الأرض وتابع حميد كلامه: هل أنا الذي جلبت إليك هذه المصائب أو أنه السيد روزي أو السيد النائب أو جناب قاري ؟

فلم يجب رفيق على هذه الأسئلة أو أنه لم يكن عنده إجابة أو كانت لديه إجابة لكنه لم يجسر على التفوه بها بعد سكون غضبه وظل على حاله مطرقا صامتا .

وتابع حميد كلامه :

– ما أعلمه وأعرفه أنك حينما توجهت لزيارة الشيخ بهاء الدين النقشبندى فى الربيع الماضى صاحبك فى سفرك الخادم اليتيم عند السيد روزى وهو (توره مراد) ، عدت فى اليوم التالى ولم يعد بصحبتك توره مراد، ولما سألوك عما جرى لتورة مراد وأين ذهب قلت : (لا أعلم ، انفصل عنى فى الطريق واتجه إلى ناحية أخرى) ، لكن شاع بين الناس أنه ربما قمت بقتل توره مراد فى السفر وألقيت بجثته فى الطريق وانتهبت ما معه من مال ومع هذا فلم أجرك أنا والسيد روزى إلى المحكمة عملاً بالحكمة القائلة (الظن يفترق عن اليقين) . وأراد سيادة النائب أن يتغاضى عن هذه الجريمة مراعيًا خاطرنا لكن لما وصل هذا الخبر إلى القاضى الكبير ورئيس دورية بخارا أمرا بالقبض عليك فاضطر النائب إلى القبض عليك وإرسالك إلى المدينة وحبسوك بجريمة القتل ، وكان ذنبى وذنب السيد روزى ء إننا جرينا وراءك لأيامًا عديدة وخلصناك من الزندان بعد دفع خمسمائة تنجة نفقات القضية وإلا فأما أن تقتل أو تدفع فدية تقدر بعشرة آلاف تنجة أو أن تظل بقية عمرك حبيسا حتى تموت فى حبسك .

– فقال روزى مقاطعًا كلام حميد : الذنب الآخر الذى ارتكبناه هو أننا دفعنا قهوجى المحكمة إلى إقراضك خمسمائة تنجة لكى تنجو من السجن .

واسترسل حميد قائلاً : اتضح لك وللجميع إذا أننى أو السيد روزى لم نصنع بك شرا ؟ هل أرسلناك إلى جناب قارى ؟

فلم ينبس رفيق ببنت شفة كأنه لم يسمع هذا الكلام ولم يرفع نظره عن الأرض ٠

وقال النائب يسأل رفيق ويكلمه : هل أرسلتك أنا أيضا إلى جناب قارى ؟

ولم يجب رفيق أيضا ٠

فقال النائب وقد نهض من مكانه إلى نصف قامته ومحتدا : انظر إلى وأجبنى ، إنى أسألك هل أرسلتك إلى جناب قارى ؟

فقال رفيق : لا ، لم ترسلنى ولم يرفع نظره عن الأرض .

فقال النائب : إذن قل من الذى أرسلك إلى جناب قارى وأجب بوضوح .

فأجاب رفيق : ذهبت إليه من نفسى .

– كذبت ، وهل كنت على معرفة سابقة بجناب قارى ؟

فقال حميد : قال له إمام قريتنا الذى على معرفة سابقة بجناب قارى قال له (اذهب إليه واقترض منه بفائدة أقل وتنقذ أرضك من استيلاء أهل قريتك عليها) وأرسله إليه٠

فقال النائب : نادوا على الإمام ! لماذا ساعده على هذا الفعل الظالم ؟

فقال حميد مجيبًا على النائب : لقد أنَّبناه على فعله هذا ولا أدرى هل غضب أو خجل فترك المسجد وارتحل ؟

فقال قارى اشكمبه يحتمل أن يكون قد غضب بسبب ضم فائدة الفائدة إلى المبلغ ثم توجه إلى رفيق بالكلام : إذا كان الأمر كذلك أعطنى كل شهر فى نهايته فائدة هذا الشهر وقدرها اثنتان وأربعون تنجة وسوف تتخلص من دفع (١٦٥) تنجة فائدة زائدة عن العام

فقال رفيق : أنى للفلاح الكادح دفع مبلغ من المال كل شهر ، لا يجتمع فى يدى طوال السنة إلا فى وقت واحد وهو جنى القمح والشمام.

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا تغضب كل هذا الغضب وتهتاج ؟ تذكر أنك عطلتنى عن أعمال وبكيت حتى أتيت بى إلى هنا ومع هذا تشتكى من الجميع وأنا من بينهم ، لو رجعت عن اتفاقك فأنا مستعد للعودة إلى المدينة وتصرف أنت مع القهوجى.

ولما قال قارى اشكمبه كلامه هذا تأهب للعودة . لكن همراه رفيق لم يكن يقوى على الرجوع عن اتفاقه لأن قرض القهوجى إذا استمر حتى عشرة أيام فسوف يبلغ حدا لن يستطيع سداده إلا بعد بيع أرضه لروزى ، فلم يكن أمامه مناص من القبول لهذا خاطب قارى بلهجة لطيفة قائلاً :

- فهمت كل حساباتك وليس أمامى غير قبولها لكن ضم (٣١) تنجة بلا سبب معلوم إلى (١٣٦٩) ليصير المبلغ (١٤٠٠) آلمنى كثيراً .

- فرد قارى : هذا المبلغ المضموم ليس بلا سبب أيضًا لأننى أتناول الطعام فى منازل المقترضين منى فى المدينة فى كل يوم أو يوما بعد يوم . وطبعا فلن آتى إلى الريف وأطلب منك إطعامى لهذا زدت الواحد والثلاثين تنجة بدل هذا الطعام . ولو دعوتنى لتناول طعامك كل

يوم أو يوما يعد يوم كما يفعل المقترضون فى المدينة فلسوف يزيد هذا المبلغ حتى يبلغ فى السنة أكثر من ألف تنجة • لكنى رحمتك ورفعت عن كاهلك هذا المبلغ الضخم ورضيت بالواحد والثلاثين تنجة•

- فقال حميد لقارى : تعال وتغاض عن هذا الأمر إن طعام الفلاح لا يتعدى الشمام والخيار والثوم والبصل ويتوجه همراه رفيق إلى المدينة لبيع هذه الخضروات فيعطيك بدل ضيافته لك جزءا من هذه الخضروات بلا ثمن .

ورضى قارى اشكمبه وحرر النائب الوثيقة ووعد بأن يختمها بالغد من القاضى الكبير ويأتى بها ثم يأتيه همراه رفيق بالغد ويأخذ منه الوثيقة ويتوجه بها إلى قارى اشكمبه فيعطيها له ويأخذ منه القرض المتفق عليه ، وبعد أن يسدد ما عليه من دين إلى القهوجى يعطى ما بقى من المبلغ إلى حميد لكى يقسمه على المعنيين بناء على الاتفاق الذى تم •

نهض النائب ومعه أتباعه وقارى اشكمبه يزمعون العودة وركبوا خيولهم فاصطف أهل المجلس بجانبى الطريق لكى يمروا من بوابة المنزل • ولما خرجت جماعة النائب من البوابة قدم مسرعًا أحد الشباب نحو النائب ، وقال : لقد حضر تورة مراد الذى كانت غيبته سبب خراب بيت همراه رفيق•

فلم يبذل النائب كبير اهتمام إلى هذا الخبر بل اصطنع عدم الفهم • فرفعت عامة الفلاحين أصواتهم فى جلبة وضوضاء وأخذوا يصيحون من كل ناحية (بعودة توره مراد صارت التهمة بلا أساس وظهر أن همراه رفيق لم يقتله • فيلزم الآن استعادة النفقات من الحكام التى تكبدها رفيق فى حبسه حتى ينجو من خراب بيته)•

ولم تمر فترة طويلة حتى وصل تورة مراد وأخذ يحكي لأهالي القرية عن سبب غيابه لكن همراه رفيق أسرع وأخذ بيده قائلاً : تحكي لهم غيبتك في وقت آخر ، هلم معي الآن وأظهر نفسك للنائب وقل إنني لم أقتلك.

فأسرع تورة مراد وألقى السلام على النائب وقال رفيق له:

– أسأله بنفسك عن هذه الشائعة هل قتلته أو هل كنت أعرف إلى أين ذهب فاضطر النائب إلى سؤال تورة مراد:

– كنت غائبا فأين كنت ؟

فقال تورة مراد : خدمت خمس سنوات في منزل السيد روزي ولم أرتد خلالها رداءً جديدا ولم أشبع مرة . وفي هذه الأثناء سمعت بمرض أختي الساكنة في عزيز آباد فطلبت من سيدي أن يعطيني خمس تنجات لكي أذهب وأرى أختي وأعود فلم يعطني شيئا . فتألمت من فعل هذا السيد هذا كثيرا وقررت في نفسي الهروب من خدمته. ومع أنني رافقت في سفري همراه رفيق فلم أكشف له عن وجهتي وتركته حتى لا ينقل إلى سيدي شيئا عني فيرسل شخصا في عقبي ويعيدني إليه. ولما سمعت باتهام همراه رفيق بقتلي ورميه في السجن قلت (ليكن ما يكون) وجئت لإنقاذه.

فقال السيد روزي للنائب : هل تسمح لي سيادتك ؟

فسأله النائب : ماذا لديك ؟

– لقد أنفقت في دفن والديّ هذا الولد مائتي تنجة كما أنني أطعمت هذا الولد وكسوته وربيته حتى كبر وبدلاً من أن يساعدني

ويسدد لى ديونه بخدمته التافهة لى ركن إلى الفرار . وألتمس منكم عقاب هذا الولد بحبسه حتى يعتبر به الأولاد العصاة .

ومع أنه بلغ الحائط طولاً فلو أبدى ندمه فدعه لى حتى أجعله يخدم فى بيتى ليسدد ديون دفن والديه وديونه هو نفسه.

حسنًا جداً ! قال النائب كلمته هذه إلى روزى ونظر إلى حراسه وأمرهم بقوله

– اعقدوا أيدىَ هذا الولد على ظهره واتركوه يجرى مترجلاً أمام حصانى وأحبسوه فى سجن دار النيابة.

ونفذ هذا الأمر فى الحال . وأثناء تنفيذ أمر النائب زاد حزن عامة الفلاحين لحبسه عن حدّه وهم الذين كانوا قد سعدوا بعودة تورة مراد على أمل إنقاذ همراه رفيق وقالوا : (انقلب الأمر من السيىء إلى الأسوأ) ، لكن تورة مراد كان يضحك وهم يقيدون يديه . فقال يسأله رفيق : إن أصحاب القلوب يبكون دما بسبب حبسك فلماذا تضحك وأنت فى حالتك هذه ؟

– عمرى الآن ثلاثون عاما وكان عمرى حين لحقت بخدمة هذا السيد خمسة وعشرين عاماً أى كنت فى ميعة الشباب وإن كان القدر قد جعلنى أنمو بدون لحية وشارب وسبب ضحكى هو أن الأغنياء السابقين كانوا يسرقون كدح خدامهم وكدهم لكن سيدى سرق منى عمرى فيسمينى (ولدا) . والعجب الآخر هو أن النائب قلد كلام هذا السيد وسمانى أيضًا (ولدًا).

– فقال قارى اشكمبه : لا تزال رائحة اللبن تخرج من فمك لكنك تدعى أن عمرك ثلاثون سنة . لكن النائب لم يدع طول لسن تورة مراد

يمضى بسكون فأمر حراسه بأن يضربوه بالسوط وأن يتقدموا ويعجلوا بالابتعاد عن الفلاحين.

– ونفذ أمر النائب أيضًا وابتعدت جماعته عن القرية ، أما أهالى قرية بولة خوران الذين كانوا استقبلوا جماعة النائب بالضحكات والجلبة بسبب ركوب قارى اشكمبه لحصانه المثير للضحك والسخرية قد ركبهم الغضب بسبب خراب بيت همراه رفيق وحبس تورة مراد المباغت فودعوا هذه الجماعة باللعن والسباب.

(١١)

أثارت زيارة قارى اشكمبه للقرية غضب مرابيها خاصة (روزى) الذى كـان أكـبـر مـرابى قـريتى سنج سـبـز وبولة خـوران ٠ فلم يكن بمقـدوره أن يقرض الفلاحين المحـتـاجين للقرض بـأقل من الفـائدة التى كان يأخذها قارى اشكمبه٠ كما أنه من ناحيـة كـان حرصــه الشديد لا يسمح له بأن يأخذ فائدة أقل من ثمانى تنجات شهريًا عن كل مائة إن لم تزد إلى عـشر من الفلاحين ، ومن ناحـيـة ثانيـة كان مـاله غير كاف بالدرجة التـى يمـكن بها منافسـة قارى اشكمبه الذى كـان يفوقه مـالاً وأرصدة ، وفوق هذا فقد كان المقصد الأساسى له من تعامله مع فلاحى قـريتـه بالربا هـو أن يحـصل على أراضـيـهم وجـعلهم عـبـيـدا أرقـاء له ، ويصعب تحقيق هذا الهدف كثيرا ويستغرق وقتا طويلاً أيضا بتحصيله فـوائد قليلة منهم ، بل لو خـفّض الفـائدة التى يجنيـهـا عن فـائدة قـارى اشكمـبـه فلن يثنى هـذا الفلاحـين عن التوجـه إلى اشكمبـة أيضـا لأنهم كانوا موقنين بأنه لن يترك المدينة وسطوته وأمواله بها ويأتى إلى الريف ليعمل فى الفلاحة التى لا يقدر عليها ؛ ولهذا فإنه لا يطمع فى أراضيهم ولا يفكر فـى امتلاكـهـا ، أمـا (روزى) فـهـو الذى بإمكانه أن يستـولى على أراضـيـهم إن عـاجـلاً أو آجـلاً ، ولم يكن بمقـدور (روزى) أن

يقصى اشكمبة عن الريف والفلاحين باستمداد قوة السلطة المحلية أو بتدبير المكائد ضده لأن نائب كبير القضاة كان الصديق المقرب لاشكمبه الذى لا يتوانى عن الدفاع عنه والمحافظة عليه عند وقوع أى مكروه له٠

كان لدى (روزى) حصان ، وبعد فترة اشترى حصانًا آخر وربط الاثنين على مزود واحد وفى حظيرة واحدة ، وكان هذان الحصانان فى البداية يتقاتلان وقت تناولهما الشعير والعلف ويأخذ كل منهما يرفس الآخر ويركله ولا يدعه يهنأ باعتلاف كم كبير من العلف ٠ وبعد مدة أخذ كل منهما يأنس بالآخر ويتآلفه حتى ساد بينهما الوئام فكانا يقتسمان العلف والشعير بوداد ورضا حتى إن أحدهما إذا شبع قبل الآخر كان هذا الشبعان يعض برفق بأسنانه ويحك برأسه برقة عنق المشغول بالعلف وكفله . وكان لروزى أيضًا كلبان ومع أنهما كبرا منذ صغرهما فى مكان واحد وتربيا فى حظيرة واحدة فلم يكن أحدهما يأنس بالآخر ولا يقبل وجوده وما أن كانت عظام تلقى أمامهما حتى يبدءان فى التقاتل والمعارضة وضراوة الاشتجار فلا يدع أحدهما الآخر يهنأ بتناول نصيبه بهدوء بل كان كل منهما يصيبه الآخر بجراح شديدة فى رأسه ووجهه فلا يستطيع أن يكسر العظم بأسنانه وينشغل بلعق جراحه٠

وتعلم روزى العبرة من صفات هذه الحيوانات وأراد أن يستخدمها فى العلاقة بينه وبين اشكمبة فقال فى نفسه (لو تعاملت مع قارى اشكمبه بمعاملة الكلاب فلن يستفيد أحدنا أو كلانا نعم الاستفادة من كدح الفلاحين ، لكن لو تعاملنا معًا بمعاملة الجياد فسوف نحتظى كلانا منهم بما نتمنى ونشتهى)٠

وبهذا الحكم والقرار توجه إلى قارى اشكمبه وتصالح معه واقترح عليه بأن يقترض منه للفلاحين المحتاجين بفائدة قدرها ثلاث تنجات فى

الشهر عن كل مائة ويأخذ له من كل منهم عقداً شرعيًا ببيعهم له أراضيهم على أن يحصل روزى منهم على كل مائة ما بين ثمانى إلى عشر تنجات فى الشهر لصالحه. ولو حدث أن ضاع ماله عند أحد من الفلاحين فإن روزى سوف يتحمل هذا المبلغ الضائع بالكامل له ، ومع هذا فقد كان شره اشكمبه الذى يماثل شره الكلاب يثور به فيقول لروزى مظهراً عدم رضاه (أنا صاحب المال الذى تقترضه إليهم منى آخذ عن كل مائة تنجة فى الشهر ثلاثًا فائدة وأنت الذى لا تدفع من مالك سيئًا تحصّل من وراء أموالى مجانًا ما بين خمس إلى سبع تنجات عن كل مائة فى الشهر ؟ هذا ليس إنصافًا) فيحكى له روزى مجيبا على اعتراضه فعل الجياد مع بعضها وفعل الكلاب ويقول له : (كن يا جناب القارىء جواداً فى تعاملك ولا تكن كلبا) فتسكته إجابته.

فى الحقيقة كان قارى اشكمبه سعيدا من هذا الاتفاق الذى أبرمه مع روزى ، لأنه بهذا الاتفاق يضمن أن يحصل بلا أدنى قلق وخوف من ضياع جزء من أمواله حين يستثمرها بفائدة خمسة بالمائة فى البنوك فى السنة على فائدة أكبر من الفلاحين تصل اثنى عشر ضعف فائدة البنك ، وكانت هذه الفائدة أمل حياته .

وكان روزى بدوره راضياً بهذا الاتفاق لأنه سوف يحصل على كثير من أراضى القرية بالبيع الشرعى عن طريق تشغيل أموال قارى اشكمبه غير المحدودة ، وكان بإمكانه ضم هذه الأراضى جميعًا عند سنوح الفرصة المناسبة ، إذ إنه بناء عن أخذه الحجج والوثائق على الفلاحين بمشورة نائب القاضى ومطالبتهم بسداد قروضهم عند الطلب وليس بعد المدة المحددة بعام أو أكثر وعلى أساس هذه الوثائق كان يطالب الفلاحين الفقراء وقت ضيقهم وفى غير مواسم حصاد الغلال بما له عندهم من مال فلا يستطيعون بالطبع سداده فينتزع منهم أراضيهم.

وكان أول ضحايا هذين الكلبين اللذين صارا حصانين همراه رفيق لأن اشكمبه طلب - بناء على إلتماس روزى - ماله من رفيق وقت ضيق العام فلم يستطع اداءه ، وبهذا استطاع أن يبيع أرض رفيق وهى خمسة أفدنة تساوى عشر آلاف تنجة إلى روزى بأربع آلاف تنجة ويأخذ ماله هو منه.

ومن كثرة تحرك عروق الشره الكلبى فى قارى اشكمبه بين الفينة والأخرى مع كل صفقة وإظهاره الحسد والحقد عند تحصيل روزى مكاسبه وفوائده ، أراد روزى إشراك اشكمبه كمراقب ومشاهد فى جلسة مرافعة مع الفلاحين كان يعقدها فى منزله حتى يرى بعينيه ما يحدث ويوقن بمبلغ الصعوبة التى يلقاها روزى مع الفلاحين ويقف على ما ينفقه ويخسره من مال بسبب ولائم هذه الجلسات وغيرها ؛ لهذا وجه دعوة الضيافة لقارى اشكمبه يوم جلسة من هذه الجلسات واستقدمه إلى منزله.

كان الوقت إذ ذاك صيفًا وكانت جميع مزروعات الأرض قد نضجت واستوت ولم يكن الفلاحون قد جمعوا محصولاتهم بعد. كانت البراعم قد تفتحت وامتلأت الثمرات والدرنات وتعلقت كيزان الذرة بعيدانها وأخذت أغلفة كيزان الذرة لونها الأصفر وكان لون أوراق الخضراوات كالبصل والبطيخ والخيار والشمام تستلفت عيون الناظرين إلى الفرجة عليها وكانت ثمرات الشمام التى اكتسبت لونها الأصفر تختطف الأنظار وقد أطلت بين سيقان أشجارها المتفرعة الممتدة هنا وهناك بلونها الأخضر والتى لم يصبها الذبول والاصفرار فى مثل هذا الوقت من العام بدل أن ينشغل الفلاحون بجمع بواكير محاصيلهم فى مزارعهم وأراضيهم تجمعوا أمام منزل عمدتهم عمدة قرية سنج سبز

السيد روزى وقفوا هناك كالمنتظرين أمام منزل المتوفى على جانبى بوابة المنزل فى صف طويل مستندين إلى السور يلفهم الحزن والهم. أما بداخل المنزل فكان الأمر مختلفا فقد كان ينبعث منه أصوات المزاح واللهو والسرور كأن حفل عرس مقام به.

فى الواقع لم يكن حفل عروس منصوبا إذ ذاك فى منزل روزى بل وليمة كحفل العرس أقامها روزى وكان الوردة الأكثر علوا فى سلة هذه الضيافة هى قارى اشكمبه ونائب القاضى الكبير المقيم بالقرية الكبيرة (جلة آسيا) السيد (خواجه شكمبنده) . وقد ملأ الأماكن الشاغرة فى هذه الوليمة الواسعة أتباع النائب والطفيليون وهم أثرياء قرية سنج سبز وبولة خوران . وبعد أن طعموا المطاعم وشربوا المشارب قال النائب للعمدة روزى :

– لنبدأ الآن فقد مضى الوقت.

فقال روزى ناهضا من جلسته : حسن جدا، واتجه إلى طاقة بحجرة الضيوف وأخرج منها صندوقا صغيرا وفتحه وأخرج منه لفة لأوراق وأعطاها للنائب.

فتح النائب هذه اللفافة وكان بداخلها كثرة من الحجج والوثائق مطوية بعضها بداخل الآخر. ألقى النائب نظرة على هذه الوثائق وسأل العمدة:

– هل سنرى كل هذه الحجج والوثائق فى يومنا هذا ؟

فقال : لابد من الانتهاء منها اليوم ، لأن لو بقى منها شىء فليس من المستبعد أن ينبّه أصحابها ويحذرهم بعض المضلين وفى المثل (يتلف الإنسان الإنسان كما يتلف الماء الأرض).

وتناول النائب إحدى هذه الوثائق وقال :

هذه الوثيقة باسم (محسن) فيمكن أن نبدأ به عمل اليوم ٠

فقال العمدة موضحًا : لا ، فقد أشاع محسن في كل مكان أنه سدد ما عليه من مال لى ولن يدفع لى قرشا واحداً ما لم أقسم له على سداده لى ، وسوف يتفوه فى الجلسة بكلام قبيح ويرفع صوته فاذا بدأنا به فلسوف يقلده الآخرون لهذا فإن الصلاح هو أن نؤخره إلى آخر الجلسة ٠

فأمسك النائب بوثيقة أخرى وقال سائلاً العمدة :

– هذه باسم (شادمان) فهل سوف نبدأ به ؟

فرد روزى : ممكن فقد أقرضت هذا الفلاح أول دفعة مال أخذتها من قارى ؛ ولهذا فالأنسب أن نبدأ العمل به فهو باكورة ثمرة شجرة علاقتنا أى سبب شراكتى واتفاقى مع قارى ٠

أمر النائب أتباعه بإدخال (شادمان)جلسة المرافعة ، فرش أحد أتباع النائب حصيرة خارج باب حجرة الضيوف الذى كان يجلس النائب أمامه ونادى على شادمان من بين الفلاحين الواقفين أمام بوابة منزل العمدة صفا فجاءه شادمان وأجلسه هذا التابع علي الحصيرة ٠ لكن بقية الفلاحين دخلوا أيضا ليقفوا وراء شادمان مباشرة ٠

قال النائب للعمدة : تعال أنت أيضا وأجلس على حصيرة بجانب المدعى عليهم خصومك ٠

فقال العمدة مترددا : هل لابد من جلوسى بجانبه على الحصيرة ؟

فرد النائب : لابد من ذلك ٠ طبقا للشريعة لا مناص من أن يجلس المتخاصمان متجاورين وقت القضاء والمرافعة مهما كانت درجتهما ٠

فنهض العمدة مستاءً من موضعه وخرج من حجرة الضيوف وتقدم وجلس بجانب شادمان المدين له وهو يبتسم ابتسامة سخرية كأنه يهزأ بحكم الشريعة ومنفذه النائب ويحك رأسه .

ألقى النائب نظرة على الوثيقة أو العقد الذى كان بيده ونظر إلى المطلوبين للمرافعة وسألهم : من هو شادمان ولد يوسف ؟

فأجاب شادمان : أنا يا صاحب الفضيلة .

فقال النائب يسأله : اقترضت من روزى ألف تنجة من ثلاث سنوات مضت هل هذا صحيح ؟

- صحيح يا صاحب الفضيلة .

- بعت بيعا شرعيا أربعة أفدنة هى أرضك مقابل هذه الألف تنجة ثم قمت باستئجار نفس هذه الأرض من روزى مقابل ثمانين تنجة فى الشهر ، هل هذا صحيح ؟

- صحيح يا صاحب الفضيلة .

- كما هو مكتوب فى هذه الوثيقة نفسها فقد تعهدت بقولك : أقوم بسداد المبلغ المقترض إلى السيد روزى فى الوقت الذى يطلبه فيه . وإذا لم أقم بسداد قيمة إيجار الأرض أو المبلغ المقترض حين يطلبها السيد روزى أو لم أستطع تسديدهما فأنا ملزم بالتخلى عن هذه الأرض له) أليس هذا صحيحاً ؟

- بلى صحيح يا فضيلة الشيخ .

- والآن يطلب السيد أمواله ومعها إيجار الأرض عن عام واحد ملتمسًا منى بحد قوله :(إذا لم يسدد لى شادمان المبلغ المقترض الأصلى أو إيجار الأرض فانتزع منه الأرض وسلمها لى) ، والآن هل أنت مستعد لتسديد أصل المبلغ ومعه إيجار الأرض لمدة عام إلى هذا السيد ؟ وإذا لم تستطع السداد فلابد من تسليم الأرض له فما هو ردك ؟

- يا صاحب الفضيلة ، إننى فى مدة هذه السنوات الثلاث نفسها قمت بدفع فائدة نقود السيد..

فقال النائب مصححا كلام شادمان:

- لا تقل (فائدة) بل قل (مقابل إيجار الأرض) لأن القاضى ونائبه طبقا للشريعة لا يقضيان فى الدعوى المقامة للحصول على فائدة المال لأنها (ربا) الذى حَرَّمت الشريعة تداوله ؛ ولهذا فقد كتب فى الوثيقة (مقابل إيجار الأرض).

فقال شادمان : حسن ، قمت بدفع إيجار الأرض فى وقته وحينه المحدد للسيد روزى وفوق ذلك فقد ساعدت فى أعمال الفلاحة والزراعة بأراضيه بتشغيل ثورى وحمارى وفأسى ومنجلى . وأنا ألتمس بخدماتى هذه التى لا أمتن بها من السيد أن يمهلنى أسبوعين حتى أجمع محصولات أرضى وأبيعها وأسدد ماله على.

فسأل النائب العمدة : ماذا تقول أيها العمدة هل تمهله أسبوعين ؟

فرد العمدة : كلا لن أمهله يوما واحدا فأما أن يعطينى مالى أو يسلم أرضه لى الآن فى حضورك.

فقال النائب لشادمان : المدعى لا يمهلك وعليك أن تسلمه الآن المال أو الأرض .

- ليس معى الآن نقود.

فسأله النائب : كيف ستجمع المال خلال أسبوعين ؟

- لدى فدان مزروع من ثلاث سنوات فوة (نبات صباغة) وإنتاجه يغطى ما يقرب من قرض السيد ، وعندى أيضا فدان مزروع قطنا لا يزال لوزا قريبا من التفتح وإنتاجه يغطى نصف قرضه ، لكن لابد من إعطائى فرصة لأجمع هذه المحصولات وأبيعها وأجهز المال .

فقال النائب للعمدة : هذه إذا لم تعطه أسبوعين فأمهله عشرة أيام حتى يجمع المدين محصوله ويعطيك مالك.

فقال العمدة : كلا الله واحد وكلامى أيضا واحد ، ولن أمهله ساعة واحدة.

فقال النائب إلى شادمان : لا مفر ، ويلزم على حسب العقد أن تسلمه الآن المال أو الأرض.

فقال شادمان : لابد من إخلاء الأرض من محصولها حتى أسلمها له.

فقال العمدة للنائب : فضيلة النائب لدى كلمة .

فقال النائب : ماذا تريد أن تقول ؟

قال روزى : تفضل بقراءة الوثيقة ثانية بتأنٍ ولو كان مكتوبا فيها (يجب أن يقوم المقترض بجمع المحصول من الأرض قبل تسليمها

للمقرض) فسوف أدع شادمان يخلى الأرض قبل أن أتسلمها ، أما إذا لم يكن هذا الشرط مكتوبا فى الوثيقة فألتمس أن تسلمنى الفدادين الأربعة بما فيها من محصول الآن بحضورك.

وبعد أن قرأ النائب الوثيقة مرة ثانية نظر إلى العمدة وقال : ليس هذا الشرط بالوثيقة ثم نظر إلى شادمان وتابع كلامه إليه : إذا كان لديك فى الأرض أشياء منقولة مثل الفأس والمعول والمنجل وغيرها من الأشياء التى يمكن نقلها من مكان لآخر فهى لك وخذها لكن ليس لك الحق فى امتلاك محصولات الأرض لأنك لم تقم بجنيها أو حصادها من الأرض حتى الآن . فعليك أن تسلم الأرض بما عليها من مزروعات لم تحصد إلى العمدة . فقال شادمان بحسم :

– كلا ، لن أسلمها له . لن أنفذ هذا الحكم الظالم الجائر السالب الناهب ولن أخضع رقبتى له ولو فصلوها عن جسمى.

فقال النائب غاضبا وقد نهض من مكانه ثم عاد إلى الجلوس : ماذا قلت ؟ هل قلت إن حكمى أو حكم الشريعة أو طلب السيد حكم ظالم جائر سالب ناهب أو شىء آخر ؟

فقال شادمان مؤكدا كلامه السابق : حكم أى إنسان وطلب أى إنسان مهما كان حكم ظالم جائر سالب ناهب.

فصاح الفلاحون الذين دخلوا من الشارع ووقفوا خلف شادمان مباشرة يصدقون كلامه:

(هذا الحكم بالتأكيد حكم ظالم جائر وسالب وناهب) .

فسأل النائب حراسه مشيراً إلى الفلاحين المدافعين عن شادمان : من هؤلاء الناس ؟

فرد أحد أتباع النائب مجيبا عليه : إنهم أيضًا مدينون للسيد روزى وينتظرون دورهم فى القضاء والمرافعة ٠

فأصدر النائب إلى أتباعه أمرا قاطعا حازماً :

اضربوهم وادفعوهم وأخرجوهم من المجلس والمنزل والبوابة ونادوا عليهم واحدا واحدا حين يأتى دوره فى المرافعة ، لم ندع أحداً منهم قط بأن يأتى هنا ويترافع عن شادمان ٠

إلا أن حراس النائب خافوا من هجوم الفلاحين فلم يضربوهم أو يدفعوهم بل أخرجوهم من المجلس بلطف وأدب ثم من بوابة المنزل ، وبعد أن أبعدوا الفلاحين من أمام مجلس المرافعة نظر النائب إلى شادمان قائلاً بحسم :

حكم الشريعة رضيت به أو لم ترض حافظت عليه أو لم تحافظ لا مفر لك من تنفيذه وهو صارت الأفدنة الأربعة بما عليها من محصولات لم تجمع ملك السيد روزى ، لكنك سوف تحبس بتهمة تحقيرك للشريعة ونائب القاضى الأكبر والناس المحترمين فى البلاد أى السيد روزى ثم توجه إلى حراسه وأمرهم : احبسوا الآن هذا المذنب فى حظيرة السيد العمدة ، وفى الصباح الباكر حين نعود إلى دار النيابة سوف نرسل وثيقته إلى حضرة نصير الشريعة جناب القاضى الكبير لكى يصدق على الحكم الذى حكمنا به ٠

وبعد أن حبس شادمان أدخل المدينون الآخرون واحداً بعد الآخر ، كان هؤلاء المقترضون قد أفزعهم ما حلّ من فاجعة على رأس شادمان فلم يستطيعوا عصيان أحكام النائب وسلموا أراضيهم بما عليها من مزروعات إلى العمدة.

وحل دور مرافعة (محسن) ونظر النائب فى الوثيقة الخاصة بقرض محسن ثم سأله :

– قمت منذ سنتين باقتراض مبلغ ألف وخمسمائة تنجة من هذا السيد ، السيد روزى وبعت مقابل هذا المبلغ بيعاً جائزاً شرعياً أرضك التى مساحتها ستة أفدنة إلى السيد المذكور ؟ أليس كذلك ؟

فأجاب محسن : بلى كذلك ، بعت ستة أفدنة للسيد المذكور بيعاً جائزاً شرعياً مقابل المبلغ ألف وخمسمائة تنجة اقترضتها منه كما ذكر فى الوثيقة ، وكنت قد استأجرت هذه الأرض من سيدى المذكور وقمت بتسديد الإيجار فى وقته وحينه حتى يومنا هذا ، لكنى سلمت السيد العمدة منذ شهر من الآن المبلغ الأصلى المقترض وهو الألف وخمسمائة تنجة عداً ونقداً له وخلصت منه أرضى تماماً.

– فعاد النائب للسؤال : إذا كنت سددت القرض الأصلى وإيجار الأرض عن آخرهما إلى صاحبهما فلماذا لم تأخذ منه عقد هذه الأرض أو الوثيقة التى كتبتها له ؟

– أعطيت هذا السيد المال فى الليل وطلبت منه إذ ذاك الوثيقة أيضاً لكنه قال لى : إن إخراج وثيقتك من بين جملة الوثائق الأخرى فى هذا الوقت من الليل المظلم صعب فتعال فى الصباح ووضح النهار حتى

أبحث لك عنها وأعطيها لك. فصدقت كلامه ، ولما آتيته فى صباح تلك الليلة وطلبت منه الوثيقة أنكر تمامًا أنه أخذ منى تنجة واحدة بالليلة الفائتة بل وزاد على ذلك أن أخذ بخناقى قائلاً : (إنك أوغرت صدرى منك فسلمنى الآن نقودى أو أرضك).

– فسأله النائب ثانية : هل لديك شاهد على تسليمه المال ؟

فقال محسن : أعطيته المال بالليل المظلم وليس لدى شاهد غير الله سبحانه وتعالى ، وأخرج من حافظة جيبه ورقة ومدها إلى النائب فأخذها منه الحارس الواقف وراء المترافعين وسلمها للنائب ، وقرأ النائب ما فى هذه الورقة بدقة وتمعن ، ثم توجه بالكلام إلى روزى :

– هذه الورقة محضر دفع : ادعى محسن بهذا المحضر أنه سلمك مالك لكن الوثيقة ظلت عندك ويطلب من قاضى الإسلام أن يأخذ الوثيقة منك ويعطيها له ، وقد صدّق على توافق هذه الدعوى للشريعة التى رفعها محسن فى حاشية هذا المحضر جملة من العملاء برواياتهم وصدق بعض من المفتين فى بخارا بأختامهم على صدق هذه الروايات التى أيدت دعوى محسن.

فسأل النائب روزى بعد ذكره هذه التفصيلات :

– فى الواقع أخذت مالك عن آخره من محسن فهل تحتفظ بالوثيقة الخاصة به أو لا ؟ ماذا تقول ؟

– فأجاب العمدة : لو صدقت أننى مت فلن أصدق أنه دفع لى تنجة واحدة ، إننى لم آخذ منه شيئًا .

– فتوجه النائب إلى محسن سائلاً : هل تثبت دعواك بشهادة شاهدين أو تجعل السيد روزى يقسم ؟

فقال محسن : أنا لا أستطيع إثبات دعواى بالشهادة فادع السيد روزى يقسم ، فإن أقسم على أنه لم يأخذ نقوده منى فلسوف أعطى فى حضورك هذا الرجل نقوده ضعفين وآخذ وثيقتى.

فحكم النائب بتأجيل هذا الدعوى إلى الأسبوع التالى وإذا لم يتصالح الطرفان خلال هذا الأسبوع فسوف يلتزم العمدة بأداء اليمين ثم يأخذ نقوده من محسن.

قال العمدة بعد أن قام من على حصيرة الشريعة وبعد انتهاء مرافعته مع محسن ودخل حجرة الضيوف موجهًا كلامه إلى النائب : لن يثق أحد بك أو بشريعتك بعد ذلك .

فسأل النائب العمدة بلهجة مضطربة وبخجل : لماذا ، لماذا ؟

فقال : كنت دائمًا تقول وتكرر إن (الشريعة فى يدنا ونحن نستطيع أن نوظفها فى أى وقت لمصلحتك) فماذا حدث اليوم حين وظفت الشريعة فى مصلحة محسن ؟

فرد النائب : صحيح إننى قلت إن الشريعة فى يدنا ولكنى لم أقل بتاتًا (إن الشريعة فى يدى ، فغيرى من أرباب الشريعة كثيرون ، هم المفتون وهؤلاء المفتون وجدوا حلاً لمحسن وبالطبع لم يجدوا له هذا الحل أو لم يبيعوه له بالمجان ، وبالتأكيد يلزم أن يأكلوا عيشهم من وراء الشريعة هم أيضًا ، وإذا لم أعترف بروايات المحضر التى اعتمدها المفتون وصدقوا عليها بأختامهم وأعطوها لمحسن فلن يدعونى على قيد الحياة .

فقال روزى : معلوم أنك لن تجد لى طريقة فى الأسبوع القادم لإزالة دعوى محسن ؟

- يوجد طريقة وحل وحيد بقى أمامك وهو أن تقسم على أنك لم تأخذ مالك منه وتأخذه منه .

فقال روزى : لن أقسم البتة .

- لماذا وأنت تقسم مئات المرات كل ساعة من أجل شيء تافه ؟

- الأيمان التى أقسم بها من غير قصد وتماثل الكلام العادى الذى يخرج من فمى لا أهمية له لكن حين أجلس على حصيرة الشريعة وأقسم أمام القاضى القسم الشرعية يطلق الناس عليه (الحالف اليمين) وينفرون منه ويهربون من أمامه .

- فقال قارى اشكمبه : أعرف طريقة وحلاً لا يمكن أن يقف فى مواجهته محضر روايات العلماء وفتوى المفتين ولا يلجىء صاحب المال إلى الحلف والقسم .

فقال روزى لاشكمبه : دلنى على هذا الحل فإن استطعت عن طريقه دفع دعوى محسن وأنتصر عليه وأهزمه وآخذ مالى فسوف أكون ممتناً لك حتى يوم الدين .

فقال قارى اشكمبه : قد خسرت الآن فى دعوى محسن فلا تأمل فى الانتصار عليه فيها ولكن يلزمك أن تستخدم هذه الطريقة فى معاملتك مع الفلاحين فى المستقبل .

فسأله العمدة : أى طريقة هذه ؟

فقال قارى : إذا وعدتنى بأن تعطينى نصف المبلغ المستفاد من هذه الطريقة أدلك عليها .

– حسن جداً ، أعدك ألف مرة وفى حضور نائب جناب القاضى الأكبر بأن أقتسم معك ما أحصله من فوائد من طريقتك هذه .

قال قارى اشكمبه: هذه الطريقة استخدام الشيكات المضمونة بالأرض بعد هذا عليك أن تستخدم فى معاملاتك مع المقترضين الوثيقة الروسية أو الشيكات البنكية بدل وثيقة القاضى . ونهض قارى للتأهب للعودة إلى المدينة .

(١٢)

بعد المرافعة عقد قارى اشكمبه مع روزى العمدة اتفاقًا جديداً للمرة الثانية وكان مفاد هذا الاتفاق هو التعامل بالشيكات ، وبناء على هذا الاتفاق الجديد فيلزم العمدة أن يعطى قارى نصف الفائدة المتحصل عليها عن طريق استخدام الشيكات والتلاعب بها وكان دور قارى فى هذه اللعبة أو التلاعب بالشيكات هو إرشاد العمدة إلى التعامل بالشيكات وتعليمه التعامل بهذه الشيكات التى تضمنها أرض المقترضين

وكأول ثمرة تعاون بناء على هذا الاتفاق فكان على قارى اشكمبه أن يجر محسن إلى الشرك وإلى تحرير شيك عليه بحيث يؤدى به إلى تسليم أرضه إلى العمدة وبناء على هذا تقابل قارى حين عودته من الريف مع محسن وأظهر له سخطه على العمدة قائلاً : اقترض منى العمدة الظالم ألفًا وخمسمائة تنجة على أن يعطينى عن كل مائة ثلاث تنجات فائدة شهرية وأقرضك نفس هذا المبلغ بفائدة قدرها تسع تنجات عن المائة فى الشهر. أليس من الظلم البيّن أن أقنع أنا بالتنجات الثلاث فائدة عن كل مائة كل شهر ويأكل هو من وراء نقودى ست تنجات عن كل مائة ، ولقد بلغ من ظلمه أيضًا أنه لم يقنع بتسع تنجات فائدة شهرية عن المائة بل يريد أن ينتزع أرضك من يدك لذلك وبعد أن أثبت قارى اشكمبه حنقه على روزى وبين ظلمه أمام محسن أوصاه بأنه إذا

احتاج فى أى وقت إلى أى نقود فعليه أن يأتيه مباشرة دون وساطة العمدة توجه محسن بعد انتصاره على روزى العمدة إلى بخارى وقابل قارى اشكمبه. فتقبله قارى بقول حسن وسأله عما تم وجرى فى نهاية دعواه التى رفعها على العمدة .

فرد محسن : ماذا حدث ؟ طلب من العمدة أن يحلف اليمين الشرعية فلم يقبل وبناء على رفضه حكم النائب لصالحى واعتبر دعواه بلا أساس وأخذ وثيقتى منه وأعطاها لى.

فقال قارى بلهجة الاستحسان : لقد أحسن صنعًا ، ثم سأله : كم كلفتك هذه الدعوى ؟

– أعطيت كل مُفْتٍ مائتى تنجة وهم أربعة فتكلفت ثمانمائة لهم.

– ولابد أن أعطيت النائب شيئًا هو الآخر ؟

– بالتأكيد فقد قيل (العربة التى لا تزيت عجلاتها لا تسير) وقد دهنت حلق النائب بمائتى تنجة أخرى ، كان تأجيله المرافعة أسبوعًا آخر سببه الأصلى أن حلقه كان جافًا ويتطلب الدهان.

– إذن فقد تكلفت ألف تنجة وتخلصت من ألف وخمسمائة تنجة كان عليك دفعها إلى روزى .

– كلامك صحيح لو نظرنا إلى الأمر من منظور واحد لكن انتصارى يتمثل فى أننى أنقذت أرضى من مخلب هذا الرجل وأذللته على مرأى ومسمع من الأحباب والأعداء وأدرك الناس أن من (يحذف

بالحجر يصيبه الحجر) أيضًا وإلا ما اقترضت هذه الألف تنجة لصرفها على هذه الدعوى مع فائدتها التى أوصلتها إلى أكثر من ألف وثلاثمائة تنجة ٠

– من الذى أقرضك هذا المبلغ وبكم فائدة أرضيته ؟

– من ذاك الوسيط الذى يتوسط بين المفتين وطلاب الفتوى والروايات فى عملية بيع الفتاوى ، واقترضته منه على أساس عشر تنجات فائدة عن كل يوم ٠

فرد قارى اشكمبه وهو يظهر أسفه : أوه ، لماذا قبلت هذه الفائدة الفادحة ولماذا لم تأت إلى أولاً ؟

كان تأسف قارى وحزنه فى الظاهر بسبب ارتهان محسن بدفع مثل هذه المبالغ الطائلة لكنهما كانا فى الحقيقة بسبب أنه كان يحترق بنار الحرص والحسد وكان مغيظًا حانقًا لأن هذه اللقمة الدسمة لم تدخل فمه٠ وكانت حقيقة حالته النفسية هذه تلوح من طريقة إشاراته بيده وقت إظهاره أسفه فقد كان يثنى أصابعه ويبسطها مراراً بعصبية وهو يحسب كم نسبة هذه الفائدة الفادحة كل شهر على كل مائة تنجة٠

– وكيف لى أن أعرف ؟ كنت أعرف أنك صديق مقرب إلى روزى وبناء على ذلك فكرت فى أنك لن تقرضنى نهائيًا المال الذى سأنفقه فى رفع الدعوى ضده ٠

– أولاً : إن المرابى لا يصادق المرابى وهما كالكلب والقط فى عداء دائم ويتقاتلان من أجل عظمة ، ثانيًا : إننى كنت مستاءً من أنه كان حين يعطينى ثلاث تنجات فى الشهر عن كل مائة كان يحصل من

الفلاحين مـا بين ثماني إلى عشر تنجات فـائدة وهذا الصنيع منه ظلم في حقي كما هو ظلم في حق الفلاحين المساكين ٠

– إن أردت أن تفعل خيراً في حقي فإن الوقت لم يَفُت حتى الآن فإذا أقرضتني قرضاً أطول مهلة وأقل فائدة تجعلني أتخلص من فائدة هذا البائع للفتاوى ٠

– كم يلزمك للخلاص من قرض هذا البائع للفتاوى ؟

– وصل ماله عليّ اليوم فقط (١٣١٠) تنجة ، وفي الغد يزيد المبلغ إحدى عشـرة تنجة فإذا نظرت إلى حاجتي الماسة هذه فلا تتوان عن إقراضي ٠

– كما تحب ، خذ مني (١٤٠٠) تنجة مرة واحدة ولو زاد هذا المبلغ عن قرضك وفائدته فأنفق الزيادة على أمورك الضرورية الأخرى ٠

– كم تطلب فائدة له ؟

– أقل من الفائدة التي كنت تعطيها إلى روزي بأربع تنجات يعني تعطيني عن كل مائة في الشهر خمس تنجات لكن لابد من أن يبدأ تاريخ القرض من يومنا هذا ٠

– يحدوني الأمل في أنني سوف أرد قرضك وفائدته العام القادم حين أجمع المحصول ٠

– أي بعد عام كامل ٠

وحدّد قاري اشكمبه المهلة بناء عن طلب محسن التي يتوجب في نهايتها السداد فصدق محسن كلامه قائلاً : أجل بعد عام . ثم سأله :

والآن هل أكتب عقداً موثقًا ببيع الأفدنة ملكى لك بيعًا شرعيًا ؟

لا يلزمنى وثيقة من القاضى أو توثيق من المحكمة ويكفينى أن تعطينى شيكًا مكتوبًا فيه المبلغ وفائدة بضمان أرضك.

سعد محسن من كلام اشكمبه هذا كما أنه تعجب وخاف ، سعد لأن اشكمبه قال (لا تهمنى أرضك) فى حين أن مرابىّ القرى ومنهم روزى يطمعون فى أرضه بشدة ، وتعجب لأن اشكمبه وثق به ويريد أن يقرضه بلا وثيقة من المحكمة وخاف لأنه سمع يوم ذاك من اشكمبه بهذا الشيك المضمون بالأرض ولم يسمع بها من قبل فى سائر عمره حجة ووثيقة أو عقداً موثقًا ، فقال وهو يفكر فى نفسه : أى مصيبة هذا الشيك المضمون بالأرض أخشى أن يكون سماً مدسوسًا داخل العسل وأخاف أن يجعل مثل هذا الشيك أمرى أكثر سوءاً لكنه كان يعزى نفسه مراراً بقوله (ليس من المعقول أن قارئًا للقرآن مصليًا للفروض الخمسة يفعل شرا فى حق فلاح مبتلى عاجز مسكين خاصة وأنه سبّ روزى والمرابى البائع للفتاوى ووصفهما بأنهما ظالمان فهل يعقل أن يكون أكثر منهما ظلماً ؟)

وأدرك اشكمبه من غرق محسن فى الفكر وصمته المطرق أنه يشعر بالريبة فقال يطمئنه :

– أنا مشفق على عجزك ومسكنتك لذلك لا أطلب منك ورقة موثقة من المحكمة بالقرض وهى تكلفك كثيراً وأنا مطمئن إليك إلى حد أننى كنت لا أريد أن آخذ منك أى ضمان لنقودى لكنى بما أنى أتعامل مع البنك بهذه الشيكات فقد طلبت منك أن تكتب شيكًا مثل هذه الشيكات فلا ترتب لحظة فى أمر هذه الشيكات ولا تشك فى ومع هذا فلم يزل شك محسن لذا بادره بالسؤال :

– ولماذا تتعامل مع البنوك بهذه الشيكات ؟

– لأننى مثلاً حين آخذ منك شيكًا مضمونًا بألفى تنجة وإذا رهنت هذا الشيك فى البنك فإن البنك يقرضنى على أساسه ألف تنجة ويمكننى بهذا المبلغ أن أستغله فى أمر ضرورى لى ، لكن البنك لا يرهن جوالاً من الوثائق الصادرة من المحكمة مقابل تنجة واحدة يقرضها لصاحب هذه الوثيق.

وتخلص محسن بشرح اشكمبه هذا درجة من الشّكّ ورضى بإعطائه شيكًا بضمان أرضه وسأله : متى آتى إليك لكى أحرر لك هذا الشيك وتقرضنى النقود ؟

فأجابه اشكمبه : تعال فى صباح الغد ثم سأله : هل تستطيع القراءة والكتابة حتى تكتب لى هذا الشيك ؟

– كلا ، لا أقرأ ولا أكتب .

– حسن ، لا ضير سوف يكتبه عنك أحد الكتبة أمام موظف هذه الشيكات بالبنك .

اصطحب اشكمبه معه محسن إلى مدينة (كاجان) وهناك حسب مصاريف شراء الشيك من الموظف وأجرة الكاتب الموقع على الشيك بدلاً من محسن وفائدة عام واحد عن مبلغ (١٤٠٠) تنجة التى سيقرضها لمحسن فوصل حاصل الجمع إلى (٢٤٠٠) تنجة وحوّل هذا المبلغ إلى العملة الروسية فقرر الموظف أن يأخذ اشكمبه من محسن (٣٦٠) قطعة ذهبية روسية ودخل البنك واشترى شيكًا يوافق هذا المبلغ ، ثم وجد رجلاً يقرأ ويكتب ليوقع فى الشيك نيابة عن محسن .

ودخل اشكمبة ومحسن وذاك الموقع ثلاثتهم إلى موظف تحرير الشيكات المضمونة ، وفى حضور هذا الموظف الروسى وقع هذا الشخص نيابة عن محسن وبناء عن طلبه بسبب جهله بالقراءة والكتابة شيكًا أبيض غير مؤرخ بمبلغ (٣٦٠) بالعملة الروسية وصدق الموظف على هذا التوقيع بإمضائه وختم البنك .

وخرج اشكمبة من مكتب موظف تحرير الشيكات المضمونة بعد دفعه رسوم تحرير الشيك وأجر الشخص الموقع عن محسن وأخذ هذا الشيك وأعطى محسن المبلغ المطلوب وهو (١٤٠٠) تنجة أى ما يساوى (٢١٠) قطعة ذهبية روسية نظير شيكه المحرر بـ(٣٦٠) قطعة روسية وقال له :

- أرأيت كم كان التعامل بالشيك كإيصال موثق تم بلا تعب ، فلكى تتعامل به لا يلزمك أن تدفع رسوم ختم القاضى الكبير وكتابة كاتبه وخدمة أتباعه ولا دفع (حلاوة) لنائبه ولا للعمدة وأثرياء القرية . اختصرنا كل ذلك فلم ندفع قرشًا واحدًا زائدًا كما أنه لا يلزم رهن الأرض من أجل تحرير هذا الشيك.

- وبعد أن شرح اشكمبة (مزايا الشيك الروسى) قال متابعًا كلامه :

- أنا بهذا الشيك المريح يمكننى أن أقرض الفلاحين المحتاجين للقرض فى أى قرية وأنقذهم من مخالب الأغنياء مثل روزى وغيره من المرابين الطامعين فى أراضيهم .

فأطلع جيرانك وأحباءك بهذه الطريقة السهلة .

فقال محسن : حسن ، سوف أخبرهم ، وافترق عن اشكمبة راجعًا إلى قريته.

بعد مضى شهرين عن تحرير محسن للشيك الذى يدينه لاشكمبة ، عقدت وليمة فى قرية سنج سبز بمنزل العمدة روزى لكن ليست بالعظمة والضخامة التى كانت عليها فى الماضى ، ففى هذه الوليمة اقتصرت الدعوة من جملة المترددين السابقين على هذا المنزل على اشكمبة والسيد النائب وحرسه ، ولم يشترك فيها أحد من كبار القرية. وبالإضافة إلى هؤلاء الضيوف المعروفين شاركهم ضيفان آخران لم يريا قط فى هذه المناطق من قبل أحدهما رجل كان فى نحو الأربعين من عمره متوسط القامة نضر الوجه ، وكانت لحيته أقصر من لحى أهل بخارا لكن شاربه كان يفوق شواربهم طولاً وكثافة حتى أنه كان يخفى شفتيه ، كان الرداء الخارجى لهذا الرجل رداءً عسكرياً واضح النقش وظاهر التطريز فى نهاياته ، وكانت عمامته تشبه عمائم موظفى مدينة بخارا بيضاء فى لون اللفت أما رداؤه الداخلى فكان أوربى الصناعة والنسق ولبس بقدميه الحذاء الطويل العنق البخارى ، وكان الرجل الثانى يميل لون وجهه إلى الصفرة الضاربة إلى الحمرة وحليق اللحية والشارب تمامًا لكن شعر رأسه كان طويلاً وكان لبسه كله أوروبيًا ، وكانت قامته الطويلة نحيفة وخصره دقيقًا.

وافترق نظام هذه الضيافة عما سبقها من ضيافات وولائم ، فقد وضعت بوسط حجرة الضيافة مائدة بارتفاع نصف ذراع ومُد فوقها رغيف أبيض كبير وضعت عليه أصناف الطعام ، وافترق طعام هذه الوليمة عما سبقه فرقًا قليلاً ، فقد وضع أمام اشكمبة والنائب وحرسه

طعام كالسابق مثل اللحم المشوى والدجاج المشوى وخروف مشوى والأرز المشبع بقطع اللحم المطبوخ والدهون وغيرها من المأكولات المحلية. أما هذان الضيفان الجديدان فقد وضع أمامهما الأطعمة الأوربية المختلفة مثل (الكاتليتيه) و(الجركا) وغيرها . ولم يكن هذان الضيفان كشأن الضيوف الوطنيين يتبادلان طعامهما بيديهما بل كانا يستخدمان الشوكة والسكينة ، ووضع أمامهما كأسان بلوريان وبجانبهما زجاجتا خمر. ولصقت على بطن كل زجاجة منهما أوراق ذهبية اللون عليها رسم صورة خمس نجوم صفراء وبدت كتابة هذه النجوم بحروف صفراء لا تشبه فى شىء الحروف العربية .

ومع أن اشكمبة سعى إلى أن يفوز بأكثر قدر من الطعام عن غيره ومدّ يده قبلهم إلى أصناف الطعام إلا أنه لم يرفع عينيه عن هاتين الزجاجتين ، وحينما أمسك الضيف النصف أفرنجى الملبس واحدة من هاتين الزجاجتين ، وأخذ يقرأ ما عليها من كتابة سأله اشكمبة :

– ما هذه ، فرد هذا الضيف : هذه زجاجة كونياك ، فعاد اشكمبة إلى السؤال : وما هذا الكونياك ؟ فرد : إنه دواء يقوى الكبار من الناس ويفتح شهيتهم للطعام مثلك ومثل المجانين بتناول الطعام ، ثم فتح غطاء الزجاجة وصب منها فى كأسه وكأس صاحبه وسأل اشكمبة : إذا أردت صببت لك كأساً من هذا الدواء أيضاً ؟

فقال : لا أحتاج إلى دواء لفتح شهيتى ، لكن إذا سمحت أشارككما طعامكما ، ولم ينتظر إجابة منه واغترف نصف طعامهما

المتبقى أمامهما بيده المغطاة بالطعام ووضعه على طبق الأرز أمامه وأخذ يلتهم الطعام دونما كلمة لأحد ٠

بعد الانتهاء من الطعام والشراب توجه النائب بالحديث إلى الضيفين الجديدين الأفرنجى الملبس قائلاً : الآن يجب أن نشرع فى العمل، فرد يؤكد كلامه هذا الضيف الأوروبى : لابد فعلاً من البدء فقد مضى الوقت ٠

فقال النائب يأمر أتباعه : نادوا على محسن وصفر على وفولاذ وتيمور وغيرهم من المدينين وأحضروهم ٠

وفتح الضيف الذى نصف لباسه أوربى أفرنجى رداءه العسكرى وأخرج من داخله لفافة ضخمة فيها كثرة من الشيكات المطوية أحدهما فى الآخر وفصل منها بضعة من الشيكات وأخرجها ووضعها تحت ركبته٠ وأوقف أتباع النائب المدينين صفًا فى الردهة أمام باب الحجرة التى كان النائب جالسًا فيها فلما رأى الرجل الذى نصف لباسه أفرنجى هذه الحال قال لأتباع النائب :

– هنا ليس المحكمة أو دار النيابة ، أحضرهم أمامنا فى حجرة الضيوف ٠

ولما أدخل أتباع النائب المدينين إلى حجرة الضيوف وأجلسوهم مصطفين أمام الضيوف أمسك هذا المنصّف اللبس أحد الشيكات وبعد أن نظر إلى المقترضين سائلاً :

– من منكم الذى يدعى محسن ٠

فأجاب محسن : أنا .

- اقترضت من السيد قارى عصمت الله (٣٦٠) سومة (أو قطعة ذهبية روسية) وقارى يطالبك بسداد دينه الآن وعليك سداده الآن ·

فأجاب محسن : اقترضت منه (٢١٠) سومة ، وإذا جمعنا فائدة المبلغ لمدة عام ومصاريف تحرير الشيك ويبلغان (١٥٠) سومة إلى أصل المبلغ صار المجموع (٣٦٠) سومة التى حررت له بها شيكًا ، فكيف أسدد القرض الذى انضمت إليه فائدة عام كامل له بعد مرور شهرين فقط ؟ فقال المنصف اللبس بين الأفرنجي والبخارى :

- لا تطل من الكلام ، هل ستدفع المبلغ المحرر فى هذا الشيك أو لا ؟ أجب بكلمة واحدة ! فكرر محسن إجابته السابقة : كيف أسدد القرض المضمومة إليه فائدة عام كامل بعد مرور شهرين فقط ؟

لما حررت هذا الشيك لم تذكر فيه أى تاريخ يحدد مهلة العام التى تسدد قرضك فى نهايتها، وعلى أساس بيانات هذا الشيك المكتوبة فيحق للسيد قارى أن يطالبك بحقه فى نفس يوم تحريرك للشيك أو بعده بيوم ، وبعد أن مضى شهران من توقيعك هذا الشيك لم يطالبك فيهما بحقه فقد كان كبير الشفقة بك وما دام أنه يطلب منك سداده اليوم فلابد من تسديده له اليوم ·

فكرر محسن ثانية إجابته السابقة : كيف لى أن أسدد فائدة عام كامل بعد شهرين فقط ؟

- تسدد فائدة عام كامل بعد شهرين فقط أو لا تستطيع هذا ليس من شأننا ولابد لى من تسلم مبلغ (٣٦٠) سومة المكتوب فى هذا الشيك فى يومنا هذا ، هذا هو القانون ·

فقال روزى يؤكد كلام المنصّف اللباس بلهجة تستعدى محسن : هذا هو قانون حضرة الإمبراطور ملك روسيا وليس حكم الشريعة ووثيقة القاضى الكبير التى برشوتك للمفتيين دفعتها بمحضر دفع وأكلت مال الناس !

فأضاف النائب إلى كلام روزى :

– سواء كان الشيك بقانون حضرة الإمبراطور أو برواية علماء هذه البلاد فهو نافذ نفوذ المسمار فى الحجر .

– ما هذا الظلم ، ما هذا الجور الذى

فقاطعه النائب غاضباً : اغلق فمك وإلا قطعت لسانك ، هل تصف قانون حضرة الإمبراطور بالظلم والجور ؟ سوف آمرهم الآن بقطع لسانك من حلقك .

فقال الضيف الأفرنجى اللباس :

– يلزم بيع أملاك هذا المدين فى المزاد العلنى وتسلم قارى (٣٦٠) سومة بيعت كذلك أراضى صفر على فولاذ وغيرهما من المدينين الذين حرروا شيكات بيضاء بالمبالغ المقترضة وفوقها الفوائد المقررة بعد استجوابهم كما حدث مع محسن .

وصل فى النهاية دور استجواب تيمور ، كان تيمور قد اقترض من قارى اشكمبة من أسبوع واحد ألف تنجة وضم إلى القرض فائدة عامين فوصل المبلغ (٢٢٠٠) تنجة أى (٢٣٠) سومة فأخذ تيمور يصرخ

ويصيح كالمجنون أثناء استجوابه (لن أدفع فائدة عامين بعد مرور أسبوع واحد فقط. لو بعتم أرضى فلسوف أقتل المشترى وأقتل نفسى أيضًا) .

فقال المنصف اللبس : أنا ترجمان القاضى الكبير فى دعاوى الشيكات وأشار متابعًا حديثه إلى تيمور نحو الأفرنجى اللبس : وهذا شريكى فى تنفيذ حكم فوائد (كاجان) ولابد من التعامل مع مثلك من المتوحشين بالمعاملة الوحشية وليس بالقانون المدنى المتحضر ، وأخذ تيمور إلى حيث انهالت عليه السياط ثم أمر بعد ذلك أتباع النائب بإيداعه الحبس .

وبعد انتهاء استجواب المدينين الذين عجزوا جميعًا عن تسديد قروضهم نقداً خرج منفذ حكم الفائدة وترجمان القاضى الكبير والنائب وحرسه وروزى واشكمبة إلى الحقول وعلى رءوس أراضى المدينين لكى يعرضوها فى المزاد العلنى للبيع وتسديد المبالغ المكتوبة فى الشيكات ، وتجمع جمع غفير من أجل المشاركة فى هذه الأراضى التى تبلغ قيمة الفدان الواحد منها ما بين ألفى تنجة إلى ألفين ونصف ألف تنجة بسعر يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة تنجة فقط للفدان الواحد وقبض اشكمبة سائر ماله.

وبعد نهاية المزاد نظر الترجمان إلى النائب قائلاً : الآن نحن مستعدون للتوجه إلى قرية (خرجوش) لكى نسوى بها مشاكل الشيكات وفى عودتنا إليكم سنكون ضيفين على السيد المضيف ، وحتى نرجع إليكم سووا حساباتكم وانتظرونا .

وخرج هذا الرجل ومعه منفذ أحكام الفائدة وركب الاثنان عربة خيول واتجها إلى قرية (خرجوش) .

وبعد مغادرة الترجمان ومنفذ أحكام الفائدة قال اشكمبة إلى روزى :

– والآن يجب أن نسوى الحسابات بيننا ، فقال العمدة : كيف لم نسو الحسابات بيننا إنك تسلمت عن طريق الشيكات أموالك التى أقرضتها الفلاحين من قبل هذا اليوم ومعها فوائد عام وعامين وأنا حزت الأراضى التى كنت أتوق طوال عمرى إلى تملكها (وتمت الرسالة والسلام) فكيف لم تسو الحسابات ؟

– إنك حصلت عن طريق تلاعبى بالشيكات على أراضٍ تقدر بثلاثين ألف تنجة باثنتى عشرة ألف تنجة فقط وأطالبك الآن بنصيبى من الفرق بين السعرين وهو ثمانى عشرة ألف تنجة .

فقال روزى : هذا المبلغ ملكى الحلال !

فرد اشكمبة : ليس الأمر كما تعتقد ألم تعدنى فى حضور النائب بأن تقسم المبلغ المتحصل من التلاعب بالشيكات بينى وبينك بالتساوى وأنت قلت لى بحد لفظك لا تعاملنى معاملة الكلاب !

فقال روزى : لعلك لم تدخل فى حسابك المصروفات الأخرى !

فقال اشكمبة : أى مصروفات هذه ؟! كأنه لا يدرى شيئًا قط عن مصروفات أخرى ويسأل متعجبًا .

فقال روزى : لن أحسب نفقات الوليمة لكن ألن تعطى جناب النائب وحرسه الذين جاءوا خصيصاً لإتمام عملية التسديد شيئًا مقابل خدماتهم ؟

هز النائب رأسه لما سمع هذا السؤال مظهراً استحسانه لكلام روزى ولم يجد اشكمبة من اللائق أن ينكر خدمات النائب فى حضوره فآثر الصمت. ووافق النائب كلام العمدة فتابع قائلاً :

– ولابد من إعطاء الترجمان ومنفذ أحكام الفائدة مقابل تعبهما .

فسأله اشكمبة : ألا يكفيهما ما شرباه هنا من الكونياك؟

فرد النائب : لا يكفى ، لأنهما قالا : (فى عودتنا سنكون ضيفين على السيد المضيف).

وهذا معناه (جهزوا مقابل أتعابنا).

فقال اشكمبة : وهل تفهم لغتهما ؟ هه ؟

فقال النائب : بالطبع أفهمهما ألم يقولوا فى المثل (الذئاب تفهم لغة الذئاب) ؟!

– حسنًا ، فلنقل إنه صرف ألف تنجة فى هذه النفقات فماذا ستقول فى ١٧ ألف تنجة باقية ؟

ورأى النائب أن هذين المرابين قد شددا النزاع بينهما سعيًا إلى الفائدة فنحى جانبًا فائدة اشكمبة والعمدة ، ثم احتسب المصروفات والنفقات الأخرى وخصم الجميع من المبلغ الإجمالى المتبقى وما نتج من عملية الطرح قسمه بينهما وأصلح بين هذين المرابيين الكلبين (صلح الذئاب).

في موسم نضج الشمام دعانا زميل دراسة لنا كان ابن فلاح إلى قريته (شوركول) أى البحيرة المالحة للفرجة على حقول الشمام ووجد أحد المدعوين حصانًا وآخر عربة لكى نستقلها راكبين إلى الريف لكن لم يكن لدينا عدة تركيب الحصان فى العربة فوجد أحد زملائنا ملابس قديمة أتى بها وعقد بها رقبة الحصان وشد إليه العربة وأحكم وثاقه بها وتولى هو مهمة قيادة العربة وجلس على سرج الحصان وركب بقيتنا الخمسة العربة وأخذنا طريق الريف ، واتضح لنا وقت قيادة العربة أن زميلنا القائد لم يكن يدرى شيئًا من فن القيادة فكان يتخبط بنا وبالعربة فى أزقة بخارا الضيقة الملتوية ويصطدم مرة بهذه الأبواب وأخرى بتلك الجدران والأسوار حتى أخرجنا من المدينة ولما اكتسب شيئًا من تجربة القيادة فى تلك الأزقة الشديدة الالتواء والضيق حسن قيادته العربة بعد خروجه من المدينة إلى الطريق المتسع المستقيم ولما دخلنا طريق (شوركول) من الطرف الشرقى لميدان تدريب الجنود الواقع خارج بوابة سمرقند أخذ قائد عربتنا يسوق العربة بأكثر حرية وانطلاقًا وثار حماسه مما حصله من (تخصص) فى قيادة عربات الخيول إلى أن يقلد سائقى العربات الكثيرة الحنكة والدربة فجلس على جانب واحد من سرج الحصان وأخذ ينظر إلينا ويلقى بنكاته وطرائفه وكان أحيانًا يزيد من ضرب الحصان بسوطه ويحرك العربة بسرعة وهو يغنى وينشد . كان على الطرف الغربى للطريق يقع ميدان الجنود ، وكانت بين طريقنا وهذا الميدان حفرة كبير وتمتلئ بالماء بحيث كان يرتفع فيها مترًا ونصف المتر ونفس المسافة كانت تعلو الماء حتى سطح الأرض . أما فى الطرف الشرقى للطريق فقد وقعت الحديقة الملكية التى اسمها (دلكشا) أى المبهجة ، داخل هذه الحديقة الواسعة اعتلت

إحدى أشجار البرقوق فيها بنت بستانى الحديقة وكانت تجنى ثمار البرقوق ولما سمعت صوت غناء قائد عربتنا تحمست للغناء بدورها فتغنت بهذه الأبيات الآتية :

البرقوق ، البرقوق، البرقوق

البرقوق ، البرقوق ، البرقوق

اسود لون البرقوق فتعال إلى حديقتى

واسود نهار يومى فتعال إلىّ :

ولم يدع قائدنا أغنية البنت تمر بلا جواب ، فأصلح من عمامته وجعلها تبرز كقلنسوة فوق رأسه وترك حبل الحصان على غاربه ، ووقف فوق السرج نصف وقفة بحيث كان يرى أغصان الشجرة التى كانت البنت جالسة بينها ، ورفع صوته مجيباً أغنيتها:

عين غرابك الأسود

يا أمى لا ترى ألمك

لماذا يسود نهارك؟

أنا قادم إلى حديقتك!

فطربت ابنة البستانى لما سمعت الإجابة المغناة على أغنيتها لأنها قطفت برقوقة من غصن الشجرة متبخترة وبنظرات ذات دلال وألقتها نحو قائدنا المطرب ، لكن البرقوقة ضلت هدفها وأصابت النصف الأيمن من وجه الحصان بالقرب من عينيه ، فنفر وجفل الحصان لهذه الضربة المباغتة وتحرك يعدو بالعربة وهو مطلق العنان وانثنى ناحية

الشمال وبالقفزات الأولى له انزلقت العجلة اليسرى للعربة بداخل الحفرة فانقلب الحصان ومعه العربة ووقع فى هذه الحفرة المهولة.

كنت قد تعودت التحرك بخفة وسرعة فى مثل هذه المواقف الخطيرة وكنت أعد ركوب عربة يحركها حصان غير موثق الإحكام بها ويسوقها قائد عديم التجربة واحداً من هذه المواقف المخيفة وبوصول عجلة العربة إلى طرف الحفرة طرت ملقيًا بنفسى فى الهواء خوفًا على حياتى ناحية الطرف الآخر للحفرة وقبل أن تنقلب العربة على جانبها فى الحفرة هبطت إلى ذاك الطرف اليابس للحفرة لكن رفقاء سفرى سقطوا مع الحصان والعربة داخل هذه الحفرة .

انقلب الحصان داخل الحفرة وقبع بها وأخذ يضرب جدار الحفرة الهابط بقدميه الأماميتين ورأسه لكن حركاته هذى لم تفده شيئًا لكى ينهض وينجو من سقطته بالعكس بل زادت ضرباته من شدة إحكام الرباط على عنقه ومن ضغط العرقين الطويلين اللذين يربطانه بالعربة على عنقه وبطنه وأخذ خطر هلاكه يتماثل للنظر بأشد كل لحظة .

خرج الرفاق من الماء وخلعوا ملابسهم وعصروها وانشغلوا بتجفيفها ولم يهتموا بإنقاذ الحصان ولم يفكر أحد منهم فى طريقة إلى تخليصه إلا زميلنا الذى اقترض هذا الحصان من بعض معارفه وأتى فقد كان يصيح متألمًا : (لو مات الحصان فمن أين أعطى صاحبه ثمنه).

فى هذا الوقت قدم من ناحية المدينة شاب حدث السن مجند فلما رأى حالتنا خلع بسرعة زيه العسكرى وألقاها على جانب الطريق وسألنا : هل معكم سكين ؟

وكان قائد عربتنا الذى توجه إلى الريف بنية قطع ثمرات الشمام وشقها وأكلها يحمل معه سكينًا وحين تولى قيادة العربة علق هذه السكين بوسطه شأن الحوذية وقائدى عربات الخيول وتدلت فى حرابها من حزامه فقال : معى سكين وجذبها من جرابها وأعطاها الجندى ، أمسك الشاب بهذه السكين ونزل إلى داخل الحفرة وفصل بها رباط عنق الحصان وعقدات ارتباطه بعرقى العربة ففصلها عن الحصان ورفع إلى الهواء عريشها ، فتخلص الحصان من قيوده وعقداته وأخذ يتحرك داخل الحفرة فنهض واقفًا وبقفزة واحدة صعد إلى طرف الحفرة وتقدم إلى الطريق وحرك نفسه بشدة فتساقطت قطرات المياه الغزيرة من داخل أذنيه ومن خلال شعر عرفه وذيله ثم وقف ساكنًا هادئًا .

وقام الجندى الشاب بوصل ما قطعه من قيود الحصان بالعربة وربطاته وأعاد ربطه بها وأعدهما للتحرك مرة أخرى : وسلكنا طريقنا ثانية بقيادة سائقنا ، وارتدى الجندى أيضًا ثيابه العسكرية وسار خلفنا .

فناديت عليه : تعال يا أخى واركب معنا العربة .

فنظر إلينا مبتسمًا بسخرية وبقفزة واحدة اعتلى العربة معنا ، لكنى ارتبت من نظرته الساخرة إلى وأخذت أفكر فى سبب استهزائه بى ، لكنى لم أجد فى نفسى ما يدعو إلى سخريته ولم أطق المكوث صامتًا أفكر فسألت هذا الشاب :

– إلى أين تذهب يا أخى ؟

فضحك الجندى ثانية لما سمع سؤالى وأجاب :

– أنا ذاهب إلى قرية القاضى الكبير (شنبه) !

فزاد شكى وارتيابى لضحكه الذى بلا مبرر وسبب فسألته مظهراً عجبى :

– لماذا تضحك علىّ ؟

فتبسم الشاب وأجاب : أنا لست فى سنك وعمرك حتى تخاطبنى (يا أخى) فأنت فى نحو الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين كما أحدس ، لكنى فى الأربعين من عمرى بل تخطيتها إلى بداية الحادية والأربعين إلا أن القدر خلقنى ضئيل الحجم قصير القامة وبلا لحية وشارب .

– وأنى لى أن أعرف أنك فى الأربعين (واستخدمت خطاب الجمع لا المفرد) لما نظرت إلى شكلك الظاهر اعتقدت أنك فى نحو الثانية عشرة من عمرك .

فقال الجندى معتذراً : لا عجب من أنك اعتقدت أننى صغير السن حين حكمت علىَّ من شكلى الظاهر لكن ما أضحكنى هو خطابك لى (يا أخى) لأنه ذكرنى بحادثة وقعت لى منذ عشر سنوات دارت حول سنى وعمرى .

فسألته : وكيف كانت هذه الحادثة ؟

– حين كنت فى الثلاثين وكنت إذ ذاك أشد غيرة وقوة مما أنا عليه الآن قال سيدى أمام نائب القاضى الكبير لكى يغمطنى حق خدمتى له

خمس سنوات مع أنه يعرفنى ويعرف سنى حق المعرفة (هذا الولد صغير السن فكيف يستطيع أن يؤدى خدمة لك) ، فلما ذكرت للنائب أننى فى الثلاثين رد علىَّ مستهزئًا أحد سكان بخارا واسمه (قارى اشكمبة) وكان حاضراً هذه الواقعة معلقًا على قول سيدى بأنه كبرنى وربانى : (لا تزال رائحة اللبن تفوح من فمك وأنت تقول إن سنك ثلاثون عامًا ؟) .

وأنا الذى كنت أبحث دائمًا عن الإحاطة بكافة أحوال اشكمبة لما سمعت الجندى يذكر اسمه أخذت أتحقق منه عن وقائعه ، فحكى لى بالتفصيل عن أحداث اشكمبة التى قصصتها فيما سبق فى علاقته بالقرى والفلاحين وهكذا أدركت مما حكاه أنه هو نفس (تورة مراد) الذى جعل سيده روزى نائب القاضى الكبير يحبسه لكى يجبره على خدمته ، لكنه لم ينصع إلى خدمة سيده روزى وتحمل كافة ألوان العذاب والعقوبات فى حبس القاضى الكبير وتعذيب أمير شرطة الدورية .

وبسبب أن تورة مراد لم يستطع أن يجمع مالاً ليفتدى به نفسه ويخلصها من يد أمير شرطة الدورية اعتبره أتباع هذا الأمير جنديًا هاربًا منهم حتى يجبروه على أن يكون رجلاً يمكن بيعه فباعوه إلى إمارة الجندية وقسموا ثمنه بينهم وجندوه واحداً بينهم .

وسألت الجندى : هل لا يزال قارى اشكمبة يتردد على سيدك السابق روزى ؟

فقال مجيبًا : كلا ، فقد وقعت فى تلك الأثناء حادثة مات فيها روزى وجعلت اشكمبة لا يتردد على قريتى سنج سبز وبولة خوران بل وأرهبته من الاتجاه إلى الريف عمومًا فلما سألته عن تفصيلات هذه الحادثة أدلى إلىّ بهذه المعلومات :

فى عز الصيف حين يتحد روزى واشكمبة ويأخذ العمدة عن طريق تزوير الشيكات أراضى الفلاحين بالقوة والظلم ضاق الفلاحون وفاض بهم الغيظ فقاموا فى أثناء ليلة ظلماء بهدم منزله وقتله هو نفسه ونهب ما فيه من أثاث وأشياء نفيسة ثم أشعلوا النار فى منزله مقتصين آخذين بثأرهم.

فى هذا الوقت انحرفت عربتنا عن الطريق الرئيسى يسارًا وسلكت الطريق الفرعية الزراعية صوب شوركول فنزل تورة باشى من العربة وودعنا وعاد إلى الطريق الأساسى متوجهًا إلى قرية القاضى الكبيرة التى تسمى (شنبة) .

(١٣)

في الجهات الثلاث لمدينة بخارا وفي الممر المسقوف إلى سويقة باعة الأواني الصينية بنيت في الناحية اليمنى منه عمارة صغيرة ، وذات يوم تجمع عدد غفير من الناس أمام باب هذه العمارة وكان كل منهم يريد دخولها ، لكن البواب القوي الجسم كان بيده عصا ضخمة وطويلة فوقف مستنداً بظهره على جانب هذا الباب ومماداً عصاه الضخمة حتى وصلت الجانب الآخر للباب ولم يدع أحداً يمر إلى داخل العمارة ، ومن واجهة العمارة كان يتبدى داخلها تماماً من الباب فظهر للرائي حراس أمير الدورية وجنود الشرطة وحرس القاضي الكبير وموظفو رئيس المدينة وكانوا بجملتهم في حوار وجدال ساخن شديد ، وفي وسط حكام المدينة هؤلاء بدا (قاري اشكمبة) وقد تهدلت عمامته الضخمة عن رأسه فتحلقت حول عنقه وأخذ شأن النائحين على موتاهم ينحني ويركع في كل طرف ويمزق شعر لحيته بأصابعه وهو يصرخ : (آه ، احترق منزل الأبعد ، آه زهقت روحي ، آه ضاعت حياتي الغالية) وكان حيناً يخمش وجهه بأظافره فيسيل دماً وحيناً آخر ينحبس البكاء والصراخ في حلقه فلا يفهم ما يقوله أحد كأنه كلب انحشر داخل قناة مغطاة لري الحديقة ولم يظهر إلا دبره الذي كان يتلقى ضربات مؤلمة من البستاني فأخذ يصرخ ويتأوه ٠

وعلمت من حوار الناس فى الشارع أن سقف غرفة قارى اشكمبة التى كانت داخل تلك العمارة قد ثقب ليلاً وحطمت خزنته ونهبت أمواله المخبأة به ، وبناء على قوله فإن فى تلك الليلة كان مخبأ بالخزنة (عشرة آلاف تنجة فضية) كان وزن كل عشرة منها سبعة مثاقيل من العملة الخالصة الضرب البخارية ولو حسب هذا المبلغ بحساب العملة الذهبية للإمبراطورية الروسية التى تسك فى مدينة بطرس بورح فكان يبلغ (١٥٠٠) سومة .

اكتشف جنود الدورية على سقف الغرفة آثار أقدام ثلاثة أشخاص وصلوا إلى سقف هذه العمارة آتين من فوق سقف مبنى (القاوقاز) ثم صعدوا السلم الذى به فاعتلوا سقف الممر المسقوف بالسوق إلى أن وصلوا هذه العمارة وصعدوا فوق غرفة اشكمبة ، ثم عادوا منها بالطريق الذى أتوا منه وصعدوا سقف مبنى القاوقاز وهبطوا من سلمه. كان هذا السلم هو السلم الذى يصعد به الصاعدون من داخل مبنى القاوقاز إلى سطحه وكان بابه له قفل لا يفتحه غير خفير عمارة القاوقاز .

وبناء على هذا الدليل كان المسئولون والنظارة يحكمون بأن ما جرى كان خفير عمارة القاوقاز على علم به بل لابد أنه رئيس هذه المجموعة التى قامت بهذا السطو ، وأضاف قارى اشكمبة إلى هذا الدليل دليلاً آخر بقوله :

(لم يكن أحد يعلم بسر هذه الغرفة وهذه الخزنة وإخفائى المال بها غير خفير عمارة القاوقاز خاصة وأننى خبأت البارحة ذاك المبلغ الذى يعدل روحى بل هو أعز من حياتى ، وكان هذا الخفير معى وحمل معى هذا المبلغ) .

ولما أثبت اشكمبة أن الخفير هو سارقه بهذه الأدلة توجه وهو يلطم وجهه ويمزق شعره إلى قائد الشرطة والقاضي الكبير وقص أمامهما ما حدث واصطحب منهم جنديًا ومبعوثًا خاصًا لمحاكمة الخفير فوصل إلى عمارة القاوقاز .

استقبل الخفير مبعوثي المسئولين بابتسامة استهزاء بدون أن يعكر صفوه أو يغضب أو يضطرب قائلاً : أنا مستعد للمثول أمام المسئولين وأثبت كذب ادعاء هذا المرابي الماصّ لدماء الناس ، لكن بسبب أن هذه العمارة وما بها من بضائع خاصة بشركة النقل الروسية (قاوقاز – ميركوري) في عهدتي ومسئوليتي فلا أستطيع أن أتحرك إلى مكان خارجها بدون إذن مدير الشركة وبدون أن يعين أحداً مكاني في تسلم العمارة وما بها مني ، ثم أخذهما إلى مدير الشركة وقص عليه الواقعة ، خاطب مدير الشركة مبعوثي حكام بخارا قائلاً : أولاً إن خفيري ليس لصًا ، وبناء على ثقتي فيه فقد استأمنته على هذه العمارة وكل ما فيها من بضائع تجارية وقد مضت سنوات عديدة وهو يخدم هنا ولم يضع شيء ولم تتحرك قشة من مكانها ، ثانيًا إن هذا الخفير من الجالية الروسية ولديه جواز سفر صادر من الإمبراطورية وليس من حقكم أن تحاكموه في بخارا . فعودا إلى جناب قائد الشرطة والقاضي الكبير وبلغاهما تحياتي وقصا عليهما ما ذكرته .

كان خفير عمارة القاوقاز من السكان الأصلاء لمدينة بخارا وولد بها ، لكن علم من ذاك اليوم أنه كشأن بعض أهل بخارا كان يعتمد في مثل هذه المواقف على تابعيته للحكومة الروسية وبما أنه ليس من حق حكام بخارا أن يحاكموه في محاكمهم لأنه لديه الجنسية الروسية. مع

أنه من أهل بخارا الأصلاء انتهت دعوى اشكمبة على خفير عمارة القاوقاز بالبراءة من تلقاء نفسها (بلا أى غرامة أو عقاب) .

أخذ اشكمبة بعد هذه الواقعة يطوف لفترة طويلة من الوقت فى الأزقة كالمجنون ويروى إلى كل من يقابله هذه الحادثة التى أصابته ويسب ويشتم الخفير ومدير الشركة والقاضى الكبير وقائد الشرطة وأتباعهما ، وفى النهاية يشتم ويسب نفسه وكيف صدق ووثق بهذا الخفير وجعل منه محرم أسراره والعالم بخباياه وصديقه الأقرب ؟

وكان هذا الذى وقع سبب أن اشكمبة أزال ثقته تمامًا عن خفير عمارة القاوقاز الذى كان فى نظره الإنسان الوحيد الموثوق به التقى الورع وعاد إذ ذاك إلى رأيه أن (لم يبق فى الدنيا شخص يتورع عن حقوق الناس ولا يطمع فى ماله) .

لم تكد الطعنة التى أصابت صدر اشكمبة بيد خفير (قاوقاز) تندمل حتى أصابه الزمان بطعنة قاتلة فى كبده بحيث لم تبق فى جسده مقاومة وتحملاً ولم تذر فى رأسه عقلاً ووعيًا ، أصابه بهذه الطعنة النجلاء موظف خزينة لأحد الأثرياء ولم يكن اشكمبة يتوقعها منهما قط ، وقد ضرباه بهذه الطعنة مستخدمين لعبة الشيكات التى كان يعتقد أنها الحجة الوحيدة المأمونة المضمونة والتى كان يستخدمها سكين جزار لسلخ جلود المقترضين الجاهلين فى بخارا والموكل من قبله فى القيام بكافة أنواع التعامل والصفقات . ذات يوم من أيام رواج سوق شراء فراء حيوان الوشق طلب عبد الله باسم سيده من اشكمبة أن يقرضه مائة ألف تنجة بخارية (١٥ ألف سومة روسية) ووعده بإعطائه عن المبلغ المذكور فائدة مقدارها ألفا تنجة عن الشهر الواحد ،

واشترط بأن تضاف فائدة شهرين أى أربع آلاف تنجة إلى أصل المبلغ ويحرر المبلغ كله فى شيك ، ويمهله هذين الشهرين فإذا انقضيا سدد له المبلغ وفائدته واستعاد منه الشيك . ولما سمع اشكمبة بهذا العرض حل به من الفرح والسرور ما جعله لا يقربه قرار وبرز عنقه وبطنه وتضاعفا عن ذى قبل مرتين وأسرع يعدو إلى البنك لسحب المبلغ المطلوب بكل سرعته . كان يجرى فى الطريق بحيث لم يكن يرى الناس فى السوق ولا يرد على سلام أحد بل تغاضى عن مشاركة أصحاب الدكاكين بالسوق الطعام والشاى ، ولم يكن يغفل عن ذلك أبداً وبلغت عيناه من الحماس والهيجان أن اسود لونهما فلم يعد يرى بهما أحداً آتياً أو ذاهباً وصار موضع سبهم وشتمهم بسبب ضربه لأقدامهم فى الطريق أو ضرب أكتافهم بسبب سرعته أو وكزهم بساعديه أثناء السير لكنه لم يكن يسمع سبابهم وشتمهم لأنه كان يركز كل تفكيره وحواسه فى بلوغ البنك بأسرع ما يمكنه والعودة بسرعة منه بالمبلغ المطلوب .

كان اشكمبة محقًا فى سعادته من هذا العرض السخى الذى عرضه عليه عبد الله الصراف لأنه فى شهرين فقط سيحصّل منه فائدة يعطيها له البنك فى عام كامل .

سحب اشكمبة المبلغ من البنك وعاد بنفس سرعته فى مجيئه إلى عبد الله ووضع المال أمامه قائلاً : ها ، ها ، هذا هو المبلغ المطلوب ، ع ، ع، عدّ النقود وخذ خذ خذها وها ها هات الشيك ، كان لسانه من فرط حماسه ينطق الكلمات بلكنة وارتجاج .

وعد عبد الله النقود وقال : إنه ناقص لأنه ٩٦ ألف تنجة فقط .

فقال اشكمبة : ناقص ؟ لماذا ؟ ٩٦ ألف تنجة محسوبًا عليها فائدة شهرين لها يصبح الإجمالى مائة ألف فخذها وأعطنى شيكًا بمائة ألف لمدة شهرين وهذا (الختام والسلام) .

فقال عبد الله مطيلاً كلمته : كلا ، إنك تفعل هذا مع الفلاحين الأميين لكنك لا تستطيع أن تخدعنى مثلهم.

فسأله اشكمبة متظاهرًا بالجهل والسذاجة : أى خداع فى هذه المعاملة ؟

– طلبت منك قرضًا بمبلغ مائة ألف تنجة وبفائدة قدرها ألفا تنجة فى الشهر الواحد أو أربع آلاف فى الشهرين المطلوبين – وأخرج عبد الله من خزانته شيكًا بمبلغ (١٠٤) ألف سومة ولمدة شهرين مقابل الفائدة عن المبلغ الأساسى وأظهره لاشكمبة ثم تابع قوله : وبناء على وعدى جهزت لك هذا الشيك ، لكنك تريد أن تأخذ منى مقابل (٩٦) ألف تنجة ألفى تنجة فى الشهر ولعبتك هذه لا تنطلى علىّ .

إذا أردت إتمام هذه الصفقة فعد وهات الأربع آلاف تنجة الباقية وخذ شيك الفائدة بمبلغ (١٠٤) ألف الذى رأيته وإلا فخذ نقودك ولا تضيع وقتى.

ولما سمع اشكمبة هذا الجواب توجه إلى البنك ثانية بسرعة أعظم من سرعته الأولى وسحب أربع آلاف تنجة أخرى ووضعها أمام عبد الله قائلاً :

هاك المبلغ الذى طلبته فخذه وأعطنى الشيك الذى جهزته.

فقال عبد الله متعجبًا : أى مبلغ وأى شيك ؟ أنا لا أفهم من كلامك شيئًا .

فقال اشكمبة : لا تهزل ليس الآن وقت المزاح خذ المال بسرعة وهات الشيك ، روحى طلعت من الجرى ذاهبًا آتيًا ، اطلب لى شايًا حتى تهدأ أنفاسى بكوب شاى .

– أمامى أعمال كثيرة الآن ، وليس لدى متسع لطلب الشاى وتناوله فتعال إلىَّ فى وقت أكون فيه فارغًا وسوف أستضيفك لتناول ما شئت من الشاى ، انصرف الآن عنى حتى لا أخطئ فى حساباتى .

فقال اشكمبة بحزم : أعطنى الشيك ثم أنصرف عنك .

– أى شيك ؟ خذ نقودك هذه فلست أريدها ، لا أريد أن أقترض منك مالاً ولا أعطيك شيكا .

– حسن ، إذا لم ترد الاقتراض أعطنى ما سلمته لك فى المرة السابقة وهو مبلغ ٩٦ ألف تنجة ثم أتركك .

– لا تهزل يا قارى بيه ، لا وقت لدى ، فارقنى لكى أواصل عملى .

– لابد أنك تمزح ومع هذا فليكن ما تريد لكن روحى كادت أن تطلع فإما أن تعطينى نقودى أو الشيك .

– كفاك جنونًا يا قارى اخرج بسرعة فأمامى أعمال مهمة ، ثم نهض عبد الله من مكانه ودفع اشكمبة نحو الباب وهو يقول : هذا مكان عمل لا مستشفى مجانين .

– فصاح اشكمبة صارخًا : إن روحى هنا فكيف أذهب هل يستطيع الجسم الحركة بدون الروح ؟

وأيقن الموظفون أنه جن جنونه فحملوه من يديه وقدميه وحملوه كالميت ، ولم يكتفوا بإخراجه من أمام عبد الله بل طردوه إلى خارج العمارة وأمروا البواب بألا يدعه يدخل ثانية ·

عاد اشكمبة وهو يصرخ ويزعق كالكلب المطرود من دار صاحبه وأراد دخول العمارة لكن البواب الذى يشبه الأسد الهصور حمله كالقطة وقذفه إلى الشارع .

ولما يأس اشكمبة من دخول العمارة خلع عمامته من رأسه وعقدها حول عنقه وأخذ ينوح : أى ظلم هذا ، لقد انتهى الإسلام بالتمام ، آه ، وآه واحزناه وأخذ يعدو صوب قصر الأمير ، وكان من يراه على حاله هذه وهو يجرى ويصرخ لا يرتاب قط فى جنونه ·

فى ذلك الوقت كان الأمير فى زيارة إلى روسيا وكان على بوابة القصر القاضى الكبير ورئيس الشرطة يجلسان معًا ويديران أمور البلاد ·

فاتجه اشكمبة إليهما مباشرة ورمى بنفسه على الأرض وقصّ عليهما ما جرى وهو يبكى ويصرخ وطلب منهما أن يردا إليه ما أخذه عبد الله آكل مال الناس ، وأضاف :

– ليس لدى أولاد وليس لدى وريث ، كل ما لدى زوجتان إذا ظلتا على الحياة بعد موتى فسوف ترثان ربع أموالى والبقية منها هو حق خزانة البلاد حتى لو طلبتما منى أن أطلقهما ، أطلقهما وفى هذه الحالة تصير كل أموالى ملكًا خاصًا لخزانة الدولة ، وعلى هذا وأنتما حاكما الشرع الشريف ونائبا الجناب العالى اعتبرا مالى هو مال جناب الأمير العالى فاسترداه من هذا الذى لا يعرف الله وأدعو لكما بكل الخير·

ولم يرد هذان المسئولان على كلامه بغير الضحك ولأن مكانة سيد ذلك الموظف عند الحكومة أكثر وجاهة ومكنة من مكانة اشكمبة فقد رفضا طلبه واكتفيا بقولهما :

- دعواك ليست الدعوى المقررة التى نحقق فيها ، لديكم عمدة التجار وعندكم الكبير والصغير وأنتم تتعاملون بالشيكات فيما بينكم بحضور كل هؤلاء فكيف نصدع رأس إنسان محترم بدون شهادة عمدة التجار وكبار التجار وبلا إظهار الشيك أو أى مستند.

فاستمر اشكمبة فى صراخه وأعماله الجنونية لكن الحراس دفعوه وأخرجوه من بوابة القصر.

أصيب اشكمبة بالجنون التام وعاد من القصر وكان يوقف كل من يقابله فى طريقه - سواء كان يعرفه أو يجهله - ويروى له ما حدث ويطلب منه النصيحة ، فكان المستمعون يعزونه بقولهم :

- خير يا عم الشيخ ، لا ضرر ولا ضرار ، فى الأصل نقودك جاءت بالسرقة وضاعت بالسرقة وقبل (الماء العطن يعود إلى بركته) ، وكان عذابه وألمه يتضاعف حين يسمع هذه التعزية فكان يصرخ عند رش موضع احتراقه بالملح ويشتم المستمعين ويستمر فى طريقه لكى يجد مستمعين آخرين فيضحك عليه الناس والمارة .

فى هذه الأوقات قابلنى فى الطريق اشكمبة وقطع علىَّ سيرى وحكى لى حكايته وطلب منى النصيحة وتظاهرت بأننى أسمع لأول مرة ما جرى له مع أنى سمعت بها وتفصيلاتها من قبل ، فأبديت أسفى وألمى وقلت أنصحه : فى مثل هذا (الأمر العظيم) و (الخطب الجلل)

كيف نستطيع نحن الصغار الشأن أن نجد نصيحة ، اذهب واطلب المشورة من الحكام وكبار المدينة ، فيرد وهو يبدأ فى سب الكبار والدعاء عليهم : اللعنة لآباء هؤلاء الكبار ، فلتحترق منازل هؤلاء الكبار، وليمت أولاد هؤلاء الكبار الذين لم يسمعوا إلى شكواى.

وأجد نفسى مضطرا عند قص حالة اشكمبة هذه إلى ذكر ما يجول بخاطرى هنا عن حكاية (بيبى دهباشى) :

فى بخارا فى شارع الجزارين أمام مسجد الخواجة على حافة الترعة التى يقع الطريق الرئيسى على حافتها الأخرى كان يجلس الشحانون والمشردون وظهرت فى أوقات عديدة وسط صفوفهم (بيبى دهباشى) وهى امرأة مجنونة .

كان الأطفال كما هى عادتهم وهى مضايقة المجانين دائمًا يهاجمون كثيراً بيبى دهباشى ، فيرمون وجهها ورأسها بالتراب ويخطفون حذاءها وعصاها ويهربون ويجتذبون حجابها من رأسها ويلقون به فى الترعة ويظلون يضايقونها ويؤذونها بمثل ألاعيبهم وحركاتهم الشيطانية هذه وكانت بيبى دهباشى لا تقف ساكنة أمام هجوم هؤلاء الصبية فكانت تحذفهم بقطع الحجر وتدعو عليهم وتسبهم وتشتمهم .

وذات يوم كنت جالساً أمام مسجد الخواجة أرثى لفقرى متوجهاً للشمس حين تجمع الأطفال حول بيبى دهباشى وأخذوا يضايقونها ويعذبونها ، فكانت تبقى حائرة وسط جموع الأطفال حولاء النظر مقوسة القدم وتملأ حجرها بالحجر والطوب وتطردهم عنها بضعة من الأطفال المهاجمين بقذفهم فى ناحية فيهربون لكن طفلاً آخر كان يأتى

من خلفـهـا ويجـذبـهـا من ثيـابـهـا ويطرحـهـا أرضًـا فكانت تنهض من سقطتـهـا وتدفع عنها هذا الولد ومـن مـعه فيـهربون ثم يـأتى من ورائها مجموعة أخرى فيجذبونها ويطرحونها أرضًا ويخشون ضربها فيهربون ، وفى النهـاية أصـيبت بيبى دهباشى المسكينة بالعجز ومـلأت حجـرها بالأحـجـار وانسـحـبت لتسـتند على سـور المسـجد وأخـذت تدعـو على الأطفال وتمنع اقترابهم إليها بإلقاء الحجارة والطوب عليهم .

فى نفس هذا الوقت مر بضعة من الأغنياء الكبار فى بخارا ومعهم بضعة نفر من المشايخ الكبار وظهروا آتين من ناحية شـارع (باتشـاقل حـاجى) فى الناحـيـة الغـربيـة ، لابد أنهم كـانوا يشـاركون فى إحـدى الولائم وانفضـوا منهـا قادمين لأنـهم كانوا يلبسـون أفضـل مـا لديهم من ثياب كل منـهم كان يرتدى من الملابس الداخلية الحريرى الرقيق منها وفوقها أردية الديباج والقز الملوكية وعلى رءوسـهم عمائم مطرزة بخيوط الذهب فـوقـهـا قـلانس ذهبيـة وحريرية بديعة اللون وبـأقدامـهم الأحـذية اللامعة والجوارب الفاقعة الحمرة. ولابد أنهم كانوا يرومـون أن يظـهروا للناس مـلابسـهـم وأزيـاءهـم الفـخـمـة الغـاليـة لأنهم كـانـوا يسـيـرون بتـمـهل وتعزز وتبـخـتـر ، وكانت النظارة والمارة تتـفـرج على مـلابسـهـم الفـاخـرة الثـمـينة ، وكـانـوا يسـيـرون فى غـاية الكمـال والوقـار والمكنة يتجـاذبون أطراف الحديث ببطء وتمهل وهـم يخللون أسنانهم بـخـلال مـصنـوعـة من الفضـة والذهب . وكـانت بيبى هبـاشـى قد خـارت قـواها من مـهـاجـمة الصبية لها فمـا أن رأت هذا الموكب الجليل حتى أسرعت إليـهم تشكو وتتضرع وتقول لهؤلاء العلية المحترمة بكل خشوع :

- بحق رءوسكم أيها الكبار إننى مبتلاة ببلاء أولادكم : أيها الكبار أراكم الله أفراح أولادكم أيها الكبار متعكم الله بهذه الثياب والعمائم : أيها الكبار أنفقتم أموالكم فى الأفراح والهناء ، أيها الكبار خلصونى من أيدى هؤلاء الأطفال المشئومين أيها الكبار...

طبعًا لا يمكن أن يستقيم الرد على هذه المجنونة خاصة وأنها امرأة والسماع لكلامها أو حتى النظر ناحيتها وشأن هؤلاء الكبار وشوكتهم وصولتهم وحشمتهم واحترامهم ؛ وعليه فقد تظاهروا بأنهم لم يسمعوا صراخها ونواحها واستمروا فى سيرهم بنفس وقارهم وشوكتهم الأولى .

رأت بيبى أنها لن تفوز من هؤلاء العلية بأى نتيجة بل إنهم لم يحاولوا النظر إليها فبدأت فى توجيه السب والقذع والدعاء بالشر للكبار بدل الصغار.

- إلهى يا كبار تتقطع ملابسكم ... إلهى يا كبار يخلع غاسلو الموتى ملابسكم عنكم ، إلهى يا كبار تصبح أموالكم ونقودكم نصيب اللصوص وقطاع الطرق إلهى يا كبار...

لم يستطع الكبار أمام كل هذه الأدعية والالتماسات المهداة من بيبى دهباشى أن يتظاهروا بالصمم أو يصطنعوا الغفلة وعدم الانتباه أمام سيل شتائمها وألفاظها المقذعة لأنهم إن اصطنعوا عدم سماع سبابها فإن المارة والنظارة كان يسمعون سبابها وشتائمها ، وسوف ينقلون إلى العامة أن امرأة مجنونة أهدرت وجاهة كبراء المدينة وسخرت بشدة منهم ، ومع أنه بإمكان هؤلاء الكبار التصرف مع هذه المرأة المجنونة بما يجعلها تتوقف عن شتمهم وسبابهم إلا أنهم وجدوا

من الأنسب أن يتخلوا عن عظمتهم ووقارهم وأن يركنوا إلى الفرار والعدو بملابسهم الفاخرة من أمامها كما يفعل الصغار فى هروبهم أمام قذفها لهم بالحجارة وظلوا يجرون بسرعة لكى يتواروا بأسرع ما يمكنهم عن الأنظار ولا يعرف إلا قليل من الناس أن بيبى دهباشى ألقت على رءوسهم وأرديتهم الفاخرة الفخمة قمامة وأوساخاً .

لكن دهباشى ظلت لبضعة أيام تقرأ ورد سب الكبار وشتمهم وكانت كلما زاد الصغار فى إيذائها زادت هى فى سب الكبار ولم يجرؤ هؤلاء الكبار على السير فى هذا الشارع طالما بقيت هذه المرأة على قيد الحياة .

تشابهت أحوال اشكمبة هو الآخر حين لم ير من الكبار بالمدينة مساعدة لاستعادة ماله الذى سلبه عبد الله بأحوال دهباشى كثيراً فقد كان يقضى نهاره وليله مثل هذه المرأة المجنونة فى سبهم والدعاء عليهم ، بعد هذه الحادثة حدثت تغييرات على اشكمبة فخرج عن الاعتدال فى أحواله النفسية وتغيرت كذلك أحواله البدنية فأخذ يهزل وينحف يوماً بعد يوم وصار جسمه أشبه بجوال فارغ .

(١٤)

بعد مضى بضعة أشهر من حادثة عبد الله الصراف بدأ اشكمبة الخــروج تدريجياً من حالته الجنونية وأخذ مزاجه فى الاعتدال وصار إذ ذاك إذا قابل أحداً فى الأزقة يقول بعد قص آلامه وأحزانه وسّب عبد الله وشتم كبار المدينة يقول :

– ما فات مات وما الذى لا يفوت وكل ما يصيب ابن أدم يمضى وينتهى ٠

لكنه وإن تجاوز حالة الجنون لم يعد إلى سابق بدانته وضخامته كما كان فى حاله الأول فقد ظهر على جلده التعضنات البارزة والثنيات المتداخلة أشبه بكرشه الحيوان المخرجة منه بعد ذبحه كما كان لون بشرته كلون كرشة الحيوان المذبوح يميل إلى الرمادى أكثر منه إلى البياض ٠

وبدأت الحرب العالمية الأولى وأخذ شأن اشكمبة فى العلو والارتقاع ضمن صف التجار والحناطين (بائعى الغلال أو تجار الحنطة) والمرابين ، فقد كان هؤلاء التجار والحناطون يشترون الشىء اليوم بكذا ويبيعونه فى اليوم التالى مباشرة بضعفى ثمنه ، فى هذه الظروف لم يكونوا يقنعون بالأرباح التى تجلبها رءوس أموالهم فكانوا

يسرعون إلى المرابين ويقترضون منهم مهما ارتفعت الفوائد التى سيدفعونها ثم يشترون الضروريات النادرة فى السوق ويخزنونها ، وكان المرابى المتخم بالمال الذى بإمكانه ملئ أكياس نقود الحناطين والتجار فى هذه الأحوال هو اشكمبة ومن الطبيعى أن يمتلئ أيضًا كيس اشكمبة بمثل هذه الصفقات جيداً ويملأ أيضًا كرشه بطعام الحناطين المترع باللحوم والدهون حتى أقصى اتساعه وطاقته .

فى السنة الثانية من سنوات هذه الحرب أخذت بشرة اشكمبة تنعم وتستوى وتبيض وزاد اللحم فى غبغبة وتضخم كرشه أيضًا عما سبق وزادت أمواله عن مليونين وكانت فوائدها تتزايد وتتوالد كصغار الذباب الآكل للحم التى لا حصر لها .

ومع كل هذه الفوائد والمكاسب التى حصلها اشكمبة لم ينس ما فعله به عبد الله فكان يكيل له السباب والشتمات بأول كل وجبة طعام وكانت الوجبات تأتيه ليلتهمها بضع مرات فى اليوم ، فى السنة الثالثة للحرب أى عام (١٩١٦) خربت بيوت الفقراء والمصابين إلى حد أنهم لم يجدوا فتات الخبز الجافة ليأكلوها حتى لا يهلكوا جوعًا ومقابل هذه الحالة شبع الحناطون مالاً ونقوداً حتى أنهم لم يجدوا مكانًا يضعون فيه أموالهم ولم يجدوا شيئًا يشترون بها ، وصار التجار يترددون على موسكو ويلعبون بالذهب والبرلنت ، وفى هذه الحالة لم يعد التجار والحناطين بحاجة إلى المرابين وعليه قلت مكاسب اشكمبة فى العام الثالث من سنوات الحرب العالمية وأجبر على إبقاء كل أمواله فى البنك والقناعة بفائدته المنخفضة ، صحيح أنه كان يتحصل على فائدة ضخمة على رصيده العظيم الذى كان مودعًا بالبنك وكان يربو

عن مليونى سومة ذهبية لكن نهمه وجشعه الشديدين لم يردعاه أو يقفلا فمه المفتوح لكل فائدة كبيرة ، كان كلما زادت أمواله زاد شرهاً ونهماً لاجتناء الفوائد والمكاسب .

كان يرمى إلى أن يجتنى من وراء أمواله الضخمة فائدة كفائدة العام السابق تصل إلى ثلاثين بالمائة لكن لم يتحقق له ذلك أو بحد قوله (اكتسح الفيضان تلك الأيام) ، (كانت تلك الأيام سطلاً فانكسر وكأساً فانصب) . وبناء على هذا انخفض فى عام (١٩١٦) كم مأكولاته عن العام السابق ؛ لأن الأغنياء لم يعودوا يقترضون منه ولا يسمحون له بالأكل على موائدهم ولم تكن البنوك التى كان له فيها حساب جار تقدم له إلا شاياً كل يوم فى العاشرة صباحاً وبناء على ذلك اضطر إلى الاكتفاء بالوجبة المقررة على ساكنى غرفتيه والطعام المقدم فى الأفراح والمآتم والمناسبات الدينية وعلى القبور وفى الأضرحة ، ولهذه الأسباب عاد اشكمبة بداية من عام (١٩١٦) فى النحول والهزال واسمرار اللون ونحافة الكرش .

قابلته فى تلك الأيام ذات مرة واستفسرت منه عن سبب نزارة لحمه فقال :

كنت قبل هذا أتناول بالنهار والليل فى مرات كثيرة الأرز واللحم والدهون والألبان والدجاج المشوى والضأن المحمر وسائر أصناف اللحوم الأخرى لكن الآن قد زالت البركة وانتهى الخير من المنازل التى كنت أتناول فيها هذه الأصناف من قبل رغم أن أصحابها زادوا ثراء ومالاً ومضى وقت طويل لم أبل فيه شفتى من هذه المنازل وقيل إن

(الغنم تسمن بالطعام) فكيف لا أهزل وأنحف وأنا لا أجد لقمة جديرة بذات قيمة ، ثم أطرق هنيهة وأضاف بلهجة ممتنة :

- أكثر الله خيره هذا البنك ما أن أصل إليه فى وقت صرف الشاى حتى يؤتى أمامى بوعاء السكر المملوء بالسكر والفنجان المملوء بالشاى ، فأملأ قدح الشاى بالسكر حتى أنه لا يبقى به متسع للشاى وبعد إذابة السكر أضع بأعلى القدح الشاى الساخن وأشربه هنيئًا مريئًا ولو شربت فى اليوم ثلاثة أقداح لا يضيق مدير البنك بل يسعد لذلك .

فقلت له : والآن وقد زادت أموالك عن الحد وكبرت سنك ماذا يحدث لو تطبخ كل ليلة ما اشتهيت من طعام من نقودك أنت وتسكن نفسك التى تعودت التخمة والإفراط فى الأكل ؟ فيتمثل بهذا الشعر فى جوابه على وقد نظمه أحد شعراء هذا العهد فى حق المرابين .

(إذا كسر المرابى لقمة من فائدته كان بمثل كسر الزجاجة للسندان والحساء للأسنان) .

فى أواخر عام ١٩١٦ حدثت حادثة ذهبت بلب اشكمبة تمامًا وجعلته فى غاية الاضطراب والحيرة وكانت هى المزحات السخيفة لخفاف الظل من أهل بخارا ، فخفاف الظل هؤلاء كانوا إذا سمعوا أن اشكمبة أودع أمواله مثلاً فى بنك (ساى- دينياى) - الروسى - كان يأتى أحدهم وقد رسم على نفسه أمارات الحزن إلى اشكمبة ويهمس إليه قائلاً : هل سمعت يا عم الشيخ أن أمور بنك ساى دينياى قد ساءت ؟ استولى جنود العدو على مبالغ طائلة منه ويقولون إنه سوف

يفلس اليوم أو غداً فخذ حذرك فقد يحدث أى شىء ، فكان اشكمبة لسماعه هذا الخبر يعدو جارياً إلى البنك المذكور ويسحب فى الحال كل أمواله ويودعها فى بنك آخر مثل بنك (روسكاكيتا يسكى) ، وبالطبع كان خبر إيداع اشكمبة أمواله فى هذا البنك الثانى لا يخفى عن المتندرين الخفاف الظل هؤلاء فكان يأتى واحد منهم آخر إليه ويقول له فى حق هذا البنك ما قاله رفيقه بالأمس فى حق بنك ساى دينياى .

فيضطر اشكمبة ثانية إلى سحب أمواله وإيداعها فى بنك آخر أو العودة إلى نفس بنك ساى دينياى هذا .

ومع أن أصدقاءه كانوا ينصحونه بأن يودع أمواله فى البنك الإمبراطورى لأن هذا البنك سوف يظل قائماً ما بقيت دولة الإمبراطور قائمة فقد كان يرفض ذلك لأن هذا البنك كان يعطى فائدة أقل مما تعطيه البنوك الأخرى .

وفى النهاية ضاقت البنوك به ذرعاً فلم تعد تقبل إيداعه لأمواله بها ثم سحبها منها فاضطر إلى إيداع كافة أمواله فى البنك الإمبراطورى ولا يطول الأمر حتى يأتى أحدهم بأخبار سيئة عن البنك الإمبراطورى هو الآخر وكان كلما أتى خبر عن هزيمة العسكر الإمبراطورى فى الحرب العالمية فى الجرائد فكان هؤلاء الخفاف الظل المتندرون يبالغون ويهولون فى هذا الخبر ويبلغونه لاشكمبة وينصحونه بالاحتياط والحذر من هذا البنك فلا يستبعد بأن يفلس هذا البنك بدوره ويأكل عليه أمواله التى (جمعها بنزيف دماء كبده) .

لكن كيف كان بإمكانه الحذر والاحتياط ؟ فلو انهار البنك فماذا يفعل ؟ إنه لا يستطيع أن يحتفظ بأمواله فى منزله أو بأى موضع آخر خوفًا من اللصوص إذن فما الحيلة وما الخلاص ؟

وأخذ اشكمبة يفهم شيئًا فشيئًا أن هؤلاء المبلغين كانوا يهولون ويبالغون ويوصلون الأخبار أكبر من حجمها وواقعها ، ومع أنه كان فى السابق لا يقترب أبدًا إلى المجالس التى كانت تقرأ فيها الصحف والجرائد إلا أنه أصبح يتردد عليها ويستفسر من قارئى الصحف عن أخبار الحرب لكنه لم يكن يصدق ما ينقلونه من أخبار منها إليه لهذا فقد كان يجعلهم يقرأون ما فيها بأنفسهم دون تدخل منهم للشرح ويحكم هو بنفسه شيئًا فشيئًا فأخذ يشعر بالقلق والخوف دون حاجة إلى سخرية المتندرين به فذهب إلى مدير البنك الإمبراطورى بهذه الحال وسأله نصيحته ، قائلاً :

– لو انهارت لا قدر الله الحكومة الإمبراطورية الروسية فماذا نفعل نحن وأنتم ؟

فكان مدير البنك يطمئنه بقوله :

– إن الحكومة الإمبراطورية الروسية أشد صلابة من الحجر وأحكم بقاء من الجبل لأن وزراء حضرة الإمبراطور العالى وهم أعظم رجال العالم علمًا هم الذين يديرون أمورها وعليه فلن تصاب الحكومة بأى ضرر إن شاء الله . إن الصحف التركية والتترية تعادى الإمبراطور المعظم وتنشر كل أنواع الأخبار الكاذبة والملفقة ويمكن أن تجد الأخبار الصادقة فى الجرائد الروسية ثم سكت هنيهة وأضاف :

وبالطبع لا يمكن تصديق كافة الجرائد الروسية أيضًا فبداخل العاملين بها عدد كبير من أعداء الإمبراطور المعظم ؛ وعلى هذا فلا تصدق الأخبار التى تشاع فى الشوارع ولا تثق فى أخبار هذه الجرائد وحين تأتى إلىّ فى كل يوم سوف أقرأ لك الأخبار الصادقة من الجرائد الروسية الموثوق بها وأترجم لك معانيها.

وبعد هذا اللقاء كان اشكمبة يتوجه إلى البنك لأكثر من تناول الشاى لأنه كان يعرج على مدير البنك فكان يقرأ له بصوت مرتفع من أى جريدة روسية فى متناوله ويزجى له بدلاً من ترجمة أخبارها أنباء سارة من تلفيقه وتخريجاته بحيث تسعد قلبه ، وكان اشكمبة عند سماع هذه (الأخبار) يقول :

" حفظ الله حكومة الإمبراطور المعظم فهو نصير هذا البنك وظهيره وعن طريقكم هو نصيرى أيضًا وظهيرى وأعمى الله عيون أعدائه وقطع ألسنة من ينشرون الأخبار الكاذبة " .

يقول هذا ويترك مكتب المدير ويذهب إلى مطبعة البنك فيملأ كوب الشاى بالسكر ويذيبه فى الماء ويصب فوقه الشاى الساخن ويشربه هنيئًا مريئًا ، ثم يأتى إلى الأزقة ويجلس أمام الدكاكين التى يقرأ أصحابها الجرائد وينقل لهم فى مقابل الأخبار التى يقرأونها من الجرائد ما سمعه من (أخبار) مدير البنك بشىء من المبالغة ويرفض غير مصدق أخبارهم.

لكن قراء الصحف كانوا يقولون لإفزاعه :

– ليس من المستبعد أن تحدث ثورة وتنقلب البلاد رأسًا على عقب وحينذاك لن ينصاع أحد إلى أمر الملك ووزرائه وسوف يثور الفقراء وينهبون منازل الأغنياء فوا حسرتاه عليك فى هذا الوقت !

فكان اشكمبة يفزع كثيرًا تحت جلده حين يسمع كلمة (الثورة) التى تقضى إلى سلب بيوت الأغنياء ونهبها لكنه يجيبهم بلهجة يطمئن بها نفسه:

تحدث الثورة أو تقوم ثورة فما دخل هذا بى ؟ لا أملك أنا شيئًا فى دارى فلماذا أخاف نهب الفقراء ؟

وقعت أحداث الثورة الروسية فى عام (١٩١٧) وخلع إمبراطور روسيا من عرشه وحلّ على رأس اشكمبة ما كان يخشاه فى دخيلة نفسه ، أدرك أن دعواته فى حق (الإمبراطور المعظم) كانت بلا جدوى وأثر لم يستطع مدير البنك إنكار خلع الإمبراطور وإنزاله عن عرشه ، لكنه لم يتوان عن طمأنة قلب اشكمبة فقال له:

أنزلوا الإمبراطور المعظم عن عرشه نعم ولا ضرر من ذلك ، لأن الحكومة لا تزال بيد رجال هم جميعًا رجال بنوكنا وهم تجار وملاك للأراضى فلن يسمحوا بانهيار بنكنا أو ضياع مالك ، وهم رجال الدولة الأمناء كما لا يستبعد أن ينصبوا فى مكان حضرة الإمبراطور عمه (فيليكى كنيز) ... لكن اشكمبة إذ ذاك لم يعد يطمئن لمثل هذه الأحاديث ، لأنه كان سمع بأعمال قام بها الثوار وأحدثتها الثورة ، وكان يخشى هذه الأعمال بالطبع كان سمع أن قواد الجيش ثاروا فى روسيا وصادروا المنازل والأراضى والأموال وأسباب الزراعة لكبار ملاك الأراضى وقسموها واستولوا عليها ، ولا يستبعد أن يحدث نفس

الأمر في المدن ولا يقتصر على الأرياف فينهض الفقراء في بطر سبرح وموسكو أكبر المدن المركزية الروسية ويستولون على البنك الإمبراطوري وبالتأكيد سوف ينهار حينذاك فرعه في بخارا بدوره ؛ وبالنتيجة سوف تضيع أمواله التي هي أغلى من روحه ، فكان يصرخ وينوح حين راودته هذه الأفكار المفزعة المذهلة قائلاً (حل على رأسي كل ما كنت أخشاه !) .

ومهما فكر اشكمبة من أفكار فلم يكن يرى طريقًا للنجاة من هذا (القضاء السماوي) ولم يكن أمامه من حيلة غير الاعتصار همًا والتشحط في دماء الألم وهزولة جسمه ونزارة كرشه ونحولة بدنه ، أي صنيع كان يمكنه فعله ؟ إنه لا يستطيع أن يسحب أمواله ويخفيها في داره أو في مكان آخر خوف السرقة واللصوص ، لن يقترضها الأغنياء ولو أودعها في بنوك بخارا فلسوف تنهبها حكومة الأمير، إذا فلا مناص له من أن يبقيها في البنك الإمبراطوري على حالها ولسان حاله يقول (اهدأ بالاً حتى تقع الفأس في الرأس).

كان اشكمبة يقلل من الخروج إلى السوق والأزقة في تلك الأيام وإذا خرج فكان يسير في الأزقة الفرعية والحارات الضيقة حتى لا يقابل واحداً من نوي (الأخبار المشؤومة) ويسمعه خبراً سيئًا ويسود عليه عيشته ، لم يكن يتوجه في تلك الأيام إلا إلى البنك ليشرب أكواب الشاي المترع بالسكر والشاي فيه أو التوجه إلى ساكني غرفة ليلتهم معهم طعامهم أو مصاحبة الجنائز لينال ما يوزع على القبور من مأكل وملابس لكنه لم يعد يخرج إلى الأزقة والسوق .

(١٥)

سمع قارى اشكمبة خلال صيف عام (١٩١٧) أن شخصاً اسمه (بلشفيك) قد اعتلى الحكومة لم يسمع من قبل بهذا الاسم ، صحيح أنه سمع من مدير البنك الإمبراطورى احتمال أن يكون كنيز ملكاً ، لكن هذا الاسم لا يشبه ذاك الاسم الذى زال من ذاكرته إذ ذاك ، لكن لا يستبعد أن يكون هذا الاسم هو نفس ذاك الاسم الذى هو.. كنيز الذى أخبره به مدير البنك على أية حال لابد من التحقق من هذا الخبر وتحديد هوية (بلشفيك) هذا بالضبط.

ولحل هذه المشكلة توجه اشكمبة مباشرة إلى البنك لكى يقابل المدير وهو (الإنسان الصادق الوحيد) ويفهم منه حقيقة الحال ، لكنه حينما وصل البنك كان الموظفون قد حملوا الخزنة وأجولة النقود واتجهوا بها إلى (كاجان) ، لم ير من موظفى البنك غير المترجم الذى كان آخر من يغادر البنك متجهاً إلى منزله.

كان هذا المترجم من بين الخفاف الظل من أهل بخارا الذى أفزع اشكمبة أكثر من مرة بإبلاغه الأخبار الملفقة من لدنه . لم يود أولاً أن يستفسر عن شيء من هذا (الناعى) حتى لا يصاب بالاكتئاب عن سماعه إجاباته الملفقة ، لكنه أعاد التفكير فقد قالوا (لا يتأتى الخير

ما لم تقل الشر) فقال فى نفسه : (ليكن ما يكون ، سوف أسأله فلربما يظهر الفرح والسرور بعد إجاباته المنفرة على أسئلتى التى سأطرحها عليه) وسأل اشكمبة المترجم ملاحظًا ما راوده من فكر :

– يقولون إن (بلشفيك ترأس الحكومة الروسية) فهل هذا الخبر صحيح أو كاذب ؟

– فأجاب المترجم : خبر صحيح!

فاطمأن اشكمبة قليلاً من هذه الإجابة المتعجبة للمترجم فأعاد سؤاله :

– أليس بلشفيك هذا هو (فيل) أو (فيك) أو (فيليك) أو (فيلك كينز) الذى حدّس مديركم رئاسته للحكومة الروسية ؟

فأوضح المترجم : لابد أنك تقصد (فيليكى كنيز) الذى تفاءل به مديرنا (تفاؤلاً حسنًا) ؟

– أجل ، أجل ، لن أنسى من بعد اسمه المبارك (فيليكى كنيز ، فيليكى كينز) وأخذ يكرر اسم (فيليكى كنيز) ليحفظه.

فأجاب المترجم ماداً مؤكداً : كلاً وتابع إجابته بقوله : (بلشفيك) رجل و (فيليكى كنيز) رجل آخر ، بلشفيك يساوى عشرة من مثل فيليكى !

فسرت فى جسد اشكمبة رعدة الخوف لما سمع هذا الجواب وقال :

– حسن ، اترك المزاح جانبًا وأصدقنى القول : هل بلشفيك هذا أفضل من الثورة التى ثارت هناك منذ بضعة شهور وأزالت النظام

وأشاعت الفوضى فى كل شىء وانزلت نيقولا العظيم هذا الإمبراطور الرقيق من عرشه أو هو أسوأ منها ؟ هل سيكون صادقًا معنا نحن الذين لا نأكل شيئًا ولا نلبس شيئًا أو سيخلف وعده مع التنجات القليلة التى جمعناها ؟ هل سيرحم حالنا أو سوف يغلظ علينا ؟

بعد أن فكر المترجم قليلاً أجاب بقوله :

- تلك الثورة التى سمعت عنها حتى الآن والتى هلعت منها وفزعت كما يفزع الحمار من الأسد كانت أول إنجاز للبلاشفة ، وهؤلاء البلاشفة لا يجيزون لكم أيها المرابون أن تجمعوا من مص دماء الناس ملايين من السومات وتودعوها فى البنوك وتجنون من ورائها فوائد سنوية تقدر بآلاف السومات وتجلسون تهرشون كروشكم وعامة الشعب يموتون جوعًا ، وبناء على هذا فلا أعتقد أنهم سوف يرفقون بكم ٠

- حسن ، إن البنك الذى به نقودى لا يزال قائمًا وقيل (طالما أن الجذور فى الماء فالأمل فى الثمر قائم) فلماذا أشعر بالخوف ولم يحل الموت بحيث أموت فى اليوم الواحد مائة مرة وأنوق العذاب الأليم وأنا حىّ ؟

- فرد المترجم بصوت حاسم كاد أن يقتلع قلب اشكمبة: الجذور ليست فى الماء!) لقد استولى البلاشفة فى بطر سبرج وموسكو وغيرها من المدن الكبرى على البنوك والمصانع والمؤسسات والشركات الكبرى ، واستولوا على السفن فى البحار واستولوا على السكك الحديدية والمناجم وأصدروا أوامرهم بأن (كافة أراضى كبار الملاك مع أسباب زراعتها هى ملك للفلاحين الفقراء الكادحين) ٠٠ فكيف تكون فى هذه الحالة (الجذور فى الماء)الجذور ليست فى الماء بل فى النار ، الجذور تحترق بل احترقت وصارت رماداً لكنك تظن أن (الجذور فى الماء) إن

(المنزل خرب فى أساسه) لكنك مطمئن لأن (سقفه سليم وقائم) ، ظن اشكمبة أن عرق المزاح تحرك فى المترجم وبدأ دور نكاته ومزحاته وهو يود أن يقتله قبل الأوان قائلاً إن هذه الثروة والأملاك الخاصة بأناس مستقلين والأملاك الخاصة بشركات أشخاص يتمتعون بالملكية الخاصة والتى تحكمها قوانين الشريعة وقوانين الإمبراطورية (هى ملكى الخاص) ولا يجرأ أحد على النطق له بكلمة !

فرد اشكمبة بدافع هذه الأفكار الحماسية على المترجم بقوله :

- اخرس ، وابتعد عنى ، كلامك شؤم ووجهك كالح ولسانك مفلوت قطع الله لسانك انتظر غداً ماذا سأفعل بك إذا لم أبلغ مديرك هذا الكلام الفارغ الذى قلته وطردك من الخدمة بالبنك الإمبراطورى فلن أكون رجلاً :

فضحك المترجم مقهقهاً لما سمع كلام اشكمبة وقال بين ضحكاته : ولم تكن رجلاً كذلك من قبل! وابتعد عنه وهو يضحك.

ازداد اشكمبة بدافع ضحكات المترجم يقيناً بأنه كان يمزح معه ، فهدأ باله قليلاً ، لكن أفكاره المفزعة عاودت مخيلته تلك اللحظة لتقول له (لو صدق كلامه فكيف تكون حالى ؟) فانحدر ثانية إلى هاوية الفزع واستند كقالب بلا روح إلى جدار البنك ومكث فترة بلا حس وحركة وبعد أن استند اشكمبة بضع دقائق على جدار البنك فكر فى نفسه قائلاً (الوقوف هنا بلا جدوى ، البنك مقفل وذهب مديره إلى كاجان فمن الذى استقى منه الأخبار الصحيحة هنا) فسلك طريقه مضطراً إلى منزله .

ومع أن اشكمبة كان فى ذاك اليوم مثبط الروح كثيراً وكان يسلك وفق عادة أيامه الأخيرة الأزقة الفرعية التى تقل فيها المارة فقد كان يجد فى السير معجلاً خوف أن يقابله أحد المازحين ذوى الأخبار المشئومة فيسمع منه أخباراً مفزعة وتنقطع نياط قلبه ويحل به المنون قبل الأجل الطبيعى له ويفارق للأبد أمواله ، لكن اشكمبة لم يكن يرهب الموت لو كان يعلم أن أمواله سوف تصحبه بعد موته وتدفن معه فى قبر واحد فلسوف يستقبل مثل هذا الموت برضا لكنه يخشى هذا الموت الذى سيفرقه عن أمواله . كان كلما ورد إلى خاطره فكرة هذا الموت (المفزع) كان يتمثل مهمهماً ومتأسفاً بهذا البيت المنسوب إلى الشاعر عبد القادر بيدل الذى يخاطب فيه حبيبته وكان المال عند اشكمبة فى نظره أحب وآثر إليه من كل حبيب :

لا آسف على الدنيا وأنا فى سكرات الموت

بل إن أسفى هو أننى سوف أفارقك

كان اشكمبة يرى الحياة عبارة عن المال وحده وأن لذات الحياة التى تعدو المال ليست بذات قيمة قط.

رجع اشكمبة إلى منزله واستلقى فى الحال بسبب مشاق يومه لكنه لم يهنأ بالمنام فكان يتقلب من جنب إلى آخر مائة مرة فى الساعة ، وكان يلتف ملتوياً حول ذاته كشعره أصابتها النار ويتلوى كأفعى دق رأسها ولم يروجه الراحة رغم اشتياقه لها فنهض مضطراً عند السحر من مكانه وتوضأ وأخرج المصحف من طاقته ، ولم يكن قد

لسه منذ أن قرأ ختمه والدى زوجتيه ففتحه وتلا منه بضع آيات واستشفع بالكلام الشريف من (حضرة الله الكريم) باكيًا أن يعيد الإمبراطور المعظم إلى عرشه وملكه ثانية .

وبعد أن سمع أذان الفجر الذى كان يؤذن قبل طلوع الشمس بساعة خرج من منزله وتوجه إلى مسجد (مغاك) وأدى صلاة الفجر جماعة لكنه لم يحضر حلقة إنشاد أشعار المثنوى التى كانت تنعقد كل صباح فى المسجد بعد صلاة الفجر ، وكان قد تعود فيما سبق على سماع شعر مثنوى مولانا جلال الدين الرومى ولم يمكث ذاك اليوم وخرج مبكرًا من المسجد وأسرع يعدو نحو عمارة البنك الإمبراطورى الواقع فى السوق الجديدة (فى ممر بخارا) وجلس هناك على مصطبتة المرمرية ينتظر رجوع مدير البنك من (كاجان) حتى يسمع منه (الأخبار الكثيرة الإسعاد) فيستريح ويجعله يطرد المترجم المشؤوم الكالح الوجه الذى أبرز بالأمس بدون مواربة عداوته للإمبراطور المعظم من خدمته بالبنك..

وحانت الساعة الثامنة صباحًا ، لكن مدير البنك خلافًا لعادته المقررة لم يرجع حتى ذاك الوقت من كاجان وحلت التاسعة لكن لم يلح له خبر بعد ولم يرجع الموظفون الآخرون فى البنك إليه... اسودت الدنيا فى ناظرى اشكمبة ، كان يعتقد أن غبغبه الذى نحل وعجف من لحمه أكثر من مرة ولصق جلده بعظام عنقه سوف ينشق من انتفاضة من أنفاسه اللاهثة ودار بخياله أن قفصه الصدرى سوف ينشق بدوره من جيشان أنفاسه وتخرج رئتاه وقلبه منه فأخذ يضغط على عنقه بكفيه وأصابعه لكن تتابع أنفاسه الحرى لم يخمد بل كان يزيد قوة ولهثًا دقيقة بعد دقيقة .

وجاءت العاشرة ، والحادية عشرة ولم يرجع أحد بعد من كاجان .. فأخذ اشكمبة يناجى نفسه : (لو جاء هذا المترجم الشؤم الناعى فهذا أفضل من لا شىء دعه يكذب أو يمزح يفعل أى شىء فسوف أعلم منه خبراً ما وتتحسن حالتى شيئًا فمثل كلامه الكاذب المحنق الذى يثير الدخان خير لى من أن أشتعل مرة واحدة فى نار الشك) لكنه لم يأت هو الآخر .. أخذ قلبه يدق بلا نظام فمرة تزيد ضرباته وأخرى تقل وحينًا يعلو صوت دقاته وآخر يخفت كان قلبه حينًا يضعف حتى يوشك على التوقف وحينًا آخر يدق بشدة حتى كان يسمع صوت ضرباته بنفسه .

كانت أنفاس اشكمبة تأخذ فى الاختناق والضيق ثم طرأت عليه حالة مستجدة وهى أنه عجز عن التنفس ، وكان من شدة اختناقه على وشك السقوط على الأرض فنهض من جلسته على أمل أن يتسع طريق أنفاسه لكن رأسه دارت ولفت واسودت عيناه وأوشك على التدحرج فى الشارع لكنه بادر بالاستناد على جدار المبنى وحافظ على اتزانه وعدم السقوط فى الشارع . وقف اشكمبة مستنداً على الجدار منتصب القائمة وتنفس بضعة أنفاس طويلة وانفتح طريق تنفسه قليلاً وتجاوز حالة ضيق قلبه وجيشان دمه وغليان أنفاسه وبعد أن استراح بعضًا من الوقت أخرج ساعته من جيبه وفتحها فرأى أن الساعة تقترب من الثانية عشرة ، فلم يصدق أن الوقت مَرّ بهذه السرعة أو لم يشأ أن يصدق فقال فى نفسه يطمئن نفسه (لا يستبعد أن يكون عقرب ساعتى قفز يلهث أيضًا فقدم الوقت) ولكى يصدق أمله فى أن الوقت لا يزال مبكراً سأل رجلاً كان يعبر فى تلك اللحظة من أمام البنك : كم الساعة ؟

فأخرج المار من جيبه ساعته بدون أن يتوقف عن سيره وإن تباطأت خطواته وقال : الثانية عشرة وتابع سيره بسرعته الأولى.

وأدرك اشكمبة أن ساعته لم تكن تقدم بل كانت تؤخر الوقت فأدركه اليأس لكن فى اللحظة التى وهن فيها أمله شع فى قلبه ضوء أمل آخر فقال فى نفسه : (هل من البعيد أن يكون مدير البنك قد أصابه المرض أو أن قدم جواده انكسرت أو ظهر خلل فى عربته ولهذا لم يستطع أن يأتى اليوم إلى المدينة أو أنه تعطل فى طريقه ؟!) ثم تابع خواطره : حسنًا ، خلافًا لكافة آمالى فقد تحدد أن الساعة الآن هى الثانية عشرة ومع هذا لم يظهر أثر المجىء رئيس البنك ولا أحد موظفيه ، وقد حانت الآن صلاة الظهر والصلاة على الموتى فى خانقاه (ديوان بيكى) أيضًا ، والانتظار هنا بغير فائدة بل من الخسارة أن أحرم نفسى من الواجب الدينى لصلاة الجنازة وما يعطى فيها من طعام وكساء صدقة وليس من الحكمة أن (أطرد من هنا وأحرم من هناك) ويكفينى ضررًا أننى اليوم حرمت من تناول طعام الإفطار مع ساكن حجرتى لعدم عودتى للمنزل فى الصباح .

وسلك اشكمبة بهذه النية سيره من شارع (روسيمنتى) من أمام البنك متجهًا إلى حوض ديوان بيكى لكن بعد أن خطا بضع خطوات توقف عن متابعة السير وفكر : (الأفضل أن أمشى إلى سويقة باعة الثياب المطلة على الزقاق الكبير لأن القادمين من كاجان يظهرون من بعيد فى هذه السويقة فلعلى أقابل بهذا المكان المدير أو الموظفين قادمين من كاجان إلى البنك وأسمع منهم خبرًا مطمئنًا) وانحرف يمينًا بهذا الأمل والفكر قافلاً إلى سويقة باعة الثياب ، فاتجه شرقًا وهو يتصفح

وجوه القادمين من كاجان أثناء سيره وكان يتمعن فى كل خطوة يخطوها فى كل وجه يستقبله قادمًا فى طريق كاجان بأقصى ما تستطيع عيناه ، كان الطريق يمتلئ بالجياد والحمير والعربات الصغيرة ذات العجلتين وذات الأربع عجلات والمشاة ، لكن لم يظهر بينها عربة البنك التى تتميز بكبودها القوى وأبوابها المحكمة وعجلاتها الأربع الطويلة وجيادها الثلاثة وهى مشحونة بأجولة مكدسة بالنقود والموظفين والحراس المسلحين بل لم يظهر المدير حتى فى إحدى هذه العربات المسقفة ويجرها حصانان لهما حدوات صغيرة دقيقة .

ووصل اشكمبة حتى أمام مبنى الأجزاخانة الواقعة فى مواجهة أول مدخل إلى ناحية الجنوب الغربى لخانقاه ديوان بيكى ووقف هناك لحظة ونظر بدقة وتمعن مرة أخرى (لعلها المرة المائة) فى طريق القادمين من كاجان ولم يجد أثرًا لمن يبحث عنهم ، هناك انتهت السوق المغطاة وبدأ الزقاق العارى من السقف الممتلئ بالطين ومع هذا لم ير اشكمبة مناسبًا السير فيه لكى يصل إلى صحن خانقاه ديوان بيكى فتقدم على أمل أن يتلاقى مع من ينتظرهم فى خطواته التالية إلى سويقة الصابون ودخل من آخر مدخل للجنوب الشرقى لحافة حوض ديوان بيكى وتوجه من هناك عائدًا إلى حافة الحوض ووجد دخوله من هناك مناسبًا للوصول إلى صحن الخانقاه فتقدم سائرًا فى الزقاق الذى يمتلئ بالطين .

كان اشكمبة فى كل خطوة يخطوها فى هذا الزقاق تغوص قدمه وحذاؤه وجوربه حتى ركبته فى الطين والأوحال ، وكانت حذاؤه أثناء السير تظل غائصة فى الطين لا يستطيع أن يخرجها فيخرج قدمه من

وسط الطين ويضطر إلى إخراج حذائه من داخل الوحل بيديه ويلقى ما بها من أوحال ويلبسها ، كان يلهث بشدة فى سيره بهذه الحال ويسير متعثرًا ووصل إلى بداية سويقة باعة الصابون الواقعة فى شرق حوض ديوان بيكى تحت انتشار لطخات الطين عليه بفعل عجلات العربات وأرجل الخيول الآتية والقادمة ، وهناك على مقربة من سويقة العلف توقف قليلاً وأجال دقيق نظره فى سوق العلف وما حوله حيث يظهر القادمون من كاجان لكن لم يبد أى أثر لمن كان يترقب وصولهم .

وقطع اشكمبة أمله نهائيًا وكان يريد الدخول إلى حافة حوض ديوان بيكى لكنه أدار رأسه حين دخوله مرة أخرى ونظر لآخر مرة ناحية سويقة العلف ولم يصدق عينيه فى نظرته هذه لأنه رأى خلاف توقعه عربة كبيرة لها أربع عجلات قادمة من الناحية الأبعد لسويقة العلف لكنها كانت واقفة لانسداد الطريق أمامها بوجود عربات واقفة ففرك عينيه بكمه ونظفهما ونظر بدقة أكثر فرأى بلا أدنى شك وريبة أن عربة كبيرة طويلة ذات عجلات أربع وقفت محبوسة فى سوق العلف .

ولما رأى هذا المشهد كاد قلبه أن ينشق من الفرح ويموت من السعادة لأن منظر هذه العربة وشكلها لم يكن يفترق عن عربة البنك أى فرق وكانت جيادها سوداء اللون كجياد عربة البنك وفارهة الفرق الوحيد هو أن عربة البنك كان يجرها ثلاثة خيول لكن هذه العربة كانت مجرورة بحصانين ، لكن هذا الفرق لم يشكل خللاً فى نظر اشكمبة فقد فكر فى الحال أنه (ربما أصيب حصان من خيول العربة بالمرض أو الوهن فربطوا العربة اليوم بجوادين).

لكن هذه العربة لم تصل بسرعة حتى يرى فيها اشكمبة أجولة النقود الفارغة وموظفى البنك فيستريح لأن عربات النقل ذات العجلتين الواسعتين الخاصة ببخارا التى تسمى (قالب كوتشة) لم تكن تسمح لمرور هذه العربة ذات العجلات الأربع لأنها كانت قد تواجهت إحداها مع الأخرى فسدت الطريق ، وكان سائقوها المشاغبون ذوو الألفاظ المقذعة يتعاركون ويسب كل منهم الآخر ولا يريد أحد منهم التراجع وفتح الطريق أمام الآخر، وأراد اشكمبة أن يتقدم هو بنفسه ويسمع الأخبار بأسرع ما يمكنه لكن الأوحال بطرف سويقة العلف لم تدع مجالاً لأى سائر فاضطر إلى التريث مع أنه صعب ووقف تصطك أسنانه وانتظر قدوم هذه العربة الكبيرة.

وفى النهاية انفتح الطريق إذ انهزم السائقون المسافرون الذين كانوا يتعاركون مع السائقين الآتين وأجبروا على التأخر بعرباتهم والركون فى جانب من سويقة الصابون .

وبانفتاح الطريق أمام العربات القادمة بدأت كل منها تتقدم آتية وتمر أمام ناظرى اشكمبة ووصلت بدورها تلك العربة الكبيرة ذات العجلات الأربع والحصانين ، ولكن خلاف ما انتظره اشكمبة لم يكن بداخل هذه العربة أجولة النقود وموظفو البنك بل كان بدلا منهم موجوداً أحد الموتى جلس حوله موظفو المستشفى ، لقد كانت هذه العربة هى عربة المستشفى كانت تحمل جثمان أحد الأوربيين الذى مات فجأة لكى يُفحص فى المستشفى للتحقق من سبب الوفاة .

ولما رأى اشكمبة هذا المنظر وجد البيت التالى للشاعر عبد الرحمن الجامى الذى حفظه فى صغره مناسباً لحالته :

من كثرة وجودك فى روحى الجريح وعينى السهرانة.

أظن كل قادم من بعيد أنه أنت.

وتقدم اشكمبة وهو يائس تمامًا وعلى شفا الموت حزنًا حتى حوض ديوان بيكى ودخل صحن الخانقاه ، كان داخل الخانقاه وخارجها يغص بالمصلين كان كافة المصلين جالسين كل على ركبتيه فوق سجاجيدهم فى صحن الخانقاه ينتظرون الأذان ، وكان يظهر فى واجهة الصحن الجنوبى ثلاثة توابيت كان يلف أولها غطاء كتانى ، والثانى غطاء أصفر قديم باهت اللون ، أما الثالث فقد لف بغطاء حريرى مطرز بالذهب أحمر اللون جديد.

وسعد اشكمبة لرؤية هذه التوابيت الثلاثة وظل يتمنى فى قلبه (يا رب اجعل هذه التوابيت الثلاثة تتجه إلى مقبرة واحدة فاتلقى مرة واحدة ثلاث وجبات وكسوات وبذلك أعوض ما حرمته مضطراً من طعام الإفطار مع ساكن غرفتى اليوم ، ولا ضرر من أن يتجه تابوتان من الثلاثة إلى مقبرة واحدة وأفوز بوجبتين وكسائين) .

وبعد فترة قصيرة أعاد اشكمبة التفكير (حسن ، وماذا يتوجب أن أفعله لو حمل كل تابوت من الثلاثة إلى مقبرة مختلفة ؟) قال يسأل نفسه فوصل إلى هذا الحكم القاطع يجيب نفسه (فى تلك الحالة أسير خلف التابوت الملفوف بغطائه الحريرى المطرز بالذهب الأحمر لأنه يعلم من شكل التابوت وغطائه أن الميت شاب ومن أسرة ثرية وبما أن قلب كل إنسان خاصة الأب والأم والأقارب ينفطر بسبب وفاة الشاب وبسبب هذا الانفطار والحرقة الشديدة سوف يجزلون من عطائهم وصدقاتهم على قبره فضلاً عن أن الأثرياء لكى يظهروا أنفسهم أعلى من الفقراء

يجزلون العطايا على أمواتهم ، وهذا الميت شاب كما أنه ابن ثرى ولابد أن تكون عطاياه أكثر وأقيم ، وبعد أن حسم اشكمبة قراره حول الأموات والصدقات أراد أن يأخذ مكانًا بين المصلين لكنه لم يجد مكانًا لهذا دار يلف بين صفوف المصلين فوجد مكانًا فى ناحية منتحية خاليًا من المصلين فوقف فيه .

ولم يطل الوقت أذن المؤذن لإقامة الصلاة ، وبعد انتهاء الأذان وقف المصلون لأداء الصلاة ، ونهض اشكمبة بدوره مع المصلين لأداء الصلاة وأراد رفع يديه إلى أذنيه ويبدأ فى الصلاة ، فى هذا الوقت تقدم شخص قصير القامة من الصف الأخير واقترب إليه من ناحية يده اليمنى وناداه بصوت منخفض .

- عم الشيخ !

والتفت اشكمبة فى حين بلغ باطن إبهامه لحمتى أذنيه ناحية اليمين ، ولكى يسمع جيداً نداء المنادى القصير القامة الأحدب قرب أذنه أكثر إلى فمه فسأله المنادى :

- ألم تسمع؟

فسأله اشكمبة فى إجابته له : ماذا ؟

- استولى البلاشفة فى كاجان على الحكومة وصادروا جميع البنوك ومنها البنك الإمبراطورى بكافة أوراقه النقدية وذهبه وفضته ونفائسه !

ولما سمع اشكمبة هذا الخبر صاح : آه ، نقودى ! صرخ وهو فى نفس وضع التهيؤ لبداية الصلاة وسقط على جنبه إلى الأرض.

ولم يهتم المصلون بهذه الواقعة ولم يتوقفوا عن صلاتهم بسبب ما جرى لكن بعد أن انتهوا من صلاتهم رأوا خيطًا من الدم والماء الأصفر خارجًا يسيل من فم قارى اشكمبة فوق أحجار الصحن وقد أصيب ناحية وجهه وخده بالكدمات بعد أن سقط به على أحجار الصحن وبدا على وجهه اللون الرمادى الغامق وظلت أصابع يديه المخدوشة لاصقة بأذنيه . .

كان قد فارق الحياة .

– تمت الرواية –

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت . أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت . مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت . أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز — ت . س . إليوت — ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ — چين . ب . توميكنز — ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر — ل . ا . سيمينوڤا — ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية — أندريه موروا — ت . أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي — مجموعة من الكتاب — ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢ — رينيه ويليك — ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية — رونالد روبرتسون — ت . أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف — بوريس أوسبنسكي — ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» — ألكسندر بوشكين — ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة — بندكت أندرسن — ت . محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل — ميجيل دي أونامونو — ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات — غوتفريد بن — ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد — مجموعة من الكتاب — ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) — صلاح زكي أقطاي — ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل — جمال مير صادقي — ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم — جلال آل أحمد — ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب — جلال آل أحمد — ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث — أنتوني جيدنز — ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص) — نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية — ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق — باربر الاسوستكا — ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر — كارلوس ميجيل — ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة — مايك فيذرستون وسكوت لاش — ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة — صمويل بيكيت — ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني — أنطونيو بويرو باييخو — ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة — قصص مختارة — ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول) — فرنان بروديل — ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني — نماذج ومقالات — ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية — ديڤيد روبنسون — ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة — بول هيرست وجراهام تومبسون — ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج) — بيرنار فاليط — ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح — عبد الكريم الخطيبي — ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء — عبد الوهاب المؤدب — ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني — برتولت بريشت — ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع — چيرارچينيت — ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي — د. ماريا خيسوس روبييرامتي — ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر — نخبة — ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	الڤين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - ساحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

العنوان	المؤلف	المترجم
٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا نيف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتزر	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد منلوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت . عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت . إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت . أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى	روجر ألان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس ميتيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليبناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت　مارفن شيرد　ت : سامي صلاح

٣٣١ – عندما جاء السردين　ستيفن جراي　ت : سامية دياب

٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى　نخبة　ت : علي إبراهيم علي منوفي

٣٣٣ – الاسلام في بريطانيا　نبيل مطر　ت : بكر عباس

٣٣٤ – لقطات من المستقبل　آرثر س. كلارك　ت : مصطفى فهمي

٣٣٥ – عصر الشك　ناتالي ساروت　ت : فتحي العشري

٣٣٦ – متون الأهرام　نصوص قديمة　ت : حسن صابر

٣٣٧ – فلسفة الولاء　جوزايا رويس　ت : أحمد الأنصاري

٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند　نخبة　ت : جلال السعيد الحفناوي

٣٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٣　علي أصغر حكمت　ت : محمد علاء الدين منصور

٣٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط　بيرش بيربيروجلو　ت : فخري لبيب

٣٤١ – قصائد من رلكه　راينر ماريا رلكه　ت : حسن حلمي

٣٤٢ – سلامان وأبسال　نور الدين عبد الرحمن بن أحمد　ت : عبد العزيز بقوش

٣٤٣ – العالم البرجوازي الزائل　نادين جورديمر　ت : سمير عبد ربه

٣٤٤ – الموت في الشمس　بيتر بلانجوه　ت : سمير عبد ربه

٣٤٥ – الركض خلف الزمن　بونه ندائي　ت : يوسف عبد الفتاح فرج

٣٤٦ – سحر مصر　رشاد رشدي　ت : جمال الجزيري

٣٤٧ – الصبية الطائشون　جان كوكتو　ت : بكر الحلو

٣٤٨ – المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١　محمد فؤاد كوبريلي　ت : عبد الله أحمد إبراهيم

٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة　أرثر والدرون وآخرين　ت : أحمد عمر شاهين

٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية　أقلام مختلفة　ت : عطية شحاتة

٣٥١ – مبادئ المنطق　جوزايا رويس　ت : أحمد الأنصاري

٣٥٢ – قصائد من كفافيس　قسطنطين كفافيس　ت : نعيم عطية

٣٥٣ – الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية)　باسيليو بابون مالدونالد　ت : علي إبراهيم علي منوفي

٣٥٤ – الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)　باسيليو بابون مالدونالد　ت : علي إبراهيم علي منوفي

٣٥٥ – التيارات السياسية في إيران　حجت مرتضى　ت : محمود سلامة علاوي

٣٥٦ – الميراث المر　بول سالم　ت : بدر الرفاعي

٣٥٧ – متون هيرميس　نصوص قديمة　ت : عمر الفاروق عمر

٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية　نخبة　ت : مصطفى حجازي السيد

٣٥٩ – محاورات بارمنيدس　أفلاطون　ت : حبيب الشاروني

٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة　أندريه جاكوب ونويلا باركان　ت : ليلى الشربيني

٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة　آلان جرينجر　ت : عاطف معتمد وأمال شاور

٣٦٢ – تلميذ بابنبرج　هاينرش شبورال　ت : سيد أحمد فتح الله

٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقي　ريتشارد جيبسون　ت : صبري محمد حسن

٣٦٤ – حداثة شكسبير　إسماعيل سراج الدين　ت : نجلاء أبو عجاج

٣٦٥ – سأم باريس　شارل بودلير　ت : محمد أحمد حمد

٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب　كلاريسا بنكولا　ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء نخبة ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى جيرالد برنس ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليرلا لويت ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢ محمد فؤاد كوبريلى ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب وانغ مينغ ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه أمبرتو إيكو ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس أندريه شديد ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود ميلان كونديرا ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين نخبة ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤ على أصغر حكمت ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر محمد إقبال ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة سنيل باث ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة جونتر جراس ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة ر. ل. تراسك ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز محمد إقبال ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال سوزان إنجيل ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق محمد على بهزادراد ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى جانيت تود ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات چون دن ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى سعدى الشيرازى ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر نخبة ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى نخبة ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية مايف بينشى ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دى لاجرانخا ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون ت : نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون بول ديفيز ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش إسماعيل فصيح ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك تقى نجارى راد ت : محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه لورانس جين ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر فيليب تودى ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى ديفيد ميروفتس ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو مشيائيل إنده ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات زيادون ساردر ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج ج . ب . ماك ايفوى ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس تودور شتورم ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى ديفيد إبرام ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل أندريه جيد ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ مانويلا مانتاناريس ت : جمال أحمد عبد الرحمن

٤٠٧ – الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠ – خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكياڤلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ – الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٠٦٠ / ٢٠٠٢





تعد هذه الرواية الأولى التى تترجم إلى اللغة العربية عن اللغة الفارسية التاچيكية، وقد كتبها صدر الدين عينى رائد الأدب التاچيكى المعاصر، ويدور موضوعها حول بخارى، تلك المدينة العريقة وما جرى فيها من أحداث خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وما ساد فى تلك المدينة من فساد شمل كافة مناحى الحياة، وأدت - كنتيجة طبيعية - إلى سيطرة البلاشفة الروس على تلك المناطق، وكذلك تعد هذه الرواية البداية الحقيقية للواقعية فى أدب آسيا الوسطى، وهى واقعية ذات صفة شمولية، مما جعل هذه الرواية سجلاً واقعيًا وشاملاً لفترة من فترات تاريخ تاچيكستان فى كافة مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وا
وغيرها، حتى إنه يمكن اعتبارها واحدة من الم
الموثوق بها فى كتابة تاريخ تاچيكستان.

تصميم الغلاف / مجاهد العزب